اتحاد الكتاب العرب
دمشق

أيمن ناصر

اللحاف

تسعة أيام في حُوث

سلسلة الرواية (6) ـ 2008

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

اللحاف

تسعة أيام في حوث

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mailunecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
www.awu-dam.org

الإخراج الفني : سنديا عثمان
وفاء الساطي
تصميم الغلاف: منير الرفاعي
لوحة الغلاف : للمؤلف

❑❑

ايمن ناصر

اللحاف

تسعة أيام في حوث

سلسلة الرواية (6)
2008

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

الإهداء

إلى

قديسة في محراب الصبر. لعلّي أرقى إلى ترف النجوم في عينيها.. أمي

أبو الهول.معلمي الأول. أرنو إلى ملكوت رضاه بروايتي الأولى.أبي

* * *

لطالما كنتُ أستبيح مسرتي وأهوائي على حساب سعادتها ووقتها..

زوجتي ورفيقة عمري

هناء

"إليك أنا.. وأنت فيَّ"

أيمن

اليوم الأول

عصر يوم جمعة (سكن المدرسين... في ناحية حوث، من أعمال ريف صنعاء)

-1-

فاجأني بسمرته الغامقة وبياض أسنانه المتراصة حين دفع باب الحجرة ودخل. بريق عينيه أرغمني على رفع رأسي لأتأمل وجهه المنحوت بعناية إلهية لا ترقى إليها يد مخلوق. ما كان لأحد أن يتجاوز طوله الفارع وضخامة جسده كمارد قُدَّ من ليل، فلولا انحناءة خفيفة من رأسه لاصطدمت عمامته بسقف الباب.

نصف النهار كان قد مضى ونصف النافذة ورائي مغلق، وما زلتُ متربعاً فوق سريري، مسنداً ظهري للشمس والريح. أتعثر بغيم ذكرياتي. أكتب رسائل بعضها للأهل وبعضها الآخر ليست لأحد، أو ربما أكتبها لامرأة جميلة مفعمة بالسحر وتعاويذ الخلود تركض بين دمي واشتعال السطور. انسلّت لتوِّها من على أرصفة الحروف، حينما اقتحم هذا الغريب المكان كطائر خانته الرياح وأثقله البرد والتهطال.

اقتعدَ كرسياً خشبياً جرّه من تحت الطاولة ورمى بجانبه حقيبة سوداء. على الأغلب هي للاستخدام الشخصي. حيّاني بتثاقل قائلاً:

- مرحباً.... أظنه أرادها تحية مختصرة تدلّ على تعب ونفاذ صبر... قلت متذاهلاً:

- مرحباً.... تعمّدتُ الردّ بذات الكلمة لِلا سبب، مع أني أرد التحية بأحسن منها. لم يترك ذلك أثراً عنده. وما كان ينتظر الرد أصلاً، فقد تشاغل بعمامته ثم نظر إلى المكتبة وإلى اللوحات المعلقة.. لملمتُ أوراقي المثقلة بحزني، أودعتها تحت الوسادة ثم هيأت نفسي للاشيء. نفضت رأسي مشدوهاً كأنما العقل في دوار، فثمة ضوء شديد نفذ إلى دماغي وضغط على ركن الحواس، أشعل التحفز في عينيّ لهذا العملاق الغريب.. تأمّلته ملياً. تبلّلَ جبينه بنثرات من العرق والمطر.

وقورة ومليحة ملامحه الأفريقية. سُمرة وجهه الداكنة أدهشتني وسط بياض الغرفة المنداة بضوء النهار. لم أر في حياتي سُمرة جميلة توازيها من قبل، تمتزج بلون الحناء والصلصال المشوي، فتعطي انطباعاً يشبه لون الكستناء.... تجاوزَ الخمسين بعينين قاسيتين مفعمتين بالحيوية. واستقامة مذهلة لأنف جميل واسع الفتحتين وفم غامض دقيق يعلوه شارب مقصوص الحواف أشيب، وكتفين عريضتين تشهلان ثوبه الأبيض كجناحين يفردهما فوق جسدٍ ضخم أنَّ من تحته الكرسي الخشبي العريض. تعتليه عمامة بيضاء ضاق بها رأسه الأشيب. أثقلها الغبار وأوحلها المطر فمالت قليلاً إلى الخلف... غدا أشبه بمقدمة سفينة نجت لتوِّها من الغرق.

لم تهدأ يدي فوق فخذي ترسم على ورقٍ من ضباب الذاكرة كل نأمة من ملامحه المنحوتة، أختزنها تحت لحاف عقلي الباطن. هي عادة قديمة منذ الطفولة أمارسها كلما لمحتُ وجهاً مميزاً نبيلاً تجلّله الهيبة والوقار، أو وجهاً غريباً جميلاً يدثره الحلم كوجه بحار. أرسمه في مخيلتي خشية ألا أراه ثانية. وهذا ما يحدث عادة للوجوه التي أرسمها على هذا النوع من الورق.

رحّبتُ بضيفي العملاق ثانية، مفسحاً له مجال الحديث عن سبب اقتحامه خلوتيبهذا الشكل - ليست المصادفة ما دفعته للدخول

بالتأكيد ـ التقت نظراتنا فابتسمت له، أردت أن أكون بشوشاً... لا.. لم أرِد هو طبعي الذي نشأت عليه في استقبال الآخرين. أو لعلّي أردت أن أقدّر أي نوع من الرجال هو؟ فخطوط وجهه الصلبة ما أحسستها غريبة عني. شعرت أنها تسكن ذاكرتي، لا أدري كيف ومتى؟ ربما في رواية ما! سبابته اليمنى تختزن قوة كامنة، فما هدأتْ تنقر الطاولة بإيقاع رتيب. خلته للحظات نسي وجودي أمامه. إلا أنه حكّ لحيته الشيباء التي كانت تمنح وجهه الأسمر/ كدتِ أقول الأسود / خشونة ومهابة. صوّب عينيه كعيني سمكة في وجهي. ثم قدّم نفسه بهدوء من ناء بحمل الخطايا وأضناه الترحال:

ـ أنا سيِّد عثمان الغانم، مدرِّس اللغة الإنكليزية الجديد.

كان صوته يهطل بطيئاً يختلط بحروف مثلّمة أثقلها المطر. دمدمت لنفسي: (هو أنت إذن المدرّس المنتظر!). لم يقل إنه سوداني. مدركاً أن لونه المميز، وجلابية بيضاء منزوعة الياقة فضفاضة الأكمام وعمامة بحجم كفن، تكفي للدلالة على ذلك.

نزلتُ عن السرير مقترباً منه. وقفَ مرحِّباً بي. رفعت رأسي، كنت مضطراً أن أرفع رأسي لأحدثه. وأرى تقاسيم وجهه ولون الزيتون في عينيه. رغم أن طولي وحجمي لا بأس بهما قياساً لمن هم في مثل سني في شرقنا المتوسط. لأول مرة أرى سودانياً له عينان بلونٍ أخضرٍ نضر.

بدت نظراته وقسمات وجهه أقل قسوة من المرة الأولى! لعله انعكاس الضوء.. مازال يترقب ردّ فعلي كأصيص خزفٍ فاجأته الريح وهو على شرفة من فرح. رحّبتُ به: أهلاً بك أستاذ سيد

لم يبدِ أيّ حركة تدل على أنه سمعني، فشككت أن صوتي غادر حنجرتي. كان منشغلاً بألم ما في رأسه.

أعدت الترحاب بصوت أعلى: أهلاً أستاذ سيد..

ارتجفت عضلة تحت عينه اليسرى، لعلها ارتعاشة قلقٍ أو توتر. تساءلت في سري إن كان قد بدر مني ما يسيء؟ لعلي رفعت صوتي أكثر مما يجب! ضغط على صدغيه بأصابعه وقال:

- أهـلاً.. أخبَرَنـي الأسـتاذ أحمـد الحوثـي أن ألـتحق بـسكن المدرسين في غرفة المدرّس الحمداني. هل أخطأت العنوان؟

- لا لم تخطئ. فقد آنستَ المكان.

- أفهم من ترحابك، أنك تقبلني شريكاً في غرفتك؟

- شواطئ الشام تتسع لكل سفن الأحبة، حيّاك الله يا رجل، وحيّا الريح التي أرسلتك.

- وحيّاك، وحيّاك! شكراً لك أستاذ.....

- عفواً لم أُعرّفك بنفسي، أنا حمزة، حمزة الحمداني من شرق المتوسط. أحد رعايا مدينة نسيها الرشيد على شاطئ الفرات.

شدَّ قامته كسنديانة شامخة، مصافحاً باليمنى ومطبطباً يده اليسرى على كتفي الأيمن حسب الطريقة السودانية في التحية. لم أستطع مجاراته بذات الطريقة، كان كتفه قريباً من السقف... كان عملاقاً.. ضحكتْ ملامحه الجادة حين اكتشف ضآلة حجمي في ظل حجمه الوارف الظلال.

- تشرفنا أستاذ حمزة، وأعتذر عن دخولي غرفتك بهذا الشكل، عليك الله تسامحني، فأنا..

قاطعته بلطف وشددتُ على يده بقوة، أقصد حاولت أن أشد على يده بقوة، فكفي ضاعت في كفه:

- لا عليك أستاذ سيد. استرح، فلا حرج على من يركب الريح..

- الريح؟ وهل أبقت الريح مني سوى هذا الزول الذي أمامك؟.

- إذا كان هذا ما تبقى منك، فهل كنت جبلاً، مثلاً؟

أعجبته فكرة الجبل. أخذ نفَساً عميقاً، ونفخ صدره باستعراض لا يخلو من مرح، ثم قال:

- آ ... زول، وهل تراني غير ذلك؟

قلت مخففاً من وطأة المباهاة التي غمرته:

- لا أراك غير ذلك. ولو! أنت أكبر من جبل، ولكن يبدو أن

لكل منا ريحاً قذفته إلى أرض غير أرضه. وريحك يا أستاذ جبل عاتية حتى استطاعت حملك إلى أرض اليمن ..

ابتسم وردّ اللسعةَ بذات المرح:

- ولا بدَّ أنَّ الرشيد نسي أن يترك على شواطئ مدينته سفناً تليق بربَّان مثلك كيلا يهاجر ويعمل ملاحاً في سفن غيره!

تساءلت في سري لمَ ردّه قاسٍ وجارح بهذا الشكل؟ فقد أيقظ في نفسي حرائقَ جرحٍ ليس كأي جرح.

- عم سيد! تراك غرزت أصابعك المالحة في قلبي! نهايات الشوك في كلماتك آلَمتني وأشعلت حطب روحي. ذكّرتني سبب هجرتي القسرية إلى اليمن.

اعتذرَ بصدق حاسّاً بالذنب:

- آسف حمزة، بجد أنا آسف، كنت أمازحك ليس أكثر، ماني داري كيف أتعامل معك وكيف أخاطبك.. دَا حين أبوس راسك.

- أستغفر الله يا رجل، ولا يهمك، أنا مَن بدأ النزال، ولا بد من الغبار. استرح أرجوك..

منعته بلطف من تقبيل رأسي وأحسست بالذنب من اعتذاره الشديد. ثم جلس صامتاً متربعاً كشجرة بكامل أغصانها ونظر إليّ ثم شرد بعيداً عبر النافذة. خلته يؤنب نفسه على يده المالحة تلك. لكنه ضغط بأصابعه على صدغيه ثانية. لا بد أن الألم الذي انتابه قبل قليل عاوده ثانية. هدأ ثم أخرج غليوناً ملأه تبغاً ذو رائحة عَطرة، وأشعله بعود ثقاب أبقاه مشتعلاً للحظات. أعاد الحركة أكثر من مرة ليتأكد من اشتعال التبغ. امتلأ المكان برائحة لذيذة.

تصادف في ذات اللحظة، أنّ ألماً فظيعاً كان يسيل في مؤخرة رأسي. فقد مضى وقت طويل وأنا أرتكب حماقة كتابة الرسائل، وظهري مشرع لقوافل من البرد القارص تدق عنقي. وهي عادة أخرى اعتدتها في مثل هذا اليوم من أيام الجمع في حوث، أبدؤها بعد الانتهاء من طقس

غسيل الثياب ونشرها على الحبال في الساحة الخلفية للسكن. ثم الاستحمام والتطيب وارتداء الجلابية الخاصة بصلاة الجمعة.

كان رأسه المدوّر مع لحيته البيضاء وعمامته المنداة برذاذ السماء وغليونه المشرّع تُشكّل تحفة أثرية تغري بالاقتناء فيما لو كانت في " غاليري للأنتيكا ". عبثَ بقلم فحم تركتُه صباح اليوم على الطاولة. ثم سألني بثقة العارف راغباً في تغيير طريقة النزال وهو يتأمل المكان:

- حمزة الحمداني! أيّ الحمدانيين تقصد؟ التغالبة..؟ سيف الدولة أمير حلب! وأبي فراس الشاعر. أَم...؟

- أَمّاذا! وهل تراني غير ذلك يا عم سيد؟

فاجأني سؤاله المبطن بالشك! فرددتُ بذات المباهاة التي غمرته قبل قليل.. دفع عمامته للخلف، وحكّ جلدة رأسه فانكشف كمّه الواسع عن عضدٍ أسود كجذع سروة محترق. أظنه تفاجأ بالنديّة والمباشرة في ردّي. فقد رفع حاجبيه مستغرباً وقال:

- على هونك يا زول! لا تأخذك الحمية التغلبية، لقد كلّمَني الحوثي كثيراً عنك فأثار فضولي لمعرفة ما عندك. هذا كل ما في الأمر.

كنت أعلم أن كلمة زول تعني رجل، ولكني ما كنت أرتاح لها حين كنت أُنادى بها من زملاء سودانيين في صنعاء، أُحسُّ أنها أقرب إلى كلمة شبح من كلمة رجل. يبدو أني سأعتاد عليها منذ اليوم.

ملأتُ الركوة ماءً أهيئُ له قهوة الترحاب. أرحتُها على بابور الغاز وتساءلت في سري، تُرى هل يمتلك كتباً في حقائبه؟ أمهووس بالقراءة؟ بالكتابة؟ هل يرسم؟ هل ينظم الشعر؟ هل..؟ والسؤال الأهم، أين عفشه وحقائبه ؟ حرّكتُ القهوة وآثرت الصمت والتذكر للحظات. لا أدري لم راودني إحساس من يبدد وقته في انتظار أن يحدث ما لن يحدث. فقد أطفأ هو غليونه، وأشعلت أنا... ذاكرتي .

***

- 2 -

عليَّ الاعتراف أني كنت أعلم بقدوم المدرس الجديد، ولكن بغير هذا الحجم واللون.. فقد كان جميع المدرسين القاطنين في السكن يترقبون قدومه. وللأمانة أقول إن الشيء الذي لم نكن نعرفه، والذي فاجأني أنا بالذات هو أنه سوداني وعملاق.

فقبل مجيئه بيومين، أي أول أمس الأربعاء، وفي نهاية الدوام، دعانا الأستاذ أحمد الحوثي مدير المعهد، ورئيس المنطقة التعليمية في حوث التابعة لريف صنعاء. إلى اجتماع في قاعة المدرسين، أبلَغنا فيه أن مدرّساً جديداً للغة الانكليزية سيلتحق خلال يومين أو ثلاثة بالمعهد، وعلينا أن نؤمّن له إقامة مناسبة، في إحدى غرف المدرسين.. كان الحوثي بكلامه، يرمي إلى مَن لديهم وسعاً في غرفهم..

لكنهم وللأسف كانوا أول من عارض ورفض فكرة استقبال المدرس الجديد بحجة عدم وجود متسع لإقامته، وحجج أخرى تافهة تنم عن لؤم وخبث.

فعناء الكعبي مدرس الرياضيات الأردني من أصول فلسطينية. يعيش وحده في غرفة تزيد عن غرفتي مرتين يأكل وحده دون مشاركة أحد لبخله وخسة أخلاقه. كان وجهه أمرد كالحاً أقرب إلى لون الوحل الآسن. تجاوز الخمسين وما وجد فتاة ترضى به.. خطب العديد من النساء وعقد قرانه على إحداهن لكنها ما استطاعت تقبّل العيش معه بعد أن اكتشفت بخله وغيرته الغبية وطبعه اللئيم وحقده على كل ناجح ومتفوق... وقف متصلباً قطعة واحدة، واضعاً يده على خاصرته مدَّعياً الألم حين سأله الأستاذ أحمد إمكانية استقبال المدرس الجديد. كان اللؤم يقطر من جبينه الضيق وأنفه الطويل وفمه المزرق.. ادّعى أنه

ينام على الأرض دون فراش لأنه يعاني من ديسك وانقراص في إحدى فقرات عصعصه. وأن أغراضه متراكمة فوق سريره. وهذا كاف بنظره كي لا يشاركه أحد الغرفه. قال ذلك وعض على شفته متظاهراً بالألم الشديد مستنداً إلى طرف الكرسي الذي أمامه مؤكداً تفاقم حالته، ثم جلس كلوح من خشب.

أما عبد السميع مدرس التربية الدينية، الملقّب شيخ عبدو، بدا مكعّب الشكل مضحكاً بمؤخرته الناتئة وكرشه المندلق الذي يكاد يمزق عرى أزرة قميصه المقفولة حتى عنقه الغائص في جسده. ولحيته الحمراء المحنّاة المتناثرة على صدره. يضع على رأسه طاقية صوف تقي صلعته برد حوث. يَدَّعي التدين إرضاءً لجماعة متطرفة؟ يقال إن له عمولة جيدة عن كل رأس يستطيع إمالته نحو الجماعة. هذا الكلام غير مثبت فعلياً، لكنه يثار كلما تثار سيرة هذا الرجل في غيابه أو حتى في حضوره.

اعتذر عبدو عن استقبال المدرس الجديد في حجرته بشكل صريح. سأله الحوثي مستغرباً عن السبب وهو يعلم اتساع غرفته. استجمع عبدو وقاحته وقال مدّعياً دون خجل كلاماً أثار جواً من الاشمئزاز والقرف في القاعة:

- مش عارف أقولها ازاي لكن كرشي تحتوي غازات كتيرة، تجعلني أُكثر من الذهاب إلى الحمّام لإخراجها، أو أضطر لتنفيسها وأنا نائم. وهذا لا يليق مع شريك في غرفة واحدة. لذا فأنا حريص ألاّ أقلق راحة أحد. ومش عايز حد يفسد عليّ ترتيبي الروحاني في قيام الليل.

عبد السميع هذا هو من ألصق بنفسه لقب الشيخ. كسباً للاحترام الذي يلقاه الشيوخ في اليمن ممن زهدوا في الدنيا وفرّغوا أنفسهم للدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أو ممن هم رجال إفتاء ومشورة في القبائل. أولاء لهم الحظوة دائماً في الدعوات إلى الولائم وإمامة

المساجد، ويتسابق العامة والأغنياء إلى كسب ودّهم والدعاء لهم بطول العمر ومنحهم الهبات والعطايا في رمضان والأعياد والمناسبات الاجتماعية كالزواج والطهور والمآتم. فأراد صاحبنا أن ينال حظوتهم..

جلس عبدو مكانه وسط ذهول الحوثي ودهشة الزملاء من رده المقرف. وغلف المكان صمت ثقيل..

أما صلاح المدرس السوري المتسلط والمتنمر، أستاذ الفيزياء والعلوم في معهد حوث، كان لطيفاً ودود الكلام في الظاهر غير أنه كاذب ومنافق في أعماقه. وقف بمريوله الأبيض كوتد خيمة ضاع نصفه في الأرض، فما تجاوزت هامته حافة كرسي الخيزران. أما صوته فكان أعلى من ذلك بكثير. مؤكداً فكرة عبد السميع في رفض قدوم مدرسٍ للغة الانجليزية من أساسها. مدّعياً أن المعهد مكتف ما دام هو - أي صلاح - يغطي هذه المادة منذ العام الفائت، إلى جانب مادته الأصلية العلوم كونه يجيد الإنجليزية. ومن لا يعرفه يظنه يتحدث لمصلحة المعهد. وحوث كلها تعرف أن غرضه هو الدروس الخصوصية التي يستنزف بها طلاب شعبتَي السنة الأخيرة في المعهد. فهو يجمع أغلب الطلاب في بيت أحدهم بعد صلاة العشاء لإعطائهم دروساً خاصة في اللغة الإنكليزية، لقاء مبالغ يتقاضاها سلفاً. وحين يقترب العام الدراسي من نهايته يُبقي الطلاب المقتدرين من أبناء التجار، يبتزهم مقابل خمسمائة ريال يدفعها كل طالب لقاء أسئلة الامتحان الأخير يسرِّبها لهم..

تململ صلاح في وقفته وشعر أن حجَّته واهية لا تجدي نفعاً. بل تُحسب عليه، وهو المفضوح أمره، والمكروه عند أغلب الزملاء. نبّهه عبدو بأصابعه وعينيه أن يستمر ويزيد في الكلام. بلع صلاح ريقه بنفس اللحظة التي اندفعت فيها ريح باردة من النافذة التي يقف بجوارها. رفع يده محاولاً إعادة الشعر المتطاير فوق صلعته، لم يفلح، فقد عاد شعره للوقوف ثانية كخرقة ممزقة يابسة. مما دفعه لأن يُبقي

يديه الاثنتين فوق رأسه كقزم في سيرك ينتظر دوره بالحركة. ثم اختلق أكذوبة جديدة:

- يعلم بعض الزملاء أني أعاني من الصَّدَف المتناثر على جسدي وخاصة في أماكن حساسة من جسمي، أدهنه بمراهم تفرض عليّ أن أكون عارياً تماماً طوال وقت الدهون؛ وهذا كشف للعورة لا يسمح به الدين ولا تسمح به الأخلاق مع شريك غريب في غرفتي. ..

تناظر مع عبدو الذي غمزه متواطئاً ومؤيداً كلامه بابتسامة خبيثة. وما أظنهما إلا قد اتفقا على هذه الحجج قبل دخولهما القاعة بعد أن عرفا سبب الاجتماع.

أما صبحي مدرس اللغة العربية فقد أدلى بدلوه. بعد أن تنحنح معلناً عن وجوده الدائم بترانشكوته الرصاصي ذي الأزرار الكثيرة، وشاربيه الرفيعين، وشعره الأسود المصبوغ والملتصق تماماً بجلدة رأسه. بالغراء ربما؟ لذا لم تؤثر فيه ريح النافذة، كما فعلت بصديقه وبلدياته صلاح..

قال متفذلكاً بفصاحة مفتعلة يثبت من ورائها أنه المتحدث الفصيح الأوحد في القاعة:

- كلكم تعلمون وهذا ليس سراً أفشيه لكم، أن لي لهاة طويلة في حلقي. وزائدة لحمية في أنفي، تجعلاني أشخر شخيراً مزعجاً آناء الليل وقيلولة النهار. كما أني أتحدث خلال نومي بأمور خاصة، لذا أعتذر بكل احترام للأستاذ الحوثي عن استقبال المدرس الجديد، لا لشيء. إنما لا أريد أن أضايق أحداً بشخيري ولا أن يطّلع على أسراري التي أحكيها أثناء نومي.

ارتفعت أصوات جماعته مؤكدة كلامه. فتأكد لي أنهم ثلة قذرة، تآمرت ضد هذا القادم المجهول..

وسط هذا الجو المشحون في الاجتماع كادت أعصابي تفلت مني. فبالرغم من تخاريف تلك العصبة المتفقي الأدوار والأعذار القبيحة، التي تخجل الأبالسة عن ذكرها. كان المدير، الأستاذ الحوثي، حليماً

كاظماً للغيظ كعادته، كنت أراقبه منذ بدء الجلسة. فقليلاً ما رمشت عيناه. كان متفاجئاً.. ساهماً وقاسياً على نفسه بلا ضجيج كعادته وصامتاً كتمثال من حجر.. وما غيّر وقفته المعتزة الواثقة. خلته كان يستمع بعينيه المسلطتين كرمحين على المجموعة الرافضة استقبال المدرس الجديد. وقد جمع يديه فوق مقبض خنجره المعقوف كعادة أهل اليمن حين ينتظرون أمراً ما، أو حين يغضبون، أو حتى حين ينوون القتل...

الأستاذ الحوثي هو بكرُ عائلة مشهودٌ لها بالثقافة والتدين والأصول القبلية. خَلَفَ أباه بعد تقاعده في إدارة المعهد وإدارة المركز التعليمي في حوث كلها.. كان ربع القامة، مليح الوجه، غير ميالٍ للضجيج وتضخيمِ الأمور، دمث الخلق ودوداً طيباً مع الجميع. يكتفي بالنظرة الحادة إلى المقصِّر منا، دون توبيخ أو زجر. لكن ما حصل أمامه الليلة فعل دنيء.. يستوجب منه الغضب.. تعرفت إلى حكمته وحلمه يوم وفاة والده في العام الفائت.. زرناه في اليوم الثاني للوفاة. دخلنا وقتها من بوابة كبيرة إلى بهو تزيِّن جدرانه آيات قرآنية يتوسطها لفظ الجلالة وعلى يمين الجدار المقابل سلّم حجري صعدنا منه إلى قاعة كبيرة أُعِدّتْ لمثل هذه المناسبات.. كانت تضجّ بالمعزِّين.. رحب الأستاذ أحمد بنا وابتسامته ما فارقته طوال العزاء من ثم دعانا لوليمة غداء في القاعة المجاورة وكانت صواني لحم المندي والمظبي مرصوفة بجانب بعضها على طول السفرة. وبعد الانتهاء من الأكل عدنا للقاعة الأولى، ودارت كاسات الشراب الملوَّن. وصحون الحلو حسب العادات المتبعة .. ترحَّمنا على الميت واستأذنّا بالخروج من حيث دخلنا.. ولكن مضيفنا طلب منا التوجه في طريقٍ ثان كان سلّمه الحجري أكثر ظلمة من الأول..وأكثر التواءً وانحداراً إلى أن وصلنا بوابة صغيرة أجبرتنا على أن نحني قاماتنا عند الخروج من تحتها.. وقفنا قليلاً نأخذ عبرَة مما حصل، وقليلاً من القهوة المرَّة. تبسَّم الأستاذ أحمد وقال: (تستغربون الذي جرى؟ إن دخولكم

من الباب الرئيسي إلى بهو واسع هو ولادة الإنسان إلى الدنيا الواسعة. وصعودكم الدرج والالتفاف ثم الجلوس في الديوانية هو صراعكم مع الحياة.. أما خروجكم من درج ضيق ومظلم. مخرجه منخفض، إنما هو باب الموت.. فكلما اقتربتم منه كثُرَتْ ظلمته وضاقت دهاليزه.. هكذا هي الحياة. استراحة قصيرة.. دخول من باب وخروج من باب آخر. هكذا صُمِّمتْ بيوتنا لتذكرنا كل حين بالموت والحياة. سأله أبو سريع الصعيدي: (ليه بتوزعوا شربات وحلو؟).. رد عليه الحوثي: (هذه مباهج الحياة وأيامها الحلوة. لابد منها.. نحن لا نحزن بطريقة أهل الشام ومصر، فلا لطم وجوه عند نسائنا ولا شق جيوب ولا نواح ولا عويل. كل شيء يتم بهدوء دون مراسيم ومواكب. نودع الميت كانه مسافر إلى بلاد بعيدة. على الأرجح أنه لن يرجع منها، بل نحن من سيلحق به تباعاً..

التقت عيناي بعيني الأستاذ أحمد وكأني به يسأل:

- ما أفعل بهؤلاء؟ الرجل قادم، وقد وعدته أن مكانه جاهز في المعهد وفي السكن.

آخر ما يفكر به الحوثي النبيل هو أن يلتمس أو يستجدي حلاً من مثل هؤلاء الرعاع. وهو ذو النفس الأبية سليل عائلة ثرية ذات مكانة يحسب لها ألف حساب بين القبائل. أدركتُ حساسية موقفه الذي لا يحسد عليه وهو مدير المعهد ومسؤول المنطقة التعليمة بكاملها. فقد أعطى وعداً للمدرس والموجّه التربوي الذي سعى له بذلك... لا بد من التدخل والمساعدة. فلطالما غمرني الرجل بكرم أخلاقه واهتمامه. وكانت تربطني به صداقة طيبة تعود إلى بدايات مجيئي إلى حوث. وقد جاء الوقت الذي أردُّ فيه بعضاً من فضائله علي. وما آلمني هو أننا كنا أكثر من عشرين مدرساً عربياً في الاجتماع ولم يتحذلق ويرفض استقبال المدرس الجديد إلا من كان يمتلك متسعاً في غرفته. أما الذين غرفهم ضيقة أو تكتظ باثنين أو ثلاثة فلم يترددوا في قبول الرجل معهم.

لكن الحوثي شكرهم وما كان يعنيهم بكلامه. فمحمد الملقب بالنبطي مدرس الفقه يساكن ممدوح أبو طلال مدرس الفلسفة في غرفة واحدة... وزياد الديري مدرّس التاريخ، صديقي الأشقر الودود ذو الشاربين المعقوفين. الملقّب بزياد الرِّزل، ما كان وحده أيضاً في غرفته، معه نواف التدمري مدرس الرياضة ذو الوجه الطفولي وأصغر المدرسين سناً. نظرت إلى زياد، كان يجلس بجواري، تأملت صلعته الآخذة في التعرق واللمعان. وهي من علامات الحر الشديد الذي يكرهه أشد الكره، وما دام الجو بارداً ولطيفاً فهي إذن من علامات الغضب، وهذا هو الاحتمال الأرجح. انتبهت إلى فمه يبرطم تحت شاربيه الكثين يسب ويلعن، وإلى يديه ترتجفان. إذن هو يتميز من الغيظ، ولا بد من انفجاره في أية لحظة، وفعلاً لم يتمالك نفسه وهو يستمع إلى ترهات العصبة اللعينة، هبَّ واقفاً، نظر إليهم وانفلت مجرور غضبه:

- إيش أسمع أولاد الدَّكرة؟ هل أصبح للأنذال طقوس روحانية وعلاجات خاصة ؟ ولك يا أوباش. أقل ما يحتاجه الأستاذ أحمد منكم هو شوية وفاء. يا عديمي الوفاء.كنتم تنامون مع البقر والجواميس في زريبة واحدة عند أهاليكم! يا بقر. يا جرذان! اسمعوا. لا بد من تنفيذ الوعد الذي قطعه المدير للرجل. وإلا قسماً بالله العظيم أرمي أغراضكم في نُص حوش وما يحصل لكم طيب.. وأخلّي الما يشتري يتفرج. وتعرفوني أعملها... وَلَكْ حرام على وجوهكم شوارب. أنتم عاهرات. لأ.. العاهرات أشرف منكم. إنتم زنوات.. أستاذ أحمد لو سمحت حدّد الغرفة التي ترغب، وخلّي الباقي على الله.. ثم علي.

أطبق الصمت على الجميع ثم علا صوت مخذول من بين الجمع:

- هتعمل إيه يعني؟

صوت لم يتوقع أحد أن يسمعه بعد مداخلة زياد. كان صوت الشيخ عبدو متبرماً ومتحدياً، مع علمه المسبق بينه وبين نفسه أن ليس بمقدوره مواجهة زياد. لكنه استقوى بثلّته القذرة.. وأثار دهشة الحضور

الذين يعرفون تماماً أنه ليس أهلاً لهذا التحدي السافر. فهو رعديد وإمّعة لا حول له ولا قوة. التفت زياد حيث يقف الشيخ عبدو. قلّب كفيه مستغرباً، وردّ ساخراً مصغراً إياه:

- من؟ شويخ عبوده النتن! بياع البرشام! اسمعوا من يتكلم؟ صار لك لسان وتحكي يا وبش؟ راح تشوف هعمل إيه يا أبو الغازات، يا نكرة. قسماً بأعناق أباريق الخمر إلاّ أبعج كرشك وألعن أبوك وأبو الجابك لهون. يا وسَخَه...

ثم انقض عليه بسرعة البرق. جرّه من لحيته الحمراء ونطحه على جبينه فترنح عبدو مولولاً كالنساء. وأطبق عليه بيديه محاولاً رفعه من أذنيه إلى أعلى، وكاد ينتزع رأسه من رقبته، لولا أنه أفلته لثقله ولكمه على عينه، ثم رفسه بركبته أسفل بطنه. فترنح عبدو وسقط مغشياً على الأرض. لم يكتف زياد بل أخذ يمسح بجثته الأرض، ثم ركله وبصق عليه قائلاً:

- شفت "هعمل" إيه يا حقير..

تدخّل صلاح وعناء وصبحي دفاعاً عن شريكهم الشيخ الجريح، وقد فوجئوا بهجوم زياد المفاجئ وغير المتوقع، إلا أن زياداً لم يتردد في ضربهم، فقد نالهم نصف ما نال عبدو تقريباً. كل ذلك حصل في أقل من دقيقة واحدة. تحفزتُ للقيام حين تدخّل صلاح والآخرين لكني حين رأيت ما جرى لهم لم أتحرك من مكاني لإحساسي أن زياد قادر على عشرة من أمثالهم. وطبيعي لن أتردد في التدخل إن احتاج الأمر.... ضجت القاعة بالصراخ والضحك المكتوم. وفُرِّق بينهم.

ووسط الذهول الذي رافق المعركة. صفّق نواف التدمري فرحاً وكأنه يتابع مباراة أحرز فريقه فيها هدفاً في مرمى الخصم:

- أللّهُ أكبر، . عظيم عمي زياد.. حيلك ومايعطيك. يستاهلون لا تقصّر بهم.. عندك إياهم.

وعلّق أبو طلال على حالة عبدو المزرية:

- ملعون الوالدين. ما الذي حشرك من دون ربعك مثل السعدان؟! تستاهل، انشالله فاتح بطنك. فعلاً يا أخي في ناس ما تقْدر على حالها. تجي عالبعير وتـ... وأكمل الجملة بحركة من يده.

لم يستغرب أحد ما قام به زياد. على العكس فبعض الزملاء ضحكوا خفيةً شامتين بعبدو وشلته الوسخة لإحساسهم أنهم يستحقون ما جرى لهم، وبعض آخر كانوا محضرَ خير في تهدئة النزاع. وهذه ليست المرة الأولى التي يتعارك فيها زياد مع أحد ويضطر فيها للضرب ورذالة اللسان. فهو معروف بقدراته الجسدية وشراسة طبعه في الدفاع عن نفسه رغم تجاوزه الأربعين..

كانت الريح تعبث بدرفات النوافذ حين خرج الأستاذ أحمد عن صمته وطلب من الجميع الهدوء، ومن زياد العودة إلى مكانه. وقال من جملة ما قال:

- ماذا تركتم للأولاد يا زملاء. هذا ليس سلوك مربين وأساتذة محترمين! اجلسوا ودعونا نتفاهم بالتي هي أحسن. لقد طلبت الاجتماع وشاورتكم بالأمر احتراماً وتقديراً لكم. ولرغبتي في عدم فرض زميل جديد مجبرين على قبوله بينكم إن وافقتم أم لم توافقوا.. وأحببت أن تشاركوني اختيار المكان المناسب له بينكم. والذي حصل يجعلني....

رفعت يدي مقاطعاً قبل أن يحدد الحوثي مكاناً في غرفة أحدهم فتحصل المشاكل في قادم الأيام. وانتفضتُ واقفاً كنابض تحرّر من مكانه حين سمح لي الحوثي بالكلام بحركة من رأسه. قلت بهدوء وسكينة نزلتا عليّ من غامض علم الله وقد همدت القاعة:

- عفواً أستاذ أحمد للمقاطعة.. ولكن فعلاً أنا أستغرب موقف الزملاء الأربعة. فأعذارهم كلها كاذبة، فلا ديسك، ولا صدف ولا قيام ليل ولا أمراض إلا في عقولهم ونفوسهم.. وباقي الزملاء الموجودين يعرفون تماماً أنهم يكذبون. وزياد ما أخطأ بحق عبدو والآخرين.... أستاذ أحمد.. لا مشكلة. أنا أستقبل المدرس الجديد في غرفتي. وهذا

ليس رد فعل بل قناعة لا رجعة فيها عندي.. ولكم القرار.....

اقتراحي فاجأ الجميع، هم يعرفون تماماً حجم غرفتي الضيقة، فهي مخصصة لنفر واحد.. فالبناء أصلاً منذ عقد من الزمن تم تشييده كمستوصف، لكن وزارة الصحة رفضت استلامه من المتعهد لعدم مطابقته المواصفات المتفق عليها وبقي مهجوراً زمناً. وبجهود من الحوثي مع وزارة التربية والصحة استلم المكان على مسؤوليته وجعله سكناً للمدرسين المغتربين.

أظن الحوثي اغتبط لكنه لم يتفاجَأ مثلهم بقراري. بل ابتسم وارتجّت شواطئ عينيه من الفرح.كان يعلم ضيق غرفتي، لكنه يعلم أيضاً اتساع محبتي له. كاد يضحك لقراري العاطفي الأحمق. لكنه ابتسم وانتظر.. كانت الريح قد هدأت، ولكن الجو ما زال مشحوناً بالغضب والترقب. وران الصمت الحذر على الجميع.

شيء ما كان يرفُّ بصدري، ليس خوفاً ولا وجعاً. شيء يشبه الركض على أطراف النهر في صباح يوم ربيعي مشرق فيتناثر الرذاذ هنا وهنا؛ شعرت بجسدي ينسلّ من رؤوس أناملي. وبقي أناي بداخلي سعيداً يرتعش. ما زلت واقفاً، أما زياد فقد جلس يمسح العرق عن صلعته وجبينه وعينيه ثم شدّ على كفي مشجعاً. تابعتُ كلامي بحزم حين رأيت حيرة الحوثي:

- أستاذ أحمد سأتدبر الأمر، لا تهتم، الحجرة كما القلب تسع الكثير. اتصلْ بالمدرّس الجديد وقل له أن يأتي كما وعدته.

ضجت القاعة ثانية. فقد استهجنت العصبة حماقتي في اتخاذ قرار المشاركة! لعلمهم ضيق غرفتي واتساع مزاجيتي، بعض آخر من الزملاء ثمّن شجاعتي وعدّها موقفاً نبيلاً يُحسب لي! والبعض الأقل اهتم بالشيخ الجريح وجرجروه إلى المستوصف في الطابق الثاني من السكن. كانت الضربة على عينه قوية ومؤلمة. انشق حاجبه وغطى الدم وجهه الذي غدا متورماً مثل كيس الملاكمة. والرفسة أسفل بطنه آلمته وأفقدته وعيه

للحظات..

ما كنت الوحيد الذي يدرك أن غرفتي واسعة كالسماء لا يضيرها كثرة الغيم. فزياد صديقي يعي ذلك أيضاً. رمقته بطرف عيني. مازلت واقفاً شعرت بالزهو والدوار لاتخاذي قراري الأحمق. سألته:

- ما رأيك أبا علي؟

- كفؤ، قدها والله أبو تغلب. ورفع إبهامه إشارة التمام.. همست مازحاً:

- ألم أقل لك أن العِرْق دسّاس. فالحمداني قادر على حسم الأمور في المواقف الصعبة! رحمةُ الله عليكما يا سيف الدولة ويا أبا فراس. صحيح اللي خلّف ما مات واللي...

لم أسترسل لتوقعي أن زياد سيمنعني. وهذا ما حصل، فقد جرّني من يدي بذات اللحظة التي توقفتُ فيها وأنّبني قائلاً:

- لا تفضحنا! هسا مو وقت الحمدانيين والكنعانيين والمفاخرة الفاضية. الوقت مايسمح اقعُد ولا تعمل لنا مشاكل ألا ترى عين الحقير تنزف ورَبعه خانسين كأن على رؤوسهم قندرة. أكيد ناويين عالشر.

كنت معتاداً على رذالة زياد وبذاءة لسانه.. وهو من اطلق على نفسه لقب زياد الرزل.. وكان يصر على الحديث بلهجته الديرية.. قعدتُ ولم تقعد روحي. زياد كان يخشى أن يصل الأمر إلى المخفر. فقد كتب بعد آخر " معركة " له في حوث تعهداً في المخفر لدى ضابط أمن حوث بعدم الاعتداء أو ضرب أحد، وإلا سيتم إبلاغ البعثة السورية والسفارة ومصيره الترحيل فوراً. منذ اسبوع كان قد بقر ظهر أحد موظفي بريد حوث حين أخبره هذا الأخير أنه لا يطيق رؤيته في مركز البريد بل سيبعث له رسائله إلى السكن. وقتئذ غلّقت منافذ العقل عند زياد فتناول بابور كاز كان بجواره، قذفه به فانغرست إحدى أرجله بظهر الرجل.لم يكتف بذلك بل قفز إليه من فوق المنصة وصرخ بوجهه: (أنا ما تطيق شوفتي بالبريد يا إبن الكليب؟ ليش بيت أبوك هذا! يلعن

أبوك.. إبن ستين كلب؟) وقلبَ عليه طاولة المكتب وضربه حتى أدماه. التمَّ الناس ووصل الأمر حينها للمخفر وفُتح محضر بالحادثة. ولولا تدخّل الأستاذ أحمد وإسقاط الموظف حقه إكراماً للحوثي الذي أدخله المستوصف وعالجه على حسابه لكان مصير زياد السجن والترحيل. وقّع يومها تعهداً بعدم الاعتداء. لكن مائة تعهد بقشر بصلة عند زياد حين تأتيه العزّة ساعة الغضب. على فكرة زياد ليس عدائياً بطبعه لكنه يكره الاعوجاج والكذب ولا يضبط نفسه حين تثار حفيظته نتيجة حادث أليم جرى معه خلال حرب الثلاثة وسبعين.

فتل شاربيه وهمس لي جاداً:

- ذكّرني حتى أضيف اسمك لجمعية الأرزال تبعي. ويصبح اسمك منذ الآن حمزة الرِّزل..

لم أرد عليه، تظاهرت بعدم السماع. فالحوثي وقف وتهيأ للكلام. ثم بدأنا نلفت انتباه الآخرين بثرثرتنا.

تأمّلت وجوه العصبة اللعينة. كانوا مشدوهين لما حصل لهم ولشيخهم سيء الذكر. وأظنهم يفكرون بطريقة للانتقام من زياد ومني. فهسيس رمل حارق حاقد يصطلي تحت جلودهم. ومواء قطط مريضة ينبعث تحت معاطفهم. كانت اللطمة قاسية عليهم. فقد اتفقوا بلؤم على عدم استقبال المدرس الجديد تحت أقسى الظروف. تضامناً مع صلاح الذي كان ينال الحصة الأكبر من مردود الدروس الخصوصية. ويرمي لهم فضلة الريالات عشرة بالمائة تقريباً كرمى لتغطيتهم وتزكيتهم المستمرة له أمام المدير والأهالي، لذلك قاموا بهذه المناورة الفاشلة. وما توقعوا تدخّل زياد بهذا الحجم من الشراسة. وما أذهلهم أكثر وأفشل مشروعهم هو قراري باستقبال المدرس الجديد في غرفتي الضيقة.

نظر إلي الأستاذ أحمد ورفيف امتنان يبرق في عينيه. ثم قال كلمته الأخيرة:

- إذاً. سأتصل بالمدرس الجديد.. سيكون شريكاً للأستاذ الحمداني في حجرته الصغيرة.. تركتكم بخير. وخرج من القاعة مسرعاً. بعد أن رشق بعض الوجوه بنظرة قاسية وبسمة تكونت ببطء على شفتيه، قرأتُ في ثناياها وعيداً غير بعيد.

ما يحيرني أن الذين رفضوا استقبال المدرس الجديد وأرادوا إحراج الأستاذ أحمد الحوثي، كانوا مدركين تماماً أنه لا يستحق منهم هذه المعاملة القذرة. فهو لطالما ساعدهم في تأمين احتياجاتهم المالية. ومتابعة شؤونهم الإدارية والشخصية في مديرية التربية والوزارة في صنعاء. وحتى مع سفاراتهم.. وكم سامحهم في تأخرهم المتكرر حال انتهاء أجازاتهم السنوية. وما أكثر ما كان مَحضَر خير في تقاريره الفصلية التي يرفعها للمفتشين الجوالين الذين يزورون المناطق التعليمية مرتين في العام. والتي كانت تحدد بقاءهم في اليمن، أو ترحيلهم إلى بلادهم بلا عودة. أو نقلهم من حوث إلى ريفها البعيد. أو إلى ريف صعدة حيث القبائل التي تعيش في أعالي الجبال مع القرود واليهود ذوو الجدائل الرفيعة، واللحى المدلاة كلحية ذكر الماعز. أو حيث البدو الرحّل، فلا ماء شرب عندهم إلا ماء المستنقعات ولا خدمات إلا على الحمير والبغال، ولا شراء إلا من دكاكين تبعد عنهم مسير يومين أو ثلاثة مشياً على الأقدام.

مع هذا وذاك لا أظن الحوثي سيتخذ أيّ قرار يلحق الضرر بهم. فهو يتعامل معهم بأصالة ونبل. مدركاً أن حكوماتهم قذفتهم وراء الشمس بحثاً عن لقمة عيش مغمسة بذل الغربة تاركين وراءهم أكواماً من اللحم تنتظرهم.

***

- 3 -

مازلت أرقب الركوة. اندلق شيء من القهوة على النار، رائحة احتراقها الذكيّ ملأت المكان، أطفأتُ ذاكرتي والغاز وسكبتُ لسيد فنجاناً و ليَ آخر. أردت سؤاله عن أغراضه وعفشه مطوّحاً بأشرعة الحديث إلى شاطئ آخر، فلا بد من الإيفاء بتنفيذ القرار وتهيئة المكان للرجل، وإلا أسأتُ لذكرى أسلافي الحمدانيين في قبورهم. وسؤالي لا أدري كيف تحوّل إلى:

- أين كنت قبل أن تأتي إلى حوث؟

- في ريف صعدا...

وكأنه أراد أن يقول في جهنم الحمرا. كان مستعداً لهذا السؤال، فقد تربّع فوق الكرسي الخشبي العريض، واستند إليه بكامل جذعه، وبدأ يحدثني عن صعده التي هي أبعد المدن شمالاً في اليمن. فقد قضى العام الدراسي الفائت كاملاً في ريفها...

أخذ يروح ويجيء مع ذكرياته القريبة والبعيدة. يحدّثني عن العيشة المذلة والصعوبات التي لاقاها هناك، وعن جرائم القتل التي كان آخرها حرب قبَلية قُتل فيها مدرِّس مصري بالخطأ، مما حدا بقريته التي كان يدرّس فيها أن تطالب بقتل مدرِّس مصري من القرية المعتدية، لكنه سعى مع بعض الوجهاء لإلغاء فكرة الثأر وتقريب وجهات النظر. نجح في ذلك وكان فيما بعد أحد الوجهاء الذين شاركوا وفدَ الصلح ودفع ديّة القتيل لشيخ القرية المعتدَى على مُدرِّسها. وشارك في مهمة تسليم الجثة إلى السفارة المصرية في صنعاء لعدم وجود مصريين في القرية المعتدى عليها....

شعر سيد أنه ثرثر كثيراً، دمدم معتذراً:

- يا أللّه.. كم أنا ثرثار، أضعت وقتك وقطعت خلوتك. داير أكلمك كلام فاضي مالك فيه صالح، لكن واللّه معذور أستاذ حمزة. معذور، كنت أعيش في منفى حقيقي، صامت طوال الوقت، تمر أيام وأسابيع لا أتحدّث فيها مع أحد.

- لا عليك أستاذ سيد، أنا فرح بحديثك. فلدي الكثير أيضاً لأحدثك به.

- آ. حمزة، رحلتي في الأرياف مريرة، كان خوفي مرعباً ألاّ أجد شاغراً في معهد حوث أو مكاناً للسكن. ولكَ أن تتصور كيف كانت فرحتي عظيمة حين أخبرني المفتش أن الأستاذ الحوثي اتصل به وطلب حضوري ولما التقيت بالأستاذ أحمد أخبرني أن مدرِّساً شامياً ابن حلال وافق أن أسكن معه.....

كان سيد منذ دخوله يتحدث بلكنة سودانية لطيفة، ومساحة من الحزن ما زالت تغطي وجهه الوقور. فالحروف عنده يلفظها مفتوحة، خاصة تاء الفاعل. ويقلب القاف جيماً مصرية أو غيناً في بعض الكلمات، كعادة أهل الريف في شرقنا السوري. كان صوته يهطل بطيئاً بحروف مثقلة بالمرارة، تمتزج برائحة التراب والمطر. فالوقت كان خريفياً، لا يخلو كل حين من زخات مطر متقطعة الأنفاس.... حديثهُ الهادئ أضفى جواً تراجيدياً عميقاً على المكان.

جالت عيناه أرجاء الغرفة، مستغرباً كيف استطاعت احتواء كل أغراضي: خزانة الثياب الخشبية، والثلاجة الصغيرة، والسرير والمكتبة المعلقة على الجدار ودفاية الكهرباء ومقشة نصف مهترئة وزوجين من الأحذية وقرن كبش كبير ملقي على رف صغير لقيته ذات تجوال في وادي حوث. وحقيبة كبيرة فوق الخزانة، ودبلوماسية سوداء تلوذ بين السرير والجدار.. والطاولة والكرسي الخشبي الكبير الذي يجلس عليه، ولوحات زيتية معلقة، وأوراق تلتصق بالجدران مرسومة بألوان مائية لرجال بلون الحنطة تلتصق بهم نساء مضمخات بعبق الأرض

والرغبة. ولوحة بيضاء بكر مركونة بجانب الخزانة. وحقيبة مرمية كجثة فارغة تحت السرير. ومنصَب الرسم بأرجله الثلاثة يقف شامخاً، يحمل لوحة لم تكتمل بعد لامرأة لا يفارق الفرات عينيها ولعصبتها الملونة رائحة تعبق شذاً كرائحة الزعتر البري. وبجوار المنصب حمالة الألوان وخرق التنظيف والفراشي وجرار التربنتين وزيت الكتان. أدوات الرسم كلها وكرسي صغير. نظر سيد إلى اللوحة فوق المنصَب، تأملها ملياً بعد أن تأمل جميع اللوحات المعلقة، ثم قال: وجوه النساء في لوحاتك جميلة، لكن أغلبها متعَب وحزين.

- هي كذلك فعلاً.

- تعرف حمزة، أن وجود اللوحة فوق المنصَب يمنحها شموخاً أكثر و يمنح الوجوه المرسومة عليها كبرياء لا تراه العين حين تكون اللوحة في مكان آخر.

- هو ذا شموخ الصفصاف وكبرياؤه. لا تراه إلا تاجاً يسوّر جبين النهر. لا يرضى منصَباً آخر. وأظنه يموت لو حاول...

قلت ذلك بتباه متذكراً الفرات وأشجار الصفصاف والغرَب على ضفافه..

تابع سيد موضحاً فكرته بشكل فلسفي أعمق:

- أعتقد أن اللوحة بعد مغادرتها هذا الرحم، تتلوث بأنفاس من لا يستحقون النظر إليها. فكثير من النقاد يسفّه اللوحة دون وعي منه، أو دون فهم منطقي لدور لفن. يقحمها في ضجيج المدارس بعيداً عن دهشة الخط وطواعية اللون، غير آبه لأحاسيس الفنان الذي احترقت أصابعه بنار الذاكرة وهوس المكان وألق الروح.

- الله الله يا عم سيد. ما هذا الكلام الجميل! بجد أمتعني وصفك وتحليلك، وتأكّد لي أنك رجل غير عادي. مثقف، ومتذوق للفن من الدرجة الرفيعة.

كنتُ مدركاً أنه قادر على مراوغتي بذات اللغة، وقد أدرك لعبة الاستعارة التي ألعبها معه، فملامحه تنم عن ثقافة عميقة وخبرة في الحياة ليست هينة، وما أظنه إلا رجلاً شجاعاً لا يهاب أمثالي. إن في نزالٍ أو حوار. وأظنه سافر وشاهد وقرأ وعرف، وتحمّل الكثير في حياته. لذا لابد من الجدية في الحوار، فهو اللقاء الأول، بل هي الدقائق الأولى من اللقاء الأول. وأحسبه قد لامس أطراف الصبّار في كلماتي. فأغرته الأشواك. فما وجد وسيلة للعبور إلاّ بقارب من الاستفزاز يردُّ به على لغة البحارة والعصيان التي أخاطبه بها والتي لا أدري من أين حطت علي. ولا أُنكر أن للرجل حضوراً حاداً ومميزاً. سيغطي بالتأكيد على حضوري فيما لو كنا في محفل ثقافي يضم شعراء وأدباء وفنانين، أو حتى في مجلس أصدقاء.لم يغضبني ذلك الشعور. فالرجل يزيدني بكل المقاييس، حجماً ووزناً وهيبة وطولاً وثقافة وتجربة في الحياة. ويزيدني بعشرين عاماً على الأقل أراقها بين غابات الترحال ومسافات الفصول. وعليّ أن أعترف أن بحضوره غادرتني مرافئ الضجر التي كنت غارقاً فيها. اكتفيت بإحساسي دون تعليق.

عادت عيناهُ إلى المكتبة، وقفَ أمامها، تناول كتاباً قلّبه بين يديه ثم قال:

- جنازة الأم العظيمة، كتابٌ ممتع، هل قرأته؟

- بالطبع قرأته، فماركيز لا ينتظر....

أعاده إلى مكانه ومرر أصابعه على الكتب قائلاً:

- معي في الحقيبة الكثير ممن لا ينتظر. أنا سعيد لهذا التوافق الجميل بيننا.

تبسَّمتُ في سرِّي. ها قد جاءني الرد دون أن أسأل. فالرجل قارئ. ومن يدري قد يكون أديباً؟

صالبَ كفَّيهِ وراء ظهره وانحنى يتمعَّن في العناوين، لأول مرة أرى جبلاً ينحني ويتأمل، وما فارقته هزة الرأس. كأني به يُعلن ويتوعد

الكتب بأنه قادم. تناول دفتراً فيه أوراق كثيرة. سألني بعينيه عن إمكانية فتحه والإطلاع عليه، هززت رأسي بالموافقة ثم قلت:

- هي مجموعة من الأشعار يسمّيها النقّاد بالشعر النبطي، هل تميل لهذا النوع من الشعر؟

- ليس كثيراً.. أحب سماعه فقط، وليس قراءته. هل تحفظ منه شيئاً؟..

تناولت الدفتر أستعيد به ذاكرتي النبطية، وقلت:

- ليس كثيراً.. سأبدأ معك من شاعرة خليجية اسمها رهب. تقول في قصيدة لها بعنوان أغلا جروحك:

ينعم غيابك بنار الصدر، مادريت

والمشاعر حطبها وانت حطابها

مذكر إني نسيتك، غير فيك التهيت

واجمع أغلا جروحك وأتسلابها

انتظرتك قبل تمشي.... ولحظة مشيت

كل دمعة توقف لك على بابها

تدري وخطوتك ثكلى وزولك مميت

أشعر خطاك ما تجهل بك أسبابها

يا حبيبي وليتك يوم فيني دريت

ماجهلت الضلوع العوج وأتعابها

أتعب على وصلك وأشوفك سليت

وأجمع أغلا جروك وأتسلا بها

صفق سيد طرِباً، وقال على عادة البدو:

- صح لسانك .. أجدت الإلقاء.. الحقيقة شاعرة أصيلة ومتمكنة، تحتاج إلى وقفة تليق بتوهجها..

- بالطبع.. فلدينا كل خميس سهرة مثاقفة أمام براكية ممدوح نقتفي فيها أثر الإبداع والمبدعين..

- وهو كذلك... قال وهو يلوب المكان بعينيه..

أدركت أنه كان يبحث عن مكان لسريره ولعفشه وسط هذا الكم من الأغراض في غرفة ضيقة كهذه. أعدت دفتر الأشعار إلى مكانه في المكتبة.. وأردت طمأنته أن لا مشكلة في إقامته.

- المطرح واسع كما ترى..

- مشا الله! أي وسع هذا الذي تتحدث عنه؟

- الغرفة كما البحر، لا يضيره كثرة السفن.

- حمزه.. الله يهديك. أي بحر وأي سفن؟ الغرفة ما هي طايقة موجة واحدة. وتقول لي بحر وأشرعة وسفن! ..

- من حق السفّان أن يختار شاطئاً يليق به، أستاذ سيد إعتبر الغرفةَ منذ الآن مرساك. ..

أمالَ عمامته للخلف وحكّ ما تحتها من أعشاب نائمة من الفضة، ثم أعادها، أظنه هذه المرة تساءل في سرِّه (ما بال هذا الحمداني يخاطبني بلغة البحارة ويعتبرني ربان سفينة تائهة قذفتها الريح إلى شاطئه!) لم يجهر بسؤاله، لكنه ابتسم بود. وردَّ بذات اللغة، وقد أصابته العدوى البحرية:

- شكراً حمزة.. لقد غمرْتني بأمواج لطفك وأشرعة كرمك. ولا يدهشني ماكان منك، فلا يعرف السفان إلا سفان مثله.

ابتسمت لانتصاري في جذبه إلى شاطئ كلماتي. رفعت بصري إلى هامته، كانت عيناه تتألقان كأنما تنتظران طلقة بينهما. عاد بخطواته

الصلبة إلى كرسيه يائساً من مشاركتي الحجرة، فقد لمس بكل حواسه ضيق الغرفة واستحالة السكنى معي. وأحسَّ أنه وقع ضحية خدعة كبيرة من المفتش والأستاذ أحمد الحوثي! تأمّلَ أطراف أصابعه الطويلة وأظافره المقصوصة بعناية فائقة، مط شفتيه ونقر لحناً حزيناً على الطاولة. خمّنَت بحاستي السادسة أنه يُسمعني اللحن الأخير الذي عليّ أن أسمعه قبل أن يغادر. تمتم:

- ما أبأس أن تنهي يومك بخيبة كبيرة...

ثم استنهض روحه وتهيأ للرحيل قائلاً:

- لا فائدة. ستعود بي الريح حيث كنت. دعني ألحق الشمس قبل أن تغيب فرصة طيبة أستاذ حمزة، سعدت كثيراً بالتعرف إليك أستودعك الله.

خجلت من نفسي! كيف سمحت لكل هذا الوقت أن يمضي دون أن أؤكد للرجل أن استضافته أقصد إقامته ستكون معي دون شك. ولا مكان آخر في العالم سيحتويه غير غرفتي الواسعة. فزياد وأنا قاتلنا في اجتماع الأربعاء من أجله. فكيف يعود بعد أن حطّته ريح الشمال في أرضي ! أي عار سيلحق بآل حمدان؟ كان يحاول النهوض، وضعت يدي على كتفه أمنعه بلطف من النهوض. وكأني أضعها على ظهر سفينة راسية.

قلت بخجل:

- بالله عليك تقعد. أخَذَنا الوقت ولم أسألك عن العفش والأغراض. ألم أقل لك أن مرساك هنا! فكيف تبحر وأنت لم ترس بعد؟

- أين تريدني أرسو يا حمزة؟ جننتني بلغتك البحرية وغرّقتني بشواطئك وأمواجك. وقد رأيت وعرفت حجم موانيك...

أظن الكلمات فلتت غصباً عنه، لا بد أنها كانت حبيسة صدره

منذ دخوله. انتبه فجأة وأدركَ أنه قسا عليّ ثانية بكلامه، أردف معتذراً:

- آسف .. آسف حمزة، أنا غلطان، ما قصدت التقليل من شأنك. أنت كريم وشهم وما قصرت. أنا، أنا قصرت بحقك اليوم كثيراً. لا أدري، لا أستحق اهتمامك واهتمام الأخ زياد. أنا خجل منك.. ليس لي مكان بينكم. اسمح لي بالعودة. وأحلّك من وعدك للأستاذ أحمد.

خجلت عنه وعني.. ابتسمت بمرارة وداريت خجلينا معاً. ولم أقو على الاعتذار.. بل نهضت فجأة أهيئ المكان لاستقباله قائلاً بحماس بحار:

- يلا عم سيد. هيلا هوب. يدك معي. سوف أريك حجم مينائي الحقيقي. وأُريك الاهتمام الذي تستحقه وأكثر. أنت بحار عظيم ولا يليق بك إلا ميناء عظيم..

استنهضت همته بكلامي وحركتي النشطة وسط دهشته. برقت عيناه حين رآني أوزع الأغراض وأوسع المكان، هبَّ كالسنديان ينتصب شامخاً يفاجئه ماء القرار يعلن لليأس راية العصيان. كان الفرح يهطل من عينيه رخياً. بدأنا سوية نوسّع المكان بجانب الجدار المقابل لسريري والنافذة. استغربَ مني هذه القفزة السريعة في اتخاذ القرار. كان مأخوذاً بها، أعجبته وأعادت إليه الثقة بنفسه وبي..... سألني باسماً:

- حمزة أنت مواليد برج الجوزاء. صح ؟

للأمانة أقول أنه فاجأني بذكائه، فأنالم أحدثه عن تاريخ مولدي! ألهذه الدرجة تفضح تصرفاتي برجي؟ وتكشف هوائيتي في التعامل والتقلب السريع بين قرار وآخر. ولكن!. لحظة. من قال ذلك؟ إن قراري بتهيئة المكان لم يكن وليد اللحظة كردٍّ فعل لكلامه. فالأمر قد حُسم منذ ساعة الاجتماع. أردت الاعتراض لكني قلت راغباً في كشف سر معرفته لبرجي:

- صح، ولكن ما أدراك؟

- ما بدها دراية حمزة.

آثرت الصمت بالرغم مما في كلامه من تورية واضحة ليست لصالحي. بدا أكثر مرحاً وحيوية. لذا لن أفسد عليه فرحته بأسئلة سخيفة عن الأبراج.

رفع ردنيه إلى أعلى، اتسعت روحه حين رأى وسع المكان فأخذ ينثر الكلمات والنكات الساخرة. لفّ كتفي بذراعه كنسر يلف حمامة بخوافيه قائلاً:

- صدقت والله يا حمداني. الغرفة كما السماء لا يضيرها كثرة الغيم... اعترضت مازحاً:

- أنا قلت كما البحر لا يضيره كثرة السفن. وليس..

- عليك الله تبطّل مصطلحاتك البحرية. وقم معي نأتي بالعفش....

خرجنا.. وعند مدخل السكن، قريباً من خزان الماء الكبير الذي ننهل منه ماء الشرب وماء الطبخ، كان بعض الصبية يتقافزون حول عفش المدرّس الجديد. ما إن رأونا حتى توقفوا عن اللعب. هرب بعضهم وتطوّع آخرون للمساعدة، كانوا ثلاثة يجلسون في فيئ الخزان. داعبهم الأستاذ سيّد قائلاً:

- ها وش أخبار الفرسان الثلاثة أبطالَ حوث الأشاوس؟ هيا نرى همّتكم. من يحمل هذا الكيس؟ تصدّى له أصغرهم وحمله على ظهره وبيده طباخ الكاز. شجعه سيد: واد جدع، ما اسمك يا أسمر؟

- عبيدة ذو كراع.

- اسمك جميل يا عبيدة، مارأيك بلقب جميل تضيفه لاسمك.. منذ اليوم ستكون / أبو جرّاح / تسمعون يا أولاد ما كنية عبيدة من دا لحين؟.. تنادوا ومعهم عبيدة بصوت واحد:

- أبو جرّاح.. أبو جرّاح.. انطلق أبو جراح فرحاً بلقبه الجديد يركض صوب غرفتي - أقصد غرفتنا - التي كانت قبالة المدخل

الرئيس للسكن، يفصل بينهما بهو واسع، أما أكبر الأولاد فحمل كرتونة مليئة بالكتب، وهو شقيق الأوسط الذي حمل صندوقاً على رأسه يضم أدوات المطبخ. وبيده الثانية حمل شمسية سوداء طويلة. لم يسألهما سيد عن اسميهما، رغم أن الأوسط قدّم نفسه باسم "سيف القُمّلي"، لم ينتبه سيد له في غمرة نقل العفش. كان نصيبي حقيبة جلدية متوسطة أودعها سيد أثقل كتبه، وأوزن مراجعه وبعضاً من ثيابه. حمل هو الفراشَ واللحافَ المربوطين بإحكام، أردفهما على كتفه وحمل بيده اليسرى حقيبة زرقاء كبيرة مربوطة بحبل من النايلون الأصفر لأن أقفالها تعطلت من كثرة الترحال، أظنها لملابسه... ثم ساعدته في حمل السرير المعدني... وهكذا حتى أتينا على عفشه. وقبل انصراف الأولاد. أعطى كلاً منهم تفاحةً، أخرجها من كيس ورق كان بين الأغراض. أعقبها بحبات من السكاكر الملونة. أخرجها من جيب إبطيته الخاكي. ثم شَكر مروءتهم وهِمَّتهم العالية. والتقط لهم صورة تذكارية وحدهم، وصورة له معهم. وصورة خاصة له وحده مع أبي جراح، التقطتها لهما... وقد أعطاه بعد يومَين نسخة من الصورة فرح الصبي بها كثيراً.. أصبح الفرسان الثلاثة من أصدقائه المقربين في أيامه القادمة. يحملون عنه حقيبته السوداء أو حاجياته من السوق. فيمنحهم شيئاً من السكاكر أو الفواكه أو قصصاً مصورة للأطفال تفيدهم في تعلم الانجليزية. والأفضلية بالطبع كانت لأبي جرّاح... فيما بعد تأملت صورتهما معاً ولاحظت أوجه شبه بينه وبين سيد في لون البشرة الجميل وبياض العينين والابتسامة المرحة المرسومة على فم كل منهما. قد يكون ذلك هو السبب في سر الاهتمام؟!..

***

- 4 -

أعدنا ترتيب الغرفة بحيث تتسع لكلينا... كان مع سيد صندوقين كبيرين من الخشب السميك أعدّهما مسبقاً ليكونا مكتبة متنقلة. رتّبهما فوق بعضهما وثبتهما على الجدار قرب سريره الحديدي...

اطمأنَّ سيد إلى ترتيب الكتب في مكتبته حسب حجمها وأهميتها. وأظنها تجاوزت المائة كتاب. عزَل الكتب الأجنبية على رفٍ وحدها..

مرَّ الوقتُ بطيئاً.. تآلف مع المكان، علّق ثيابه وطاقية نومه ومظلة سوداء طويلة. لم ينس سواكه اليابس، وضعه في كأس نصفها ماء. وثبّتَ مرآة بحجم كفيه على الجدار قريباً من الباب على ارتفاع يتناسب وطوله. لكنه لا يناسبني.. كنت أضطر لوضع كرسي صغير كي أستطيع التمرّي بها...

الشيء الوحيد الذي لم ينتهِ منه بعد فراشهُ واللحاف. مازالا فوق سريره مربوطين ينتظران فك الإسار كأسطوانة غاز نائمة. وضع لوحين من خشب فوق شبك السرير الحديدي مُعدّان أصلاً لهذا الغرض. مدَّ فوقهما بساطاً طويلاً منسوجاً من الخرق الملونة ثناه على طاقين.

لاحظتُ أنه أَحبَّ الغرفةَ، عبَّر عن ذلك بفرحةٍ يضجُّ بريقُها من عينيه:

- ما خاب ظنيَ بك أيها الشامي. أنا فرحٌ بانضمامي إليك في هذه الغرفة. فكل ما فيها جميلٌ جميل. لوحاتك، كتبك، ترتيبك للسرير.. حمزة. مكتبتان في غرفتنا. هل تدركُ معنى ذلك؟ معناه أننا لسنا وحدنا، فكلُّ هؤلاء معنا.. آه. جمال الأشياء يأسرني بل يكاد يبكيني. لقد حدثني الأستاذ أحمد عنك وعن اهتمامك بالأدب والفن. وما قصّر، أريدك أن تحدثني عن نفسك أكثر، أظنك تشبه أشياءك.

زفرتُ زفرة رضا، وقلت:

- ومن لا يشبه أشياءه؟ على كلٍّ.. ما دمنا سنعيش في نفس الغرفة ستعرف عني الكثير. الفن والكتابة والشاي البارد وعادات أخرى، ستجعلنا أكثر ألفة. في المقابل سأعرف عنك الكثير.... أليس كذلك؟

- حتماً. حتماً... آ. حمزة.. ما أظنك تجاوزت الثلاثين. صحيح؟

- صحيح.

- متى تعلمت الرسم والكتابة؟

- الرسم والكتابة ورثتهما عن أبي، كان فناناً يرسم بالفحم وجوهاً جميلة، وأفكاراً معبرة. أقام معرضاً في صباه لرسوماته. لكن الوظيفة، ومن بعدها السياسة أخذته بعيداً عن الفن. ثم تركته في أرذل العمر مقروراً ببردها. أما أنا فقد استفدتُ من دروس خيباته معها. أبعدت عني السياسة وتفرغت للقراءة والفن حتى أخذاني عن كل شيء. أحتاجهما دوماً كحاجتي للهواء والماء. أما الكتابة، ذلك الهوس القديم والوجع البارد. مطفأة نارها، رغم انفلات بعض الاحتراقات المتناثرة.. قصة قصيرة هنا أو مقالاً عن الفن هناك.

- كيف تختار ألوانك وموضوعاتك؟

- في اللوحة شارع طويل ما إن أضع خطوتي الأولى في أوله حتى يستلم هو باقي خطواتي ولا أدري كيف أسير وغالباً ما تتسكع معي جميع الألوان.. فهي جميلة حين تتآلف. أحسها تتعاطف معي حين أفرشها على بياض اللوحة، تفرح عند فرحي وتحزن حين أحزن. الألوان يا صاحبي كأسارير الوجه تتغير مع تغير خلجات النفس. أعشق الأحمر والأسود. وهما من الألوان القليلة في الطبيعة. أكره الأبيض أحياناً، أراه لوناً غبياً بحياديته.. في الآونة الأخيرة أدمنتُ الأصفر الفاقع.

- الأحمر والأسود لونان فاتنان على جسد أية امرأة يمنحانها وقاراً مغرياً.. وما أدمنتَ أيضاً؟

- أدمنت الشاي البارد والقهوة والتدخين. ولا أدَّخر وسعاً في إتلاف مالي لشراء الكتب ومجالستها لساعات وساعات. ولا بد من

وقت للموسيقى، ووقت أبقيه دائماً لامرأة أنتظرها تصبو إليها الأحلام ويرنو إليها القلب. هيفاء غنوج..... هذا أنا باختصار.

- الله. الله. يا حمزة. أغبطك على حياتك. وأحيّيك، لقد أمتعني بل أطربني هواك، أنت تحمل أجمل عادات تفتك بصاحبها بشكلٍ هادئ ونبيل..

مرت لحظات انشغلت فيها بترتيب اللوحات المتراكمة فوق السرير جرّاء التعزيل. نظرت إلى سيد. أخرج من حقيبته السوداء دفتراً سميكاً غلافه أسود، وتناول من جيبه قلم حبر أسود، مذهّب الأطراف، فتل نصفه الأعلى ثم غمسه في ذيل القلم وشرع يكتب. أظنه دفتر مذكراته.

أية أسرار تخفيها وراء عينيك المتعبتين يا سيد الغانم؟ كنت أهاذي نفسي حين توقف سيد عن الكتابة وطوى ساقه اليمنى تحت فخذه الأيسر، ووضع أمامه كيس تبغ جلدي صغير فوق دفتر مذكراته، وجعل يفتحه بدقة وأناة خوفاً من تطاير زيته العطري. مدّه إلي قائلاً:

- هل لك بالشمّة؟

- شكراً، لا أتعاطاها.

- كما تشاء، علماً أنها لا تقل فتكاً عما تتعاطاه من الفن والكتابة..

غمسَ إبهامهُ والسبابةَ في كيس التبغ واقتطع مُضغة بُنّية اللون وضعها في راحة يده اليسرى، عجنها ثم أودعها بين شفته السفلى واللثة. ضحكت في سري. تساءلت إن كان هناك نوع رابع من التبغ يتعاطاه سيد. ربما استهجنت أن يتعاطى هذا النوع من التبغ. ثم رشفت ما تبقى من سلاف فنجاني البارد.

كانت عيناه تومضان بضوء النافذة فتمنحهما بريقاً أخّاذاً، حين دفع زياد الباب وأطلَّ برأسه الأصلع انتبه لوجود سيد، وأدرك أنه المدرس الجديد، فوجئ بضخامته، فتح عينيه دهشاً ثم صفّر محاذراً إصدار صوت، لكنه دمدم منادياً: واآحسنه...

اسم حبيبته الوهمي التي أضاعها منذ زمن بعيد.

سمع سيد نداءه الخافت لكنه لم يتحرك.. كان زياد يحتضن بيمناه جبَسة كبيرة متطاولة الشكل، مخططة. وباليسرى كيس خضروات تظهر منه شدات الجرجير والكرّاث، عائد لتوه من سوق الجمعة الذي يظل عامراً بباعة الخضرة والقات والجوالين والسماسرة والغنامة والقصابة والمهربين وتجار الأسلحة حتى صلاة المغرب. تجاوز دهشته بسيد وحيّانا بمرحه المعتاد:

- سلامات يا أساتذة. ها حمزة. ارتحتَ الآن؟ هل امتلأت السماء بالغيم وارتاحت النسور؟.

- أهلاً زياد، ادخل..

التفتَ إليه سيد، وحياه بوجه بشوش:

- أهلاً أهلاً أستاذ زياد. تفضل...

- أهلاً.. عن إذنكم لحظة، أخطف رجلي أتفقد نواف والطبخة، وأحط " الدبشية " بالبراد. وآجيكم، لكن حمزة " ورفع سبابته مهدداً " لا نقاش مهم قبل عودتي.عُلم؟

- عُلمْ، كما تشاء أبو علي، ولكن در بالك على الطبخة. جعنا..

كان زياد يكره أن أفتح مواضيع مهمة في غيابه. قال وهو يطبق الباب وراءه:

- ابشر حمزة، نصف ساعة ويكون الغداء جاهزاً. إن شاء الله.

طوال الفترة الماضية كنا زياد ونواف وأنا نتشارك الأكل وقد تم تقسيم المهام على أن يكون زياد للطبخ بناء على رغبته ونواف للجلي. وأنا لشراء حاجيات الطبخ وتحضير الشاي. ولا أدري بعد مجيء سيد كيف سيتم الوضع؟ على الأرجح سيبقى على حاله ولن نكلف سيد مهمة لا تناسبه، أظنه سيهتم بالقهوة فقط..

- حدثني عن زياد ومعدنه، شكله الأشقر وسكسوكته أقرب للمفكرين الروس.

فأخبرته عما فعله في الاجتماع من أجله. وحدثته عن فوضى حياته

وتناقضاتها وحدّة طبعه وشراسته وإدمانه الخمرة والنساء وما يقابلها من نبله وشهامته في الملمات التي يقع بها الأصدقاء، إلى جانب رومنسيته في السماع إلى الموسيقى أحياناً حين تعن عليه (حسناه) وارتياد المسارح.. كما يدمن القهوة ويكره الشاي كرهاً شديداً وقد ذمّه في قصيدة عصماء عنوانها (أكره الشاي). لم يُكتب لها الظهور أو الانتشار لأنها بلا وزن ولا قافية. ولأن عشاق الشاي كُثر. كان يرغم نواف على سماعها كل صباح ومساء حتى حفظها المسكين عن ظهر قلب. كما أنه يكره المفاجآت بكل أشكالها، ولا يحتمل الغدر من صديق. يضنيه ذلك إلى حد المرض...

- من أي المدن السورية هو؟ حدثني عنه أكثر.

- هو من دير الزور المدينة ذاتها التي أنتمي إليها. والتي لم أعش فيها ولم أزرها إلا لواجبات العزاء من الأصول والفروع.. تعرفت إليه خلال إحدى زياراتي تلك.. كان وقتها قد تجاوز العشرين بسنوات قليلة يعيش قصة حبه المريرة.. تكررت لقاءاتنا واستمرت لسنوات. وظلت روحه كما عرفتها مرحة تواقة للتمرد وكسر القيود كما رأيته أول مرة، ثم تعمقت صداقتنا أكثر حين التقينا في كلية الآداب بجامعة حلب. كنت في قسم اللغة العربية وهو في قسم التاريخ فقد أكمل دراسته في سن متأخرة بسبب تطوعه المبكر في الجيش. ثم افترقنا بعد التخرج.. إلى أن التقيت به مصادفة في صنعاء بداية العام الدراسي الفائت، أثناء انتظارنا الدخول إلى لجنة المقابلة لاختبار صلاحيتنا للتعاقد كمدرسين. وتصادف أن دخلنا سوية أمام اللجنة المؤلفة من أربعة فاحصين جالسين خلف طاولة واحدة طويلة. وجاء حظه أولاً أمام الفاحص المختص في القرآن الكريم، وهذا ما كان يخشاه ويرتجف منه، وهو الآبق المتشرد.كما يقول عن نفسه أوقات الرخاء والتجلي.. قرأ إضبارته ثم سأله: (أسمعني يا أستاذ زياد ما تحفظ من القرآن الكريم.) ودون أن يستعيذ من الشيطان أو يبسمل تدفق زياد بسرعة صنبور ماء فتح على عجل: (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس..) أغلقه أقصد أوقفه

عضو اللجنة: (لو سمحت لو سمحت عدا المعوذات والسور القصار، ولا تنس أن تستعيذ بالله وتبسمل.. تفضل) صفنَ وقتها زياد وكأن مزنة فوق رأسه أخذت تنفثه رذاذاً بارداً، فهو لا يحفظ من القرآن سوى معوذتين والفاتحة، لم يحر جواباً. مسح العرق عن صلعته، نظر إليّ مستنجداً، طال انتظار الفاحص له فأعاد السؤال مخففاً: (طيب، أسمعني واحدة من السور القصار، لا ترتبك..)

أخذ زياد يحرث صلعته المتعرقة بأظافره مدّعياً حالة التفكير، أدركه الفاحص مستغرباً وراغباً في مساعدته: (سورة الإخلاص، طيب) ارتبك زياد أكثر. نظر إليّ وقد دارت به الدوائر مستنجداً، وعرقه يغسله من رأسه حتى قدميه! كنت أعلم أنه يحفظها جيداً، فهو يحفظ الفاتحة وسورتي الناس والإخلاص دون أن يعرف لهما عنواناً. فقد أسمعنيهما قبل دخولنا المقابلة..

نبهني فاحص الثقافة العامة والفصاحة الذي كنت أقف أمامه. فقد طلب مني أن أسمعه ما يتعرف به على فصاحتي. ابتسمت وقد جاءتني الفكرة لإنقاذ زياد، قررت أن أقرأ سورة الإخلاص علّ زياد ينتبه. تلوتها بصوت مرتفع: (قل هو الله أحد. الله الصمد..) إلى آخر السورة..إلا أن الفكرة لم تصله، لأنه لم يكن يعلم أن ما قرأته هو سورة الإخلاص، بل أجاب مرتبكاً وقد أدمى صلعته: (عفواً أستاذ! أظن السورة في الربع الأخير من القرآن. صح؟) اهتزت لحية الفاحص وانفجر غضباً: (معقول يا رجل؟! تجاوزت الأربعين ولا تحفظ سورة الإخلاص، أي مسلم أنت؟)

رد زياد صادقاً: (بشرفي حافظها، بس ذكّرني بأولها وشوف شلون أكرجلك إياها كرج) تلفّت أعضاء اللجنة إلى بعضهم مستنكرين هذا الجهل الديني من مدرّس مجاز في التاريخ. (صفر، مع السلامة) قال ذلك فاحص القرآن وأدار وجهه عن زياد غاضباً. نده زياد بحسرة: (واحسنا) نداءه الأثيرة عند الملمات. ثم انتقل بعد أن حصل على درجته المخزية إلى فاحص التربية وعلم الاجتماع الذي غدا راضياً عنه كل الرضا. فثقافة زياد العامة جيدة. أجابه بثقة واضحة ودون تردد. فأعطاه

درجة جيد جداً. وانتقل إلى فاحص علم الأحياء والعلوم الذي شكره أيضاً، وهكذا حتى انتهى الاختبار. وما إن خرجنا من القاعة، حتى انفجر زياد على نفسه ضرباً وشتماً وتقريعاً: (كم أنا غبي وحمار! تصوّر بعد أن انتقلت إلى الفاحص الثاني حتى أدركتُ أنك قرأت سورة الإخلاص! لم يخطر ببالي يوماً أن اسمها الإخلاص، أنا غبي... طوال عمرنا نحفظها دون عنوان.. حمزة، هل تعرف عناوين كل السور؟ حمزة... أكلمك، رد علي! هاي وين!).. هزني من كتفي، كنت شارداً أفكر في حجم الثقافة الدينية التي نتلقاها هناك شرق المتوسط..

على فكرة كي لا أظلم زياد فهو مثقف و قارئ ومحاور لبق إلا أنه في المسائل الدينية والتسميع المباشر قلما يفلح.. (حمزة. لا تدّعي انك إسلامي أكثر مني. صحيح أنا ما أصلّي من أربعين سنة وجاي، وأسكر وألحق نسوان، وعملت السبعة وذمتها لكني أخاف الله أكثر منك، أنت فنان. والفنانون كالشعراء يلحقهم الغاوون لهم طقوس وأجواء بعيدة كل البعد عن الدين والفضيلة. صح ولاّ مو صح؟.) قلت ولم تفارقني الضحكة عما حصل في قاعة الاختبار، وعمّا أبداه من آراء بي: (سامحك الله يا زياد، هذا رأيك بي؟ أنا صديقك. حبيبك.. يا رب سامحه إنه لا يعلم.)

- (لأ يا سيدي، يعلم.ويعلم. ويعلم.. اسمع سأختبرك مادمتَ تدّعي الفقه. ما عنوان سورة " تبت يدآ أبي لهب وتب؟ "). أراد زياد أن يختبرني بأصعب ما عنده من ثقافة دينية، كما لو كنا في صفوف الابتدائي.... تلكأت عمداً في الرد وتظاهرت بالجهل..

أعلم يقيناً أنه لا يعرف اسم السورة. فرحَ أول الأمر بجهلي وضمني قائلاً: (هل رأيت؟ نحن في الهوا سواء. ثقافتنا الإسلامية واحدة. منشؤنا واحد. ونهرنا واحد.. فلا تشوف حالك علي، أنا الذي يعلم). رفع يديه داعياً (لا تسامحه يا رب فهو غبي ولا يعلم). قطعت فرحته حين همست بإذنه: (زياد.. مستعد أعزمك على كيلو كباب صومالي إذا قلت لي اسم السورة).. تفاجأ: (هاآ! هاي شكون؟ أشوف انقلبت الآية! بدل ما

تجاوبني قعد تسألني، هاي وين؟).. مرت لحظات وزياد يقلّب النظرُ بيني وبين مايحتويه دماغه من معلومات تفيد لهذه اللحظة.. استدار وأبدى استسلامه فهمست له بهدوء: (أبو علي، حبيبي. اسمها سورة المسد.) فاجأه الرد، وعقد حاجبيه بحركة مسرحية تظهر خيبة أمله في جهلي، ثم دمدم إحدى تعاويذه: (الله يا ها الوطن شمسوّي بيّا الله..) وقبل أن نخرج، تذكّر أمراً حصل خلال المقابلة فسألني: (كيف يسألك فاحص العلوم عن أجزاء جهاز التنفس لدى الإنسان فتعدد له أولاً الفم ثم البلعوم فالحنجرة فـ !) قلت:

- (أنت مفتري! أنا قلت الفم ثم الحنجرة فالبلعوم وليس العكس. ولك سيدي كله واحد.).

صرخ بي: (حمزة!. منين نتنفس أولاً؟)

لو لم نكن في بهو المديرية لأجبته بما كان ينوي قوله من قول زفِر لو كان السؤال موجهاً إليه. لكني همست باحترام مفتعل بعد أن رأيت حولي رهط أمة لا إله إلا الله قد اجتمع على نقاشنا:

- (نتنفس؟ صحيح زياد! من أين كنا نتنفس قبل مجيئنا لليمن؟)

ضحك بشدة وأضحكني رغماً عني.

خرجنا وأخذنا نتذاكر ما مر معنا في قاعة المقابلة. وكنا على مدار الشهر نلتقي كل يوم أمام الوزارة بانتظار صدور النتائج. وكانت فرحتنا عظيمة حين رأينا اسمينا في قائمة الناجحين، واكتملت الفرحة يوم جاء التعيين في ريف صنعاء وفي المكان نفسه" معهد المعلمين في حوث "مع أن رغبتنا في التعيين كانت أن نبقى في صنعاء قريباً من أجواء الثقافة والفنون.

ولكن عزاءنا أننا معاً..

كان سيد يضحك من كل قلبه على طرائف زياد وأنا أرويها له بذات اللغة والروح..

النصف ساعة التي وعَدَنا بها زياد لجلب الغداء مرت. ومرت مثلها أُخرى. ساعة كاملة وما زلنا ننتظر. كان سيد قد أغلق دفتره السميك

ولقّم قلم الحبر الأسود غطاءه وأراحه فوق الدفتر، وهدأ في عينيه رفيف أشواقه.. تثاءب ثم تمطى ماداً يديه كساريتين فوق ذكرياته..

انشغل بالي على زياد، فمواعيده في تجهيز الغداء دقيقة ومنضبطة. لابد أن أمراً ما قد حصل. عيناي ترقبان لوحتي المركونة بجانب سريري، تخيلتها أرملة تنتظر انتهاء العدّة لتخرج وتتنسم هواء الحرية... أعجبني اسم الأرملة لها.

انتشلت أوراقي والقلم من تحت الوسادة وجلستُ إلى الطاولة أكمل رسائلي التي أوقفتها بدخول سيد. أغمضتُ عينيّ لتنهمر صور الأحبة في ذاكرتي ندية مثل قطاف العنب. وتتخضل روحي بعبقٍ رصين من عطر أبي يتصدر بوح الكلمات. وجانب من وجه أمي الجميل ينضح برائحة النارنج والليمون كالهلال - أعلَن حضوره - أسرني طوال الوقت فلم أتردد في زرعه عريشة ياسمين لا حدود لأغصانها في كل رسائلي. ورفّ قلبي لوجه امرأة بيضاء كالبدر ما زال يسكن وديان الروح وشعاب القلب.

اختلط وجه سيد مع وجه أبي ووجوه الذين أحبهم؟ لا أدري كيف تخيلته يجالس أبي، يضحكان ويتبادلان الأحاديث الجادة والمرحة، وأظنهما تهامسا قليلاً حولي. فوالدي أيضاً في الثالثة والخمسين، لم أسأل سيد عن تاريخ ميلاده بالتحديد! وخشيت أن يتطابق موالديهما في اليوم والشهر. فأمور كهذه لو تطابقت تقلقني بالتأكيد. قد تكون دلالة لأمور أخشاها.. ما الذي يجري؟ لماذا أرتجف كعصفور دوري مبلل؟ هل احتلّ الرجل مساحة مهمة من ذاكرتي؟ وبهذه السرعة؟ لمَ لا؟ أليس هو الذي قشر الصدأ عن لغة كدت أنسى جمالها ورقتها وسط هشيم من اللهجات المتنافرة في سكن المدرسين، شكراً لك سيد. ولكل الذين لا أودهم. الذين جعلوني أتخذ قرار إستقبالك في غرفتي. فقد أيقظتَ فراشات ملونة وطيوراً نائمة في مختبرات الذاكرة....

عينا سيد تجولان في المكان. توقفتا عند المكتبة.. هزّ رأسه قائلاً:

- للغرفة رائحة أليفة. هي بالتأكيد رائحة الكتب والألوان

- بالتأكيد...

لاحظتُ اهتمامه الشديد بالكتب وباللوحة " الأرملة " التي مازالت تتكئ على المنصَب الخشبي.. كان مازال يجول بنظره على حاجياتي وكتبي وألواني واللوحات معبراً عن مزيج من الافتتان بالمكان والقلق في عدم البقاء وسط كل ذلك الجنون..

تأمّل لوحة معلقة على الجدار لامرأة جميلة وحزينة مرسومة على شكل سمكة وسأل:

- أرى فهماً إنسانياً دافئاً للمرأة في رسوماتك، ألا تبالغ في كم الأحاسيس الذي تسكبه على تعبير الوجه وعلى الجسد حين تحوله إلى سمكة؟

ثم تابع تجواله مع باقي اللوحات والأسماك. موقناً أنه لا ينتظر مني إجابة. فهو يعي ويدرك تماماً ما يرى.. فالمرأة كالهواء والماء نغبها ونتنشقها دون ارتواء. ومن خلال عشقنا للمرأة ندرك معنى أن نعيش الحياة ونحبها بجنون. لا نهملها أحياناً إلا حين تكون أماً أو أختاً أو زوجة في غمرة طغيان مجتمعنا الذكوري. ولكننا لا ننسى المرأة السمكة نتشهى أكلها دفعة واحدة دونما انتباه لأشواكها في أول قَرصة جوع وتشهٍ للجسد، نشتاقها بذات الرغبة والجنون...

- المرأة لا تغريها أنصاف الحلول في الحب. فهي حين تعشق تغدو كالفراشة المستباحة يغويها الضوء من كل الجهات، ويهامس النسيم أجنحتها فترتجف وتميل، وما تهيل إلا لعناق أو احتراق.. نلمس جراحها بيقين المؤمن ونرمي بين قدميها عباءة الطاعة. نعلن هشاشة رجولتنا أمام طغيان أنوثتها، كأنها النهر يغوينا فلا نمل السباحة فيه ولا نرتوي..

- والسمكة أيضاً لا يغويها أن تستباح خارج وطنها الماء، لأنها تكون حينئذ قد فارقت الحياة.. لم لا ترسم وطناً لك أو لأسماكك..... لا أرى ماءً في لوحاتك؟

- ربما هو في مكان ما.. وطن من نوع آخر... أما الوطن الذي تعنيه، فهو شكل من أشكال الاغتيال، لا أرسمه إلا نادراً.

- الاغتيال! من يغتال من؟

- سؤال مهم.. أظنها عملية اغتيال متبادلة... نعم.. هو يغتال فينا الإنسان، ويلفظنا كنفايات خارج حدوده ونغتال فيه ذاكرته نتحكم في سياقها و..

- يا ولد أنت تتحدث في موضوع أكبر منك. ليس الوطن من يغتال. الوطن لا يفعل ذلك!

- وما الفرق يا صديقي؟ بالتأكيد لا فرق. الذين يفعلونها هم من يمتلكون مفاتيح الوطن. ذاكرة الوطن.. هم يغتالونه بطريقتهم دون أن تراق لهم قطرة خجل واحدة. وهو يغتالنا على طريقته أيضاً دون أن تراق له قطرة ندم واحدة.

- الوطن يا صاح لا يحتاج لتهمة يلصقها بجلودنا كي يبرر فعلته. أظنك تعاني هزيمة ما أو خيبة كبيرة تلصقها على ظهر الوطن. الوطن أجمل مما تتصور وأنقى من أن يلوثه أحد. أنت تخفي أمراً مريراً يا حمزة! أدركتُ الآن، لمَ تألمتَ حين حدثتك عن سفن الرشيد التي نسي أن يتركها عند شواطئ الفرات لربان متميز مثلك.

- متميز!.. من قال ذلك؟. دعنا نغيّر الحديث أرجوك. فقلبي بدأ يتسارع نبضه.

طبطب على كتفي وهادنني مبتسماً:

- حسناً.. كما تشاء يا سليل بني حمدان. صحيح لم تحدثني عن قبيلتك؟ قلت وقد ارتفع ضغطي، وارتفعت الأنا بداخلي:

- ومن عاد يهتم بهذه الأمور؟ أنا لا أفهم كثيراً بالقبائل والأنساب. كل ما أملكه عن بني حمدان، جرح في التاريخ لمّا يندمل.

- حدِّثني عن هذا الجرح؟

- لا أملك منه إلا دماً اختلط بدماء كثيرة، هو درس في التاريخ، أنا على يقين أنك تحفظه جيداً.

- أعشق هذه الفترات المضيئة من التاريخ، وأحب سماعها ممن

ينتمون إليها خير من قراءتها في كتاب بارد. هاتِ أسمِعني.

- ألا تجد ذلك ثقيلاً ومملاً في أول تعارفنا؟... اتركها للأيام القادمة.)

هزّ رأسه مستسلما، ثم استدرك قائلاً وكأنه تذكّر شيئاً يستفزني به أكثر:

- تدري حمزة؟. أظن أن قرابة ما، تجمعني بك أيها الحمداني.

انصعتُ لإلحاحه تهذباً، قلت وعيناي تسرحان عبر النافذة :

- حسناً... ودون أن تدّعي القرابة، سأحدثك عن البدايات فحسب، ولا تسألني كيف وصل النسب. أنا يا صاحبي، وعلى ذمة أبي عن جدّي وعن جده والعارفين بالأنساب. أنتمي إلى أسرة حمدان التغلبية، وهي من القبائل العربية المشهورة. ظهروا أيام المعتضد حيث حمدان الأول الذي استولى على قلعة ماردين وأعلن استقلاله فيها، وتقلّد ابنه عبد الله أمارة الموصل ولقّبه الخليفة بناصر الدولة ولقب أخاه علياً بسيف الدولة. سكنتْ هذه الأسرة الجزيرة الفراتية العليا وعلى طرفي الفرات و.. قاطعني بهدوء:

- حسناً، هل تذكر موت سيف الدولة؟

- بالطبع، مات عام ستة وخمسين وثلاثمائة للهجرة.. الموافق لـ ...

- لا لا .. لا أقصد تاريخ الوفاة ، بل عمره حين توفاه الأجل.

- أظنه مات عن... ثلاثة وخمسين عاماً.

- هو كذلك، أرأيت يا حمزة؟

- عفواً!

- ثلاث وخمسون؟.. ذاتها جمرات عمري الآن، ألتقي فيها مع سيف الدولة.. ها.. أرأيت صلة القرابة التي تجمعني بجدك سيف الدولة؟

- أنت أقرب إليه مني.... ضحكتُ في سري لهذه القرابة. غشي وجهه حزن جليل، وانسحبتْ قطعان الفرح من عينيه رخية تعلن حزن السنديان

- أراك تحزن!... غادرت نظراته المكان وقال:

- ما أدراك أيها الحمداني الصغير بحزني وكيف أحزن؟ أنا لا أحزن كما تظن. لا.. فما عاد ينفع الحزن. كل ما هنالك أني أقارن بين الأمس واليوم، شتان يا فتى حمدان شتان، فما مضى قد مضى. قرأتُ يوماً أن سيف الدولة أنشأ قصراً في حلب أسماه الحلَبَة، يرتاده رجال العلم والأدب والفن، تأتلق الورود خمراً إلهياً بأشعارهم وألوانهم. يرتلون فيه حنين أحلامهم، لا يبارحهم الرجاء. والأمير الحمْداني يجالسهم منصتاً لصمت أحزانهم، يُشفي جراحهم، ثم يمضي سريعاً، سريعاً يمضي إلى ساحات الوغى...

أمتعني وصفه لسيف الدولة... تمعّنت في وجهه محاولاً إدراك سبب حزنه، كان يقيسني بنظراته المتحيرة، متسائلاً إن كنت فعلاً من سلالة حمدان التغلبي.!.. ارتجفت من لفح نظراته. ضاقت عيناه واستقرتا أخيراً فوق الأرملة. أضاع الحوار حين سألني عنها:

- هل انتهت هكذا؟

أراد تغيير الموضوع. لا أدري لماذا؟. ولا أدري ما بال هذا الرجل لا يمل الأسئلة!.. قلت مجارياً رغبته:

- اللوحة لم تنته بعد، ما زلت أبحث لها عن ألوان دافئة تستحم بها.

- الماء هو الوطن. ما رأيك؟

- عدنا إلى ذات الخندق! أرجوك أستاذ سيد..

- كما تشاء.. ولكن انتق لها من قرارة روحك جُلّ زخارف البوح، وانثرها على شعرها وعينيها وشفتيها. ستكون هذه اللوحة من بديع لوحاتك أيها الفنان المتأزم..... قال ذلك متجلياً وكأنه مازال في وصفه لسيف الدولة.

***

- 5 -

دخل زياد يحمل فرش الأكل، وضعه على الطاولة، رآنا ننظر إلى اللوحة وأدرك أن حواراً ما قد فاته. هز رأسه ثم وقف منتصباً كجندي منضبط وقدّم نفسه بلكنة ديرية قلما يتخلى عنها:

- أنا زياد الديري ابن الجدين وأحمر الخدين من سكان منطقة الحويقة بالدير العتيق واقطع الخبر.. أستاذ معتمد للتاريخ في معهد حوث. حللتَ أهلاً في ديار بني حمدان. ونزلت سهلاً في ربوع البو رباح. أعتذر عن تأخير الغداء لأن قِدرية الرز انكبت من بين يدي نواف الغبي عند نزوله الدرج. فاضطررتُ لكب قدرية المسقعة فوق رأسه منشان تكمل الطبخة. ولذا عملنا قِدريتين بدالها من جديد و.

صدَق حدسي أن مشكلة ما قد حدثت... غمزته أن ينهي تقديمه الطويل قبل أن يخلط عباس بدباس.. استجاب فوراً وأسبل يده إلى جنبه بحركة عسكرية قوية. لم ينس يوماً أنه عسكري قديم، مخضرم، حضر حرب الثلاثة وسبعين، وخرج منها بوسام شجاعة من الدرجة الأولى.. معلق على جدار غرفته في الطابق الثاني. مدّ الأستاذ سيد يده مصافحاً، وقد ابتسمت عيناه لهذا التقديم الطويل اللطيف، قائلاً: - أهلاً بك أستاذ زياد.

ابتسم أكثر حين تمعن في شاربه الأشقر المعقوف المشرّب ببياض الشيب. وانتبه إلى عينيه المبطنتين الحادتين كعيني نسر عجوز، يميل لونهما إلى لون العشب النضر في يوم ربيعي. فتمنحان وجهه الوسيم جاذبية آسرة لطالما أوقعتْ صبايا الدير في شركهما.

كان زياد لا يحتفظ من شبابه وقد شاطأ الثالثة والأربعين إلا بهاتين العينين وقلب لا يعرف الهدوء في العشق وإغواء النساء. فجراحه في

الحب هي جراح فارس قضى حياته يطارد امرأة فريدة في جمالها ورقتها وقوامها. فريدة في حبها ونسيانها وعذابها له. كانت برأيه فريدة في كل شيء. غدت المخلوقة حلماً من أحلامه بعد أن تزوجت ورحلت مع زوجها خارج الدير، وما كان زواجها إلا رد فعل منها لنبأ تسرب إليها من مغرض أن زياداً قد تزوج، وكان وقتها في سفر.. وما كان عليها إلا أن تقبل أول من تقدم إليها خاطباً... اكتشف حين عودته غيابها وزواجها فأصابته لوثة أقعدته البيت شهوراً قضى بعدها عمره يبحث عنها في أجساد نساء يعاشرهن في رحلة حياته المضطربة وفي سلاف كؤوس ترمح روحه في خمرتها. أغرق نفسه زمناً بالخمرة والملذات الرخيصة ثم التحق بخدمة العلم وحين أنهاها احتفظ بنفسه في خدمة الجيش لسنوات طويلة هروباً من الدير وذكراها المؤلمة.... كان وما زال يحبها بجنون. تنتابه لوثة الجنون ذاتها حين تمر ذكراها أمامه أو حين يلمس شيئاً من هداياها الكثيرة التي مازال يحتفظ بها / ساعة يده الذهبية، عطره، قمصانه الأربعة، خصلة من شعرها، صورتها بالأسود والأبيض بتوقيع شيخ مصوري الدير الفنان " جلال " الذي أضفى عليها لمساته البديعة في الظل والنور فمنحها روعة وبهاء../ وآخر هداياها قبل أن يسافر سفرته المشؤومة كانت حِرام الصوف الذي تنام به والمضمخ بعطرها ورائحة جسدها، احتفظ به كل تلك السنين وجاء به معه لليمن. فلطالما ضمه كأنه يضمها وتشممه وقبّله ونام تحته وفوقه وندّاه بدمعه وذكرياته. لك الله يا زياد كم أنت عاشق جميل ورقيق وآبق.. قال له سيد:

- حسب خبرتي المتواضعة بالوجوه. حدسي يخبرني أنك تهوى السهر والنساء والخمر.

- ومن لا يهواهن! ما خابت خبرتكم المتواضعة يا سيدي.. لو فتحتم جمجمتي ستلاقون بالتأكيد امرأة تستحم في بانيو دماغي. أو تراني أمارس العهر فوق الجسر المعلق بين البصلة "السياسية " وتلافيف المخيخ. ضحك سيد لسيريالية زياد كما لو أنه لم يضحك من قبل..

رحّب به ثم قدّم نفسه بهدوء واختصار دون استعراض. مما جعل زياد يهمهم وهو يفتل شاربيه متبرماً:

- واحسنا ا!.. ما يجري عقيم..

لم يعلق سيد. بل هز رأسه ونظرني متسائلاً: (أكلّ أصدقائك متميزون بهذا الشكل؟..)

- أصدقاء حمزة كالعقد الفريد، أنا واسطة العِقد فيه، وأقلّهم عُقداً وأكثرهم هزلاً.. هذا ما يبدو لك في الساعة الأولى من اللقاء الأول ولكني من الداخل عاشق جاد وحزين..هذا تميزي الذي به أفتخر.

- ونعم التميّز يا أستاذ زياد.. هل تُدرِّس التاريخ القديم أم المعاصر؟

- المعاصر امتداد للقديم وبالتالي هو تاريخ واحد متسلسل بالأحداث.

- لكن أغلبه ملوث بدماء الطغاة.. كيف تقدمه للطلاب؟.

اهتزت شوارب زياد، لم يتعرض لمثل هذا السؤال من قبل.. بحلق في وجهي، فهمت من نظرته أنه يسألني: (هل أكمل الحوار مع هذا الرجل؟ أم ماذا !) خبأت ضحكة كبيرة وراء فمي المطبق متظاهراً بعدم الفهم، تركته يواجه ما أواجهه منذ ساعتين ونصف.. خرجت بإبريق الشاي من الغرفة إلى المطبخ، ملأته ماءً وعدت. لم يتكلم زياد.. انتظر حتى عدت فقال كارهاً الحوار وهو جائع:

- لكن الطغاة رحلوا منذ زمن، وبقي التاريخ المعاصر نظيفاً منهم.

- لكنه بقي مكتوباً بدمائهم القذرة.

- ولكن ثمة تاريخ نظيف كتب بدماء طاهرة. دماء الشهداء و..

- لا شك لا شك، لا أنكر ذلك. ولكن الريح وحدها كانت تكنس الحقائق، تستعرض محاكم القتل والتفتيش، تعربد ثكلى أمام زنزانات الموت والتعذيب المتروسة بأحزان النسور.

مط زياد شفتيه وقد تجاوز الحوار بنظره درساً في التاريخ يمليه على طلابه. هرش صلعته. مسحها ودمدم بإيقاع بطيء: (وا ا احسنا ا اهُ.. ما يجري عقيمُ..) نداءه الأثير حين تضيق به الدنيا ، . ثم جلس جواري على السرير، قلب يديه معلناً عدم رغبته مواصلة الحوار، غمزني مشيراً بإبهامه علامة الموافقة على أن بديارنا رجل متعِب وغير عادي ثم همس بأذني: (هاي شكون هذا نيوي يخرب بيتنا ويجيب خبرنا!). ثم قام إلى طاولة الطعام ورفع عقيرته معلناً أن صبره قد نفذ من الجوع: (هاا!.. ألا نباشر الطعام؟ الأكل راح يبرد يا حمزة، تفضل أستاذ سيد، تفضل.. ودع أسئلتك التي تودي بنا وراء الشمس .. هيا، بسم الله، المسقعة من تبرد ماتنكال). في أثناء ذلك جاء نواف التدمري مندّى قميصه بالماء تظهر عليه علامات الاغتسال، بسبب المسقعة التي دلقها عليه زياد. جلس إلى الطاولة بعد أن ألقى التحية وعلامات الغضب تغطي جبينه وعينيه وفمه وشعره المبلل بالماء. وضعتُ إبريق الشاي على نار الغاز الهادئة، ليكون جاهزاً فور انتهائنا من الغداء. ما نسيت وضع شريط الموسيقى في المسجل، علّق زياد ساخراً: حمزة لا يأكل إلا على الموسيقى. فنان! ..سأله سيد:

- وما وجه الغرابة في ذلك؟.

- وجه الغرابة يا صديقي، أنه لو أني أنا زياد الرزل بكل موبقاتي كنتُ موسيقياً، لما سمحت لأحد أن يأكل وهو يستمع لموسيقاي.

- الفكرة من ذلك؟

- الفكرة يا أستاذ سيد أن حواس المستمع كلها تكون مشغولة برائحة الطعام ولونه وطعمه وطريقة توزيعه وبمن طبخه. وبذلك يكون قد شرّدَ أهم حواسه وهي ذائقة التفكير والتذكر.. وأهمل ذائقته السمعية ولا يرضيني أن يسمعني أحد وكأن موسيقاي نباح كلب قادم من بعيد.

انتبهت إلى أن زياد قد تحدث بفصحى جميلة.. وقلما يفعلها ، أدرك

ذلك مني فطبطب على كتفي وهمس: تعرفني وقت الجد أعجبك. مَسرح جاد..

قال سيد وقد أعجبه الطعام بعد أن تذوق لقمتين منه:

- معك حق في وجهة نظرك يا زياد، وما يؤكد ذلك أن المسقعة الطيبة ورائحتها الذكية جعلتني لا أسمع الموسيقى التي وضعها حمزة / فتل زياد شاربيه منتشياً / والحقيقة يا أخ زياد أنك من الظرفاء الذين تستطاب جلستهم.. فلسفتك واضحة في إدراك الحياة وفهم أمورها. يقول طاغور في كتاب السادهانا: (إن الموسيقا هي أنقى أشكال الفن، وهي أقرب تعبير عن الجمال) وبناء عليه يجب ألا يشوبها شيء خلال سماعها.

شبع زياد من كلام سيد قبل شبعه من الأكل.. علّق نواف:

- أنا أشهد.. والمسقعة فوق رأسي تشهد... فضحكنا..

بعد الغداء، حمل نواف فرش الأكل، صعد به إلى فوق، ثم عاد مسرعاً كي لا يفوته شرب الشاي الذي هيأته بمزاج. فإعداد الشاي لا يقل متعة عن شربه. تحادثنا كثيراً وتعارفنا أكثر. ذابت ثلوج وامتدت سواقي. مر الوقت بطيئاً، جدّد فيه سيد انبساطه بمضغة جديدة من تبغه الخاص شاركه فيها زياد الذي لا يوفّر شيئاً يذهب العقل أو يعذّب الروح. كانت له رائحة تثير العطاس. سألته:

- هل بها بهارات وفلفل؟ رائحتها تعمل حكة في الأنف!..

- خذ.. امضغ..... ما بك؟ لا تخف، هذه مضغة تبغ، ليس أكثر.. أتعاطاها بشكل يومي تقريباً.. ما رأي الأستاذ زياد بها؟

- للأمانة التاريخية أقول إن لها أهميتها " التاريخية " في تغييب وجع الروح، ودورها " الوطني " في إلهاء الذاكرة عمّا يعتمل فيها من قمع وآلام وأحزان... ضحك سيد لبداهة زياد المسيّسة..

كنت حتى ذلك الحين أعتقد أن للشمّة طقساً وهمياً من السلطنة

يعيشه المتعاطي في هذيان أو ضحك متواصل، دفعني فضولي لتجريبها حين قدّمها لي سيد، والجو نفسه من مرح وألفة وثقة ساعد على ذلك... خشيت أن أعود عن فضولي. تناولتها من يده دون تردد وأبعدت شفتي السفلى بالسبابة والإبهام وغمست وراءها المضغة، ويا ليتني ما غمستها، أحسست وقتها أن روح الخل والفلفل والشر وقليلاً من الزرنيخ معجونة كلها بنار جهنم، ورّت كلها في لثّتي، فما استطعت احتمالها أكثر من ثوان انتظرت فيها أن يكون لها مفعولاً سحرياً خاصاً يلعب بأعصابي أو يغتال مساحة وعيٍ من دماغي فأنتشي بوهم سلطانها، ولكن الذي حصل لا علاقة له بالانتشاء أو السلطنة. بصقتُها من النافذة على عجل، وسط ضحكات زياد الذي وقع ذات يوم بذات الفخ، لذا تركني اللئيم أجرّب حظي دون أن ينصحني برفضها. وبرر ذلك حين عاتبته: (أردت لك خوض التجربة. فجمعية الأرزال تبعي لا تقبل اعضاء لا يملكون تجربة في الحياة..)

وأي تجربة يا زياد! انتهى من مضغته، شكرَ سيد وصعد إلى غرفته يصطحبه نواف الذي زال ما بنفسه من عتب وغضب على زياد.. ابتسم سيد حين شاهد يمامتين رماديتين حطتا على حافة النافذة.

أغمضتُ عينيّ وتنسمتُ مدينتي الغافية على كتف الفرات..لمحتُ في خاطري ذات اليمامتين حطتا هناك على حافة نافذة بيتي المطلّ على النهر.

***

- 6 -

صمْتُ الغرفة ينساب بارداً، لزجاً في شراييني يستفز كريّات دمي. حاولت القراءة فلم أستطع..

أنهى سيد رسالته المطولة، طواها طيتين ثم أودعها في مغلف مطرّز الحواف بالأزرق والأحمر، مرر عليه رضابه ثم لصقه. رفع المغلف أمامي قائلاً:

- هذه الرسالة الثانية فقط منذ أكثر من شهرين التي أرسلها لعائلتي في السودان. الأولى بعثتها في أول أوغست أي بعد يومين من وصولي صنعاء والآن هذه الأولى من حوث...

اعتاد سيد في أيامه القادمة على كتابة الرسائل لزوجته كل يوم.

جلسنا على الأرض فوق الموكيت الأخضر الملتصق بأرضية الغرفة. أسند ظهره إلى سريره وكذلك فعلت إلى سريري. كنت أنتظر منه أن يحدثني عن نفسه وعن دراسته في انكلترا. عن ترحاله عبر العواصم، والنساء اللواتي عبرن بحياته. لكنه فاجأني بسؤال مباشر:

- زين، والآن حدِّثني عن مدينتك؟ لابد أن الرشيد تركها جنةً من جنان الأرض. ما دامت تحمل اسمه؟..

كنت على وشك أن أسأله ليحدثني هو. لكنه باغتني بالسؤال عن مدينتي مع تصوره المسبق أنها جنة من جنان الأرض! ليكن.. هذا شأنه، فليتصور أنها جنة من جنان الأرض. الأمر ليس محرجاً بالنسبة لي.. سأحدثه بجرأة عنها. سأفتح سِفر يومياتها السري وأنثره على مسامعه. ومسامعي أيضاً..

لا يعنيني كيف يسمع وكيف يفسر. ما يعنيني هو أن أفيض ما بداخلي. منذ زمن ونفسي تتوق للحديث في أي موضوع لإنسان أحترمه،

يسمعني، ويفهمني، التوق الأكبر كان للكتابة، هذا الهوس المؤجل. فطالما تساءلت الآن، وأنا أسرد أحداثاً مضى عليها عقدان من الزمن. كيف يستطيع كاتب الخلاص من رواية يكتبها؟ ولا أظنه يستطيع ذلك بسهولة. لأنه ما أسرع ما يكتشف أنها قد تملكته. وأنها هي التي كانت تكتبه. وهي التي كانت تنسجه بخيوطها.

نظرت إلى عمامته المرمية فوق العفش. شغلني حجمها وحرفان منقوشان على طرفها. تساءلت في سري كم من الوقت يحتاج سيد كي ينهي لفّها بهذا الترتيب والدوزان! تملكني الخوف وأنا أتخيل العمامة تكبر كل دقيقة ضعف حجمها. بالتأكيد ستغدو بحجم الحجرة قبل أن تحين صلاة العشاء وتخيلتني أختنق تحتها. أرعبتني الفكرة حين تخيلت سيداً يكبر معها. أبعدت الهاجس عن دماغي فوراً. وعكفت على النزر اليسير من الطّميّ المتبقي في قاع ذاكرتي أنبُشه. وبدأت أحدثه دون أن يخطر ببالي أني أختصر مدينة عمرها آلاف السنين في ساعة زمن.

لهث خيالي أولاً إلى شواطئ الطفولة، حيث " مريبط " تلك الناحية التي غمرها نهر الفرات وطواها النسيان مثل امرأة من قمح وتراب. وهي من أعمال الرقة. والمغمورون لقب لازم أهلها طوال عمرهم....

ابتلع النهر مريبط وما حولها من قرى وأراض زراعية. ابتلعها مع ما ابتلع من أوابد وأوادم وبيوت. رغم محاولات الحكومة آنذاك في بداية السبعينات طلب النجدة من اليونسكو حفاظاً على تراث المنطقة الثقافي والإنساني. وقد قامت تلك المنظمة الدولية مع فريق الباحثين السوري بإنقاذ ما يمكن إنقاذه... فقد أثبتت تنقيبات الدكتور موريس فان لون عام 1964 أنه أقيمت في مريبط منذ عشرة آلاف عام أقدم منازل بشرية بجدران مكلسة وأرض مغطاة بالفخار.. وتستحق أن تحمل اسم منازل..

"مريبط " عشت فيها أجمل أيام طفولتي. كانت الشمس لا تغرب إلا وراء كتف تلّها الأثري الشهير. كان بآثاره ومغاوره التي حفرتها البعثات مسرحا وملعباً سحرياً لي ولأترابي. نشكّل من طينه دُمىً

وتمائم تشبه تلك التي يكتشفها الآثاريون في أماكن التنقيب، ومن رقائق الطمي نصنع بيوتاً وقلاعاً صغيرة.

أذكر ذات مغيب فيها، كنت أتمشى على طرف النهر ليس بعيداً عن التل، مع الأخوين جلال ورئيف، صديقاي منذ الطفولة. كان جلال في الصف السابع. بينما كنت ورئيف في الصف الرابع. وهما من مواليد كسرة مربيط، عاشا فيها فترة الطفولة واليفاعة. بينما كنت قد ولدت في مدينة الرشيد، وبحكم عمل والدي موظفاً في الداخلية وتنقله الدائم، انتقلنا إليها وقضيت فيها طفولتي الأولى لغاية عامي العاشر تقريباً... كان القمر هلالاً معلقاً فوق رؤوسنا يلاحقنا أنى نسير. والموج يتلامع كلما ارتفع عالياً يمارس طقوسه في عمليتي المد والجزر.

ذلك المساء كان النهر غاضباً.. كنت أتقدمهما أحياناً في المشي أو يتقدماني، نفعل ذلك هرباً من موجة قوية تكاد ترمي أحدنا. كان جلال يحدّثنا تارة عن حيوان نهري مخيف يدعى الهامّة أو الهاميّة لها قرنا تيس وعينا بومة مفتوحتان دائماً، ليس لها أجفان كعيون السمك وصوت يشبه صوت الماعز، شعرها طويل أسود تخرج ليلاً من النهر أوقات البرد الشديد والفيضان تأكل الأولاد الذين يأتون للسباحة في مثل هذا الوقت .. يقول المسنون بفضلها وخوفاً من ظهورها قلّت حوادث الغرق لامتناع الأولاد عن السباحة أوقات غضب النهر أو حين يتحول لونه إلى الأحمر بسبب انهيارات التلال والأتربة الزراعية الملاصقة له وقلما نسمع عن حادثة غرق خلال هذه الأيام العنيفة والمخيفة من السنة.. حين بدأ يحدثنا جلال عن كهف تركه الآثاريون في الجانب المطل على النهر من التل. ظننته أول الأمر يريد إخافتنا أنا ورئيف. فما أبعدنا بصرنا عن الماء خوفاً من خروج الهامّية بينما كنا نتجه مباشرة نحو مكان الكهف ومن مكاني على طرف النهر كنت ألمح أطراف الطاحونة العملاقة تتلامع قبتها البيضاء تحت ضوء القمر وأتخيل العم أبو علي الكديان " جراش الطاحونة " يلطي في زاوية منها يحتمي من برد شباط اللباط الذي تكثر فيه العواصف والرياح يحرسها من عبث الأولاد.. فهو

عصب هذه الطاحونة ينظّم دور الطحن دون مشاكل.. ويهيئ آلاتها لعمل يوم غد يعمل بها منذ أن اشتراها أبو أحمد الزيات وطوّر مكناتها يبدأ أولاً بالقادمين من أطراف مريبط الحويش والجعابات.... يصفّهم بالدور مع حميرهم المحملة بأكياس الحنطة على يمين البوابة وأهالي مريبط على يسارها ثم ينتهي بالتوصيات الخاصة يعيد طحنها أكثر منها.. تابع جلال: (هذا الكهف لم يدخله إلا ثلاثة.. الأول عبد الكافي، شاب لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره. دخله وما خرج منه. وتقدم أخوه عيسى في اليوم الثاني للمخفر ببلاغ عن اختفائه. وهما من قرية " الحويش " التي تقع شمال غرب مريبط، وكافي هذا كان يعمل خلال موسم التنقيب الأثري في تل مريبط مع جمع من الشباب المرافقين للبعثة الأمريكية، لمساعدتهم في الحفر وإزالة التراب بأجر ليرتين في اليوم.. وكان الباحثون حين يتوقعون ظهور تحفة مهمة أو يلمحون بوادر خابية من فخار يظنون أنها مليئة بالعملة الذهبية يصرفون العمال باكراً مع صرف كامل يومياتهم. يبدو أن صاحبنا عبد الكافي ساوره الشك ذات يوم في هذا الكهف لكثرة ما كان يصرفه الباحثون خلال العمل فيه. وبعيد مغادرة البعثة انتظر كافي أيام الشتاء والبرد القارص والناس في بيوتهم بحيث لا يراه أحد .. دخل الكهف خفية ظاناً أن به ثروة يصيبها، لكنه لم يخرج منه أبداً. وفي اليوم الثاني على فقدانه وبلاغ أخوه عيسى، كان الخبر قد انتشر في مريبط وضواحيها.. واستنفر أصدقاؤه والدرك في المخفر. استمر البحث يومين كاملين دون أن يخطر ببال أحد أنه داخل الكهف الأثري، اعتقد البعض أنه غرق أو أن الهاميّة ذات الشعر الطويل أخذته إلى قاع النهر لتأكله هناك فهي لا تظهر إلا بمثل هذه الأيام من السنة .. إلى أن أعلن في اليوم الثالث " دواس الليل " أنه رآه يدخل الكهف ليلة أول أمس ظناً منه أنه كان يرغب في قضاء حاجة فلم يفطن لخروجه..

وبعد سماع الخبر من دواس وانتشاره، تجمع بعض الأهالي قلقين أمام باب الكهف وانضم إليهم دركيان أرسلهما رئيس المخفر... كنت

معهم حينذاك وكان عمري خمس سنوات وأخي رئيف في عامه الثاني. وظهر بين الناس شاب لوحته الشمس اسمه عيسى يعمل مستخدماً في دائرة النفوس وأنه شقيق كايف ، قرر الدخول إلى الكهف بحثاً عن أخيه وسط معارضة الدركيين وأقربائه خشية أن يضيع هو الآخر في الكهف. صمم عيسى على الدخول فكايف شقيقه الوحيد، وهو كل عائلته. وهما يتيما الأبوين.. وفعلاً غافل الدركيان ودخل المغارة دون سلاح أو حتى عصا بيده. وسط مخاوف عشيرته التي ما قدمت له ولأخيه يوماً أي عون بعد وفاة والديهما في حادث سير.. وبعد نصف ساعة من الانتظار كان الشيخ فندي إمام الجامع بعمامته الخضراء يتمتم بالأوراد والتعاويذ يحمل بيده سبحته الطويلة يطقطق حباتها كأنه يعدّ بها اللحظات التي مرت على عيسى وهو داخل الكهف. أما الدركي عزو الحاج ياسين فذهب ليخبر رئيس المخفر أن شقيق المفقود قد دخل الكهف.. مرَّ الوقت ثقيلاً بطيئاً أشبه بمخاضة وحل.. فقد تسمّرت أقدام الجميع ووجفت قلوبهم تحسباً لما يجري في الداخل.. قطع هذا القلق والتوتر خروج عيسى من الكهف مرعوباً يترنح مثل المخووث، وقد ابيضّ شعر رأسه واصفرّ وجهه والتوى فمه وبدا أكبر من عمره بكثير... أجفلت منه النساء وارتعب الأطفال.. قال عنه الدكتور أبو صادق حين عرضوه عليه في المستوصف: (إنه الأدرينالين ارتفع إلى أعلى درجاته بسبب الخوف.. لا بد أنه رأى ما أفزعه فتفاجأ وارتعب وأصابه ما أصابه.) هذا ما قاله الطبيب. أما كلام الناس فكان مختلفاً، قالوا إن عفريتاً ظهر له في الكهف وفعل به مافعل. أو أن الهاميّة التي أكلت أخوه كايف ظهرت له إذ لا بد لها من ساعة تقضيها على اليابسة تشحذ فيها أسنانها وتمشط شعرها الطويل. والرأي الأخير قالته والدة علي الحنفيش المرأة التي رفضت ذات يوم أن ترضع رئيف لأنه أسود وجايف.... أما الشيخ فندي فكان له رأي آخر قال: (يا أم علي وكلي أللّه .. هذه الحالة لا تأتي إلا من ضربة عفريت. أو سحر مبيَّت في قبر مهجور. والهاميّة لا دخل لها بما جرى لعبد الكايف.. هي من فخذ

الحوريات ولا تعيش على اليابسة هي بنت النهر لا تخرج إلا لتأكل من يتحداها ويسبح وقت الفيض والعجاجة الحمرا..)

حجة الشيخ فندي قوية ولا تحتمل النقاش. صدقها الجميع.. صارَ عيسى أخرسَ عاجزاً عن الكلام بفم أعوج. ومن يومها يخشاه الناس معتقدين أن عفريتاً في المغارة قد تلبّسه مادام الشيخ فندي قد أفتى بذلك. فغدا المسكين درويشاً مسلوب الإرادة يتنقّل بين المجالس بثياب بالية، ينهره الرجال مثل كلب أجرب ويلحق به الأطفال في كل مكان ينادونه عيسى الأخرس.. عيسى المهبول.... أفقدوه ما تبقى من إنسانيته وما تبقى من عقله. ... توقف جلال عن السرد. سألته وقد فاجأني بقصة عيسى: هل هو أبو العيس المسكين ذاته الذي نجالسه ونمنع الأولاد عنه؟

قال: هو نفسه.

- منذ متى حدث ذلك؟

- منذ تسع سنوات تقريباً أو عشر، لا أذكر بالضبط....

كنت أعرف عيسى الذي تحدث عنه جلال كما يعرفه رئيف وعلي ومحمود الشيخ ابراهيم ... ولكن ما خطر ببالي يوماً أن ما به هو من الكهف أو العفاريت. كل ما أعرفه أنه رجل طيب درويش يستحق عطفنا ويستحق الاهتمام والرعاية كما كان يوصيني أبي الذي يعلم قصته جيداً.. فعيسى كان أحد المستخدمين في دائرته ولم يخبرني يوما بذلك... كثيراً ما كانت أمي تقدم له الطعام واللباس وخبز التنور حين تراه واقفاً يرقبها من بعيد وهي تخبز. تناديه فتعطيه رغيفاً ساخناً ثم تغيب قليلاً وتأتيه بشيء من الجبن والزيتون. أجالسه أحياناً على باب بيتنا نأكل عرانيس الذرة المشوية، أو اللوبيا الساخنة المملحة.. وفي أيام نكون داخل البيت تحت عريشة العنب نسند ظهرينا إلى ظهر البئر تأتينا أختي نبال التي تكبرني بعام بالشاي والكعك وبعض الطعام فيفرح عيسى كثيراً. يشكرها بفمه الأعوج ولسانه الثقيل: (شُكناً نبان). أي شكراً نبال. فترد عليه الشقية: (أهنن أبو العيس) وما كان

يزعل منها حين تقلده في الكلام أو البكاء. بل يشعر بالأمان في بيتنا ويستعيد شيئاً من إنسانيته وكذلك الحال حين يكون في بيت العم أبو جلال مع رئيف وجلال فلا تقصر بحقه الخالة أم جلال من الأكل واللبس وكثيراً ما يأخذه جلال إلى المزين فواز ليحلق له لحيته ويشذب له ما تبقى من شعره.. أو حين يكون مع محمود الشيخ ابراهيم صديقنا الرابع. كنا نحن الأربعة وخامسنا علي الحنفيش نحيط عيسى بالحنان والرعاية، نحميه من رعونة الأولاد وأذاهم. لا نسمح لأحد أن ينهره أو يسخر منه، على العكس كنا نحدّثه ونستمع إليه نحاول أن نفهم ما يقول..

كان بعد أن ينتهي من عرنوس الذرة يدفنه في التراب ويغطيه بحجر. ثم يضع عرنوساً جديداً في جيبه ولا ينسى أن يذر عليه قليلاً من الملح ثم يطبطب على جيبه فرحاً، يضحك ويدمدم كلمات يتابعها بإشارات لا نفهمها، ثم يغطي وجهه براحتيه ويبكي بحرقة تجعلنا نبكي معه. يرمي نفسه أحياناً على الأرض يتمدد على ظهره ويدلق لسانه ويرخي يديه كالقتيل، فلا نفهم من حركاته شيئاً. كان يعيد ذلك المشهد في كل مرة يأخذ فيها كوزاً من الذرة. ثم يصرخ بوجوهنا مستغرباً غباءنا في عدم فهمه. يخرج صوتاً حزيناً عميقاً أقرب إلى صوت حيوان يجأر فنرتد عنه خوفاً. لكنه يهدأ ويعود إلى طبيعته، يمسح رؤوسنا بحنان يطمئننا ألا نخاف. كان يغضب ويبكي حين يراني أرتجف خوفاً منه.

والآن أخذت الصورة تتوضح بذهني بينما جلال ينهي حكاية عيسى الأخرس. حتى رئيف تفاجأ بحديث شقيقه فشدَّ على يدي مؤكداً أن الأمور قد توضحت. فقد كان عيسى حين يتمدد على الأرض يمثل لنا هيئة كاهن التي رآه فيها ميتاً داخل الكهف. فهو الوحيد الذي دخل بعده ورآه على تلك الحال. فأصابه ما أصابه.

***

- 7 -

ما زلت أسرد وقائع تلك الحادثة لسيد دون أن أعلم السبب. فهي لا تعنيه ولا تهمّه في شيء. لقد سألني عن مدينة الرشيد، فوجدت نفسي دون وعي أحكي ما حكيت عن طفولتي في مريبط. لم أكترث لهذا الاحساس وتابعت وسط إصغائه الشديد:

- بعد حديث جلال بيومين أو ثلاثة، كنت أفتح باب دارنا صباح يوم ماطر لألحق برئيف وعلي الحنفيش ومحمود الشيخ ابراهيم الذاهبين لمدرسة "رفعت الحاج سرّي الابتدائية" تناهى إلى سمعي صوت بكاء وأنين. كان عيسى يجلس على الأرض يرتجف من البرد. صوته كان أقرب إلى صوت مجموعة من الضباع تصرخ وتبكي بوقت واحد. ترددت بين اللحاق بزملائي وبين عيسى الذي ينتظرني بالتأكيد. وقد عرفت عنه ما عرفت من جلال.. فما إن رآني حتى نهض، بل زحف على أربع غائصاً بالوحل والمطر. أمسك بقدمي وناداني باسمي: (حمْجه .. حمجووووه. أنوس... حافي) كانت الحروف تخونه وهو يتابع بكاءه الغريب. حرف الزاي كان يخرج من فمه الأعوج جيماً مشبعة، يحاول أن يقول شيئاً.. وكلمة عرنوس تخرج من فمه ملتوية مدغومة يضيع نصفها بين الرغامى والمري فتصلني عنوس أو أنوش أعرف حينها أنه يريد عرنوساً. ثم يعقبها بكلمة أخرى أشبه بـ خافي أدركت أنها كافي..

ولكني يومذاك تركته وركضت إلى المدرسة لأن الحصة الأولى كانت " نحو وإملاء " للمدير، والويل لمن يأتي بعد دخوله الصف. كان أهون عقاب عنده للمتأخر أن يمدّه فلقة في الباحة أمام المدرسة كلها.

خلال الدرس كان دفتر النحو والإملاء مفتوحاً أمامي والقلم بيدي، وما فارقتني حكاية جلال أول أمس وصورة عيسى صباح اليوم يبكي يريد عرنوساً لشقيقه كافي. إلى أن فاجأني المدير خلال الدرس:

هل نقلت النص المكتوب على السبورة يا حمزة؟ أرني ؟

تناول الدفتر، نظر فيه بدهشة ثم صرخ بوجهي: (عرنوس يا حمزة؟ عرنوس! بدل كتابة النَّص! ترسم عرنوساً على دفتر النحو! اخرج إلى السبورة، قف هناك ارفع يديك وقدمك..... لا تلمس الجدار). فعلت ما طلب. كنت أتمايل وأرتجف على قدم واحدة ووجهي إلى الجدار طوال الدرس.

أما خوفي الأكبر فكان من أمرين أحلاهما مرّ. أولهما، وهو الأهم، أن يمدّني فلقة أمام الطلاب في الباحة، والثاني هو أن يخبر والدي بالأمر فهو صديقه وناصري مثله، فيحط عليّ غضب السماء والأرض. لم تفارقني في وقفتي أمام الجدار صورة الهاميّة بشعرها الطويل وصورة كافي مقتولاً في الكهف وعيس يتخبط في الوحل يستجدي عرنوساً مني.. تختلط الأمور في عقلي الصغير وأصاب بالدوار بعد وقوف نصف ساعة على قدم واحدة. أقع على ظهري فيصطدم رأسي بحرف الطاولة. أفيق في البيت معصوب الرأس، مصاباً بالحمى. والكمادات المثلجة تتهافت على وجهي وبطني. وأبي جواري ينصحني ألا أُرهق نفسي كثيراً في الدراسة. فما أخبروه الحقيقة بعد.. أجيبه: (تصوّر يا أبي كان يريد عرنوساً لأخيه كافي الذي قتلته العفاريت. وما كنت أفهم.. أظنها الهامية التي...) يُصدم والدي بولده البكر وينده أمي: (تعالي شوفي ابنك! الحمى أخذت عقله صار يهذي بالعفاريت والعرانيس)

ما زال سيد بادي الاهتمام، مأخوذاً بالحكاية مسمراً عينيه كأنه يستمع إلى حديث خرافة. وهذا ما جعلني أستمر دون توقف وأتابع ما كان يسرده لي صديق الطفولة جلال: (أما الشخص الثالث الذي دخل المغارة فهو دواس الليل. نعم دواس الذي أخبر عن مكان كافي.) قلت متفاجئاً:

- دواس السقا.. ناقل خطرات المي؟..

- هو بعينه. لكنه وقتذاك كان يعمل حواجاً يدور بدابته على

البيوت يبيع النساء حوائجهن من ملافع ومقصات وهباري الحرير الملونة وصايات المخمل وأحزمة الشويحي القماشية.

بعض الرجال يسمونه وجه الخير والنساء يسمينه أبو البشاير. كان أول من يبشر الرجال بالمواليد الذكور فيأخذ بشارته الكبرى ليرة سورية واحدة لا يرضاها إلا ليرة " نِكل " لا يتنازل عنها. يكره الليرة الورق لأنها تتمزق بين يديه المتعرقتين دائماً. أو يشترط البشارة علبة دخان وعلى الأغلب تكون " كِنت ". وعلى ذمة الكثيرين من أهالي كسرة مربيط أن دواس الليل ما جاء بخبر سوء. طوال عمره كان يتلقف أخبار شفاء المرضى المتواجدين في مشفى الرقة أو أخبار الناجحين في السرتفيكا أو التاسع يبشّر بها ذويهم. من القادمين في سيارة خلف الغدا الصفراء.. وإن لم يجدها فمن سائقي إحدى سيارات وهاب المواس ليبلغها لأهاليهم يصيب منهم بشارته الدسمة. وحين كان يرضى بليرة ورقية واحدة، فذلك من النساء فقط. على أن تكون جديدة

قلت لجلال: ولكن دواس ليس مصاباً ولا يشكو من علة! أقصد ليس أخرسَ مثل عيسى.؟

ردَّ جلال: لأنه ليس مثل عيسى. دواس رجل شجاع بحق، وقلبه قلب سبع استطاع أن يحل لغز العفريت. فبعد خروج عيسى وما جرى له لم يستطع أحد دخول الكهف حتى الدرك رفضوا الدخول بعد الذي شافوه من عيسى وما أصابه.. ولكن بعد شهر تقريباً من سالفة عيسى دخل دواس الكهف بسبب رهان. لا رغبة في إصابة كنز أو لقية أثرية. بل تحداه ثلاثة من رجال مربيط يريدون أذيته بسبب دسيسة لئيمة من مزعل الذي ينافسه في البيع والحواجة.

ومزعل هذا حواج أيضاً، لكنه لا يملك شعبية دوّاس عند الأهالي، رغم تفانيه في التعطر والتأنق. فالنساء لا يشترين منه إلا في غياب دواس. ولم يحصل ذلك إلا مرة واحدة، حين أخذ دواس أمه المريضة في

حالة إسعاف بسيارة "خلف الغدا " الصفراء إلى مشفى الرقة، ولازمها عشرة أيام لم يفارقها حتى أسلَمت الروح لباريها.. وزبائن مزعل

عادة كانوا من الأولاد والفتيات الصغيرات ويدخل أحياناً مطعم احميد الحلبي - يتجول بحقيبته بين الطاولات - يعرض بضاعته على الزبائن اللاهين عنه بالأكل. أو تجده بين القادمين من القرى المجاورة لمراجعة مديرية النفوس أو لعيادة مريض في مستوصف الناحية..

أما دوّاس فكان يدخل البيوت كلها بندائه المعهود: (يا ساتر. وين أهل البيت؟) يبيع النساء أقمشة وأساور وخواتم وقمصان نوم وحبكات للبنات بشتى الأشكال وسحابات وحمالات للصدر وغيرها من الألبسة التي يستحي الرجال شراءها لزوجاتهم خلال نزولهم إلى المدينة. يستفرد دواس الليل بعرضها أمامهن في أرض الديار، يتضاحكن ويتغامزن بينما هو يعرض حمالات الأثداء على صدره يمطها ليريهن اتساعها وقدرتها على التحمل. يرافق ذلك ثرثرته عن جودة القماش. والتغزل بالجسد الذي سيحتويه هذا القميص الحرير. أو تلك القطعة المصممة خصيصاً لذلك الكشح.. أو ذاك القرط لتلك الأذن، يفعل ذلك مقلداً ما يفعله بائعو المدينة أمام زبائنهم من النساء. والرجال بطبيعة الحال لا يستطيعون منعه من البيع لشعبيته الكبيرة وإخلاصه وأمانته رغم ثرثرته. معتقدين أنه من المساكين ذوي الكرامات. وفريق قليل آخر يعتقد أن حواس من الخبثاء الذين يسوقون الهبل مع الدروشة ليتمتع بمجالسة النساء. رغم النزاع الدائر بين الفريقين فلا بديل عنه لجلب تلك الحوائج الخاصة لنسائهم إلا بنزولهم إلى المدينة. وهذا لا يحدث إلا في حالات نادرة، كزيارة طبيب مختص حين لا يعجبهم تشخيص طبيب المستوصف أبو صادق. وفي هذه الأثناء تخطف إحداهن رِجلها مع أمها أو أختها وتشتري من نوفوتيه قريب من العيادة حاجتها الخاصة دون أخذ الزوج معها أو دون علمه حتى. لا لشيء، إلا لأن ذلك يسبب له حرجاً وهو يرى بائع المدينة يستعرض دون حياء ألبسة زوجه الداخلية الجديدة، يتغنى بجودتها وفتنتها عند اللبس. لهذا وذاك قرر بعض كبار السن، الغيورين جداً على زوجاتهم الصغيرات النيل من حواس والتخلص منه. ليس بدافع الغيرة فحسب، بل بسبب وشاية ندّه مزعل التي أوغرت صدورهم عليه وزرعت الشك في قلوبهم. أن دواساً يتمادى أكثر من اللازم مع نسائهم

حال غيابهم... جملة واحدة كانت كافية لأن تلهب عقولهم وتؤجج النار في صدورهم... هم في النهاية كرجال مسلوبي الإرادة. راضين عن عجزهم أمام بائع المدينة، فهو غريب، لا حول لهم عليه ولا قوة. أما دواس فهو منهم وبهم. يعرف عللهم ونقاط ضعفهم. ويعرفون علّته ودواءه. لذا لا بد من إيقافه عند حده أو التخلص منه، مادام يتمادى مع الحريم، على ذمة مزعل. لذلك دبّروا له هذه المكيدة لقاء كروز كنت، خاصة بعد أن رؤوا ما جرى لعيسى من الخرس والبله بعد خروجه من الكهف..

هم يعرفون ولع دواس الليل في خبل المراهنات والتحدي. استغلوا ذلك لديه فأرادوا إيقاعه في شر خبله. بينما هو يبصق عليهم في خياله ساخراً من غبائهم في تقدير إمكانياته. فما كان يملك شيئاً حتى يخسره. أقصى ممتلكاته كانت حماره وما يجلله من بضاعة نسائية. وهو ذات الحمار الذي غدا ينقل عليه خطرات الماء بعد ذلك الرهان. لا شك أن لديه حماقات كثيرة في مجال المراهنات. لا ينكر ذلك.

قال مرة عن نفسه في أكثر من مجلس بعد خروجه سالماً من الكهف: (أعترف أني مخبول مراهنات، وأن الرهان مثل القمار.. سوسة.. ولكن هذا لا يعني أن يستغلوني بهذه الحقارة والوطاءة. كانوا يريدون أذيتي بل قتلي وليس كسب الرهان.. أغبياء لا يدركون أن قلبي قلب سبع... مرة من المرات شلت بغل على أكتافي مسافة خمسين متراً مقابل باكية (كنت) وين المشكلة؟ إذا كنت قنعان بشيء لازم تسويه.. وشيء مقابل شيء... يومها كنت رايح المستوصف عالدختور أبو صادق وبطريقي شفت الشرطي (متروك) شوفير مدير الناحية جالس مع اثنين من العناصر أمام المخفر. خطر ببالو يتسلى معاي. رمى باكية (كنت) عالطربيزة وبرم بوزو وتحداني: (شو دواس، بتحسن تقبع هالبغل عكتافك وتمشي فيه؟ وباكية الكنت إلك ومعاها جرة عطر كمان. شو قلت؟) اش قلت؟ ما قلت شي وقتها.. فكّرت.... أشيل بغل وأدور بيه أمامهم دون مقابل للتباهي بَس، مسألة فيها نظر. أما أني أشيله لقاء رهن محرز فما بدها نظر. والظاهر أن البغل كان من النوع الشرس، عرفت ذلك من عيون متروك والعناصر، كانت اتْصج باللؤم والخبث..

وصدق ظني.. لمن دنيت من البغل هاج وماج ورفسني بخاصرتي. وراد يصكني الحيوان مرة ثانية. كلت بقلبي " هينة يا متروك ". وصحت بالبغل صوت أخرعته، ودخلت تحت بطنه وصحت يا حيل الله ورفعته وَنا أخو هدلة. إي رفعت البغل، شلته على جتافي ودرت بيه ساحة المخفر كلها. ربحت الرهان باكية كنت وجرة عطر)

إذن ما دامت عقدة دواس هذا النوع من الدخان الذي لا يراه إلا في يد أغنياء مريبط أو لدى مدير الناحية أو مدير النفوس، كان من السهل أن يغويه أبو مربد ويلعب بعقله ويجعل لعابه يسيل لهذا العرض المغري والذي لا يحصل في العمر إلا مرة واحدة، " كروز كنت " إن هو اقتحم الكهف، يأتيهم بالعفريت المزعوم.

يتابع جلال: (وقف دواس الصاحي تماماً لما يدبِّره له الرجال الثلاثة بباب المغارة. خاطبهم وعلى رأسهم كبيرهم أبو مربد بحضور بعض الأهالي جاؤوا للفرجة وقفوا بعيداً: (اسمعوني زين. تعرفون حق المعرفة ما عندي ولد أخاف عليه ولا حرمة تنتظرني وتكسر عيني. كل ما أملكه من هالدنيا غريفة ساترة علي. وإيديني ورأسي اليابس وحماري... شوف أبو مربد، وصلاة محمد والكعبة الشريفة. إن ما اعطيتوني اللي اتفقنا عليه بعد ما أطلع. راح أنتف شواربكم وأحطها بـ... ((انتبه لوجود فتيات صغيرات ونساء، خجل واكتفى بإشارة خفية من يده)) وراح أسوي أكثر من هيج.. ((رفع صوته ليسمع الجميع)) اشهدوا يا ناس. هذوله أبو مربد و غازي العاني ويوسف المسعود وعدوني بكروز كنت إذا طلعت من المغارة صاغ سليم والشرط لازم أطلع قبل صلاة العصر.. بخاطركم) عض على سكّينه وشمّر عن ساقيه وعلق طرف ثوبه في حزامه. توكل على الله ثم دخل بعد أن سدد عينيه بعيون أبي مربد وغازي ويوسف المسعود، فارتعدوا منه وتعوّذوا من الشيطان. ثم سمعوا صوته من داخل المغارة: (يا حيل الله.. أنا أخو هدلة).

حشد كبير من أهالي كسرة مريبط كانوا ملتمّين أمام باب الكهف علّهم يشهدون هبل وضياع رجل آخر. راهنتْ جماعة منهم أن دواساً سيخرج معافى والعفريت بين يديه كقط ميت.

ومن لا يعرف دواس جيداً أو سمع عنه. لا يستطيع أن يخمن أن هذا الرجل البسيط الطيب الحافي أحياناً وأبو البشائر الخيّرة، بقادر على أن يقضي على ضبع أو عفريت أو حتى على واوي.. ولا يبدو عليه أنه يفوق الرجال بشيء. إلا بضخامة كفيه وثخانة عنقه.. على كل حال وأياً كان الذي في المغارة ما كان يخشاه دواس.. فقد صمم دون رجعة.. لا بد من دخول الكهف وكسب الرهان من أبي مربد وشريكيه...

غاب ساعة أو أكثر، ابتسامات الرجال الذين راهنوه تتسع كلما مضى الوقت. فالرهان ينتهي عند صلاة العصر ودواس ما زال غائباً داخل الكهف. البعض كان متوتراً لتأخيره.. النساء الطيبات كن قلقات أكثر الجميع. سيفقدن بغيابه حوّاجاً لطيفاً يلبي لهن ما يحتجنه من الأقمشة بأنواعها وأمشاط العظم للعجائز وأزرة ملونة وأثواب الكودري الباردة في الصيف. حتى أنه كان يمنحهن بعد كل بيعة يبيعها كتاب الحصن الحصين الصغير الحجم مجاناً ليضعنه تحت رؤوسهن أو يعلقنه على صدور أولادهن الرضع رصداً للحسد ودرءاً للمرض. كن يدْعين له بالتوفيق. سيفقدن فيه إذا مات أو انهبل أنيساً يسلّي صباحاتهن بالنكات وأخبار نساء المدينة الحضريات وما يلبسنه من تنانير قصيرة وقمصان بلا أكمام مفتوحة الصدر كقمصان الرجال وسراويل ضيقة حتى مستوى الركبة ملونة يخرجن بها إلى الشارع. يكشف لهن مشتريات الناحية، يسرُّ لجازية ما اشترته حورية من ألبسة لبناتها. ولفوازة ما اشترته وداد السفرانية الزوجة الثانية لوهاب. ولهلالة ما أوصت به زوجة الشرطي متروك... و. وهكذا كانت كل واحدة منهن تعرف ما اشترت الأخرى دون أن تتبجح زيادة أو نقصاناً أمام صويحباتها. اقتربت صلاة العصر ولم يخرج دواس.

تمتم الحاج أبو مربد: عسانا نخلص منه ومن بلاويه، الله لا يرده. ما أكمل أبو مربد دعاءه وأمنيته حتى خرج دواس الليل من المغارة كالبلدوزر يرغي ويزبد، فأجفل أبو مربد وصرخ: (عوذة. عوذة. لا كان الله ردك..) كان منظر دواس مرعباً. يقذف الشرر من عينيه.. قميصه ممزق، أشعث الشعر أغبرَ... تسيل دماؤه على جانبيه وجبينه.

وفي زاوية فمه اليمنى يلتصق ما تبقى من لفافة الحموي الممتاز " الغازي " ينفث دخانها من الزاوية الأخرى، يحمل على كتفيه جثة ضخمة لوحش أملح مخطط، ما زال يحرك قائمتيه الأماميتين.

اقترب من أبي مربد، لقيه مخذولاً مرتبكاً ومذعوراً. رفع الجثة فوق رأسه ثم رماها أمامه. وكانت لضبعة بحجم حمار وحشي. أفزعه صوت الخبطة على الأرض وقد أثارت غباراً كثيفاً ودوياً مخيفاً جعل الأولاد يتراكضون عنها خشية أن تستيقظ وتبتلعهم، وكذا فعلت النساء وشهقن مع سقوط الجثة أمام أبي مربد، اعتقد الأطفال أنها الهاميّة قتلها دواس، إلا أنهم تراجعوا عن ذلك حين لم يروا شعرها الطويل.. بينما عيون الرجال أدركت أنها ضبعة فاتسعت دهشة وإعجاباً بشجاعة دواس.

الضبع وحش يخشاه حتى الدرك ببنادقهم. اقترب دواس أكثر من أبي مربد، شدَّه من ياقة سترته وجأر بوجهه مهدداً: وفَيت بوعدي. هات وفِ بوعدك يا بو مربد الـ.... أكابر

لعله أراد أن يقول الـ..كلب، لكنه آثر الانتظار على بدء المشاكل.

في أثناء ذلك كان غازي ويوسف المسعود الشريكان الأساسيان لأبي مربد ينسلاّن بهدوء من بين الجموع بغية الهرب. إلا أن دواساً لمحهما وانقض عليهما كالعبنّي[1] بأسرع من لمح البصر وطرق رأسيهما ببعض واستعرضهما أمام الناس قائلاً: عفْيه الزلم. عفْيه الأرانب وين تهربون مني يا أولاد الديوثة وين رايحين؟ شوفوا. بدون أخذ وعطا. هاتوا كروزين كِنت وفوقها عشر ليرات وبعدين انقلعوا بالمايردكم - رفع صوته - تسمع يا بو مربد. كروزين وفوقها عشر ليرات.

أسقط بيد أبي مربد بين هذا الحشد من الناس، فغدا مثل شجرة عارية تعبث بها الريح والأمطار. أراد أن يعترض! فالاتفاق كروز واحد فقط. لكنه بعد فشل خطته الدنيئة وانفضاح أمره بين الناس، ما عاد يهمه.. كروزين، ثلاثة، مئة. ما دام دواس قلّل قيمته ومرمطه ومرغ

---

[1] العبنّي: النسر العظيم.

وجهه بالوحل أمام الأهالي، فعليه أن يستجيب له ويحفظ ما تبقى من ماء وجهه المجدور. رفع فوراً عقيرته مُرغماً وبصوت عال:

- تبْشر دواس، تستأهل.. ما يهمّك تراها كلها جانت لعب وقشمرة!

وكظم حقداً ومرارة عظيمين في فمه.وبيّت له يوماً لا يعلم فظاعته إلا الله.. في حين مازال دواس يجرجر يوسف وغازي ويعربد في وجهيهما: تعرفون لمّن تطلع براسي.. ما أعرف أبويا الخلفني.. وقت الجد، أشلّحكم هدومكم وأمشيكم مصلّخين جدام مريبط كلها - رفع صوته كي يسمع الجميع - يا ناس يشهد الله أني بريء من كل ما قالوه عني، وتعرفوني زين.. وحق محمّد ومائة نبي.. ما سولفت حُرمة من حريمكم بشين أو بنية عاطلة.. كلُهِن مثل خواتي. وأدري إن أبو مريد وغازي ويوسف دبروا لي هذي المكيدة من ورا العاطل ابن العاطلة مزعل الكلب، أشوفو إياها.. معليش.. ناوين يتخلصون مني. لكن الله اكبر من كل مكايدهم..

بدأ الأهالي يرمون اللوم على الثلاثة لفعلتهم الشنيعة بحق دواس وتوسيخ سمعة الرجل الطيب النبيل، وبهدلوا مزعل الذي لم يعثروا على بعرة تدل عليه فقد شمّع الخيط منذ أن رأى دواساً خارجاً من المغارة..

بدأ الناس يتهامسون بمآثر دواس وخدماته الجليلة للبلدة وهمته العالية ومروءته... وتعالت الأصوات تطالب الثلاثة بدفع الرهان.... أخرج أبو مريد من جيب سترته رزمة من العملة الورقية فئة الخمسين، استدار عن عيون الخلق كي لا يروا ما عنده من مال درءاً لعيونهم الحاسدة.... فاجأه دواس وانتشل ورقة واحدة من يده المرتجفة وقال: خمسين ليرة سورية تسوى لحية البزركم.. هساع وصلني حقي. أبو مريد حاسب ربعك. سلام) استدار ورفس الجثة وتفّ على الأرض ثم خرج من الجمع مرفوع الهامة لا يرى أمامه مثل بعير تائه.

أنهى جلال حكاية الكهف وكنا قد تجاوزناه. كان مسدوداً باللّبن والوحل. فقد قامت الأهالي بذلك، بعد الذي حصل في ذاك اليوم الشهير.. يوم دواس الليل..

- 8 -

أشعلت لفافتين، أعطيت واحدة لسيد. وغرزت واحدة في زاوية فمي، متلبساً حالة دواس حال خروجه من الكهف.. شعرت بحكّة في باطن كفي اليمين، في هذه الحال وحسب العرف السائد لابد أنني أنتظر مبلغاً من المال يُذهِب الحكة، أو أن رغبة أخرى ألمت بيدي، لا بد من تنفيذها.. ليت عبدو هنا لصفعته على ناصيته علَّ الحكة تزول.. تناولت قلم الفحم عن الطاولة، ولسعت ذهني فكرة جميلة..

أخذت أتأمل وجه سيد.. لحظات وبدأت أرسم وجهه على الجدار الملاصق لسريره، أنقل بصري بين الرسم وبين وجهه الذي غلفته الدهشة والفرح وتحول إلى وجه طفل أذهلته لعبة جميلة في واجهة محل للألعاب. تحرّك وتنقّل من مكانه أكثر من مرة، حتى استقر في زاوية يرى فيها صورته بشكل أفضل ويرقب منها تعبير وجهي أثناء الرسم. كنت أعتمد على إبهامي وأطراف أصابعي في المسح والتظليل والتأكيد على المناطق القاتمة في الوجه والعمامة واللمعة التي تُظهر نتوءَ الوجنتين إضافة إلى بريق عينيه الذي اعتمدتُ في إظهاره على ترك مساحة صغيرة بيضاء من لون الجدار وسط العينين فغدتا كزيتونتين تلتمعان في ضوء النهار.. مرَّ وقت ليس بالطويل كانت ملامحه قد توضحت على الجدار. وقد رضيتُ عن الرسم كل الرضا..... كان الشبه كبيراً. كتبتُ تحته بقلم شنيار أسود " فلوماستر ":

اليوم الأول لسيد عثمان الغانم في غرفة حمزة الحمداني. الجمعة / 24 /10 / 1986... فاضت عيناه بسحائبَ من الامتنان والشكر غطت لونَ الزيتون فيهما.

ضحك سيد حتى كاد يستلقي من الفرح، كان يخفي تحت

ضحكاته المجلجلة جمرات كاوية ومؤلمة. نفرت دمعتا فرح من شواطئ عينيه، نظرني بحنان الأب.. احتبسَ نشيجاً كاد يفلت من قلبه المتعب، تهدَّج صوته قائلاً:

- وهل أنا جميل بهذا الشكل؟ لم أرَ في حياتي رسماً لي على دفتر الـ..فنانين.

أراد أن يقول المجانين لكنه احترم جهدي وخشي ردة فعلي لكن الفكرة وصلتني بكل الحب الذي أراده.

- شكراً.... اعتبرها هدية من مجنون التقيت به ذات حوث ..

- عفواً ما قصدت، لقد تعودنا منذ الصغر أن الحائط دفتر المجانين. لكنه نِعمَ الحائط يا صاح. على كلٍّ، أشكرك من كل قلبي على هذا الحب الذي رسمتني به. انتظر لحظة، سأحتفظ به للذكرى..

أسكرني الفرح الذي طفح به وجه سيد. رفرَفت كل الأطيار جذلى في حنايا الصدر، أخرج من حقيبته السوداء آلة تصوير والتقط لرسمهِ صورة. ثم طلب مني أن أقف بجوارها. وثبّتها على الطاولة وعيَّرها على الضاغط الآلي ثم أسرع يقف معي في الجانب الآخر للرسم. ثوان وقدح ضوء الكاميرا معلناً أن ريحاً عاتية رمت أثقالها في آخر ركن جنوب الوطن العربي في غرفة بأقصى الشمال اليماني. كانت الصورة الوحيدة التي تجمعني بسيد، نسخَ عنها في اليوم الثاني صورة أرسلها لأهله مع رسالة مطوَّلة. أعاد آلة التصوير إلى الحقيبة. وقف في منتصف الغرفة رافعاً ذراعيه إلى أعلى، مباعداً مابين قدميه. خلته سيرفع السقف، أو يتهيأ لرقصة سودانية كالتي يرقصها زوربا اليوناني..

لا أدري لحظتئذ لماذا خطر في بالي حصان طروادة. كان سيد عملاقاً بكل ما تعنيه الكلمة، اتخذ وضعية الدعاء. جاءني صوته بعيداً قادماً من أعلى قمةٍ في الأولمب، وما زال يحمل في صوته عبق الغابات وهيبة الأشجار الكبيرة :

- يا رب السماوات والأرض باركْ لنا في دارنا هذه، وأبْعد الأشرار

عناو...

ضاع صوته في سحابة من الضباب غطت عينيَّ، زاغ بصري بعيداً عن حوث، بعيداً جداً نحو الشمال، هناك.... شمال شرق المتوسط في أرض اليونان حيث طروادة تفتحُ ذراعيها لفخٍ نصبته لها الآلهة أثينا، تستقبل حصان الخديعة. تخيَّلتني أجلسُ مع باقي الفرسان في ركنٍ بقلب الحصان الخشبي.. أرقبُ البطل أخيلَ وبجواره يقف أوليس يرفع ذراعيه شاكراً الآلهة أثينا بعد دخولهم طروادة آمنين عند الفجر. والطرواديون سكارى بالنصر لا يدرون ما ينتظرهم من هلاك..

لم يكن أوليس أمرد أبيض البشرة مشوباً بالخمرة المقدسة، بل كان أسمر غامقاً معمَّداً بالنار والعنبر كسيّد. وما كان يحملُ سيفاً أو درعاً ولا كان يلبس خوذة، بل يرتدي ثوباً وعمامة ولحية بيضاء خفيفة كلحية سيد، ماكان أوديسيوس بالأصل. كان سيد.

صحوتُ من غفوتي على يد سيد تهزني:

- حمزة.. اصح، ما لك!.. أين كنتْ؟

- في الحصان كنت... ورمشت عيني لأصحو.. ضحك من كل قلبه، وكدتُ أبكي من كل قلبي.

حمل إبريق الشاي ليغسله ويملأه ماءً وقال:

- هيا نحتفل بيومَيَ الأول في طروادة!! لا لم يقل طروادة قال: يومَيَ الأول في حوث...

ما الذي يجري؟. هل تماهت الأسماء وتداخلت في ذهني الأمكنة. نفضتُ رأسي وكأني أنفض أرواحاً شريرة علقت به. سيد ما زال يحدق فيّ ذاهلاً لشرودي. حطَّ يده اليمنى على كتفي وبحنوٍّ الأب سألني: - أراك تشرد كثيراً يا حمزة ؟

- فقط، منذ مجيء أحدهم.

- هكذا إذاً.. خذ.

ورفع الإبريق ليدلق ماتبقى فيه من شاي فوق رأسي. هربت واحتميت منه وراءَ ظهره... ضحكنا. أمسك بيدي وقال:

- هيا اخرج عليك الأمان. ولا تعد لمثلها.

رفعتُ سبابتي إلى فمي ثم جبيني ثلاث مرات إعلاناً بالتوبة.

تساءلتُ وأنا أختبئ وراء ظهرهِ الأبويِّ العريض هل يتعامل هكذا دائماً مع أصدقائه أم هي الثلاثة والعشرون التي تفصلني عنه؟. أياً كان الأمر فأنا أحسست أنني غدوت كلَّ أصدقائه وغدا هو من أعز أصدقائي في غربتي. تابع سيره متجهاً إلى المغسلة وبيده الإبريق.. رفعت صوتي وسألته قبل أن يتجاوز باب الغرفة: أستاذ سيد هل كان " أخيل " مع الآخرين داخل الحصان؟.

تسمَّر في مكانه، أظنه سمع السؤال بشكل جيد. استدار ورشقني ببياض عينيه من فوق نظارته.. رآني جاداً أنتظر الجواب. قال بذهول:

- لا لم يكن أخيل معهم، بل كان أوليس.

- كنت أعلم ذلك، فأخيل مات أثناء الحصار، أصابه بكعب قدمه سهم الأمير الطروادي " باريس " زوج هيلين التي اختطفها من تحت زوجها ملك اسبارطة مما سبب حرب طروادة الشهيرة..

نظرتُ إلى كعب سيّد أتفحصه وقد استدار يائساً من سلامة عقلي. جاءني صوته من المطبخ:

- ما دمتَ تعرف، فلم تسأل؟

- لأتأكد إن كنت معهم أم لا.

عاد مسرعاً والإبريق بيده ممتلئ بالماء، رفعه فوق رأسي وسأل جاداً:

- من كان في الحصان الخشبي؟

رفعتُ كفي أتقي الماء الذي بدأ يتصبب من فوهة الإبريق.

- لا أحد.. لا أحد.

- كيف لا أحد؟ من كان في الحصان يا حمزة؟..

أمال الإبريق أكثر.. خشيت أن يدلق الإبريق فوقي. عملاق ويعملها..

قلت وقد امتلأ كفي بالماء:

- أقصد لم تكن أنت معهم...

كز على أسنانه قائلاً ومازال الإبريق مسلطاً فوق رأسي:

- من كان إذن؟

- أوديسيوس.و . وآخرون..

- وأنا! أين كنت؟؟

- كنتَ تعمل لهم الشاي... وانفجرت بضحكة مجلجلة، هربتُ خلالها خارج الغرفة..

وفي الصالة لمحت ممدوح والنبطي يدخلان حرم السكن. وقفت أنتظرهما في البهو، وخلال ذلك مرّ أبو سريع الصعيدي وبيده صحن حلويات، أرغمني على تناول واحدة منها، فهي من صنع يده ولا بد من تذوقها، أبو سريع يلعب مصارعة وحديد، زعق بوجهي مهدداً:

- بص حمداني.. لو ماكلتهاش مش حيحصلك طيب. خُد كل.. ياراجل دحنا خوات..

دسَّ اللقمة في فمي غصباً عني لحظة وصول أبي طلال والنبطي إلي، غرقا في الضحك، هما يعلمان أن لا حول لي ولا قوة على رد أبي سريع الصعيدي لاعب الحديد المحترف فأنا مرغم على أكلها، طلبت منهما أن يأتيا لأعرفهما بالمدرس الجديد الأستاذ سيد، سأل محمد:

- هل وصل؟ رأيت عفشاً بجانب الخزان قبل صلاة العصر. هل هو له؟

- نعم له، تعالوا .

دخلت الغرفة. كان سيد قد لقَّم الشاي وجلس إلى الطاولة يقرأ كتاباً من مكتبته.. أملتُ رأسي في محاولة لمعرفة اسم الكتاب، سألته

بعينيَّ عن اسم المؤلف، لأن فمي ما زال مشغولاً بلقمةِ الزقوم التي أطعَمَنيها أبو سريع. رفعَ الكتاب ليريني الغلاف ويريح نفسه من فضولي في تكرار الأسئلة. كان ديوان شعر بعنوان " كوخ الأشواق " للشاعر السوداني الهادي آدم.. أشرت بأصابعي: من يكون ؟

أطبق الكتاب وقال:

- أستاذ في المعهد العلمي بأم درمان، صديق حميم لوالدي وصاحب قصيدة أغداً ألقاك التي غنتها أم كلثوم. أنظر... وأراني القصيدة في الديوان.

- هذه معلومة جديدة.

- بالنسبة لك...

ثم انتبه لوجود شخصين بالباب. كنت قد نسيت وجود ممدوح والنبطي يقفان بالباب فلقمة الحلو دوّختني. قدمتهما لسيد:

- أقدم لك صديقين شاعرين: ممدوح السعيد مدرس فلسفة. ومحمد النبطي مدرِّس الفقه الإسلامي.. الأستاذ سيد عثمان الغانم مدرس الإنجليزية الجديد.. استريحا..

كانا متفاجئين بسماره الغامق وبياض عينيه وضخامته. كما تفاجأ زياد بذلك.. تصافحوا. ثم جلسوا..

قدمت لهم الشاي. ثم أعددت وجبة خفيفة، أخرجتُ بعدها ما في الثلاجة من فواكه.. تَشاركنا جميعاً لقمة هنية تقاسمنا فيها خبز الغربة وملح الذكريات. سأل سيد ممدوحاً عن الشعر الذي ينظمه:

- أظنك تكتب الشعر النبطي؟...

- يعني. أحياناً. أنا أسميه الشعر المحكي. فهو خليط بين الفراتية والبدوية ولا أحفظ كثيراً من شعري قلت: هو يحفظ لشعراء آخرين أكثر مما يحفظ لنفسه..

سأله سيد أن يسمعه شيئاً مما يحفظ؟ تنحنح ممدوح وسألني: ألم

تقرأ له من دفترك النبطي؟

- بلى، لكنه يسألك أنت.. نظر أبو طلال حيث يجلس محمد، يستمد منه الدعم المعنوي. ابتسم محمد وشجعه بعينيه. نوّه ممدوح أن ما سيقوله هو للشاعر الرقي سليمان المانع. ثم بدأ يقصد:

يمـــه دخـــيلك لا وصـــل عـــني اخـــبار

حـــذراك تـــذرف دمعـــتك لانكـــساري

كانّـــي ولـــدك؟! ومـــن طـــويلين الأعمـــار

معـاهـــــدك بـــــالله لأرد اعتـــــباري

قال سيد: جميل هذا الوصف، يذكرني بوعدي لأمي.. ولكن هل كان مطارَداً من أحد؟ أراه يبحث عن رد الاعتبار..

- لا أبداً. ولكن للطراد أشكالاً كثيرة في نفس الشاعر، قد يأخذ بعضها شكل الهجرة واللجوء الإرادي. وبالتالي لا بد من رد الاعتبار..معنوياً..على الأقل.. قال ذلك ممدوح..

- أظنك تعرفه جيداً؟

- صديق شخصي منذ أيام الطفولة نعيش في حارة واحدة.. حارة البدو..

- وماذا يسمعنا الأستاذ محمد؟ يسمونك النبطي؟ هل لذلك علاقة بالشعر أم بالأصول؟

- أنا لا أنظم الشعر بل أحلله وأنقده. ويقال أني أنبط القصيدة نبطاً، من هنا جاء الاسم..

- تنبطها نبطاً؟!...

ردَّ محمد مازحاً:..

- نعم.. أي أقتلع خوافيها ومعانيها اقتلاعاً.. وأنبطها على الورق..

- ما شاء الله.. الله يجعلك خير النابطين في هذا الوطن..

ثم التفت سيد إلي وتابع:

- أغبطك يا حمزة على أصدقائك الجميلين، كنت أفتقد هذا الجو الحميم في صعده..

لم يعلق النبطي أو ممدوح على كلام سيد، بل رغبا في تركه يرتاح وخرجا إلى غرفتهما..

***

-9-

- دعنا نعود إلى ذكرياتك، سألتك عن مدينتك فحدثتني عن مريبط وطفولتك فيها؟

- تصدق بالله؟ ...

- لا إله إلا الله..

- أن ما أختزنه في ذاكرتي عن مريبط هو أكثر بكثير مما أختزنه عن باقي حياتي كلها.. يبدو أن الطفولة هي الحامل الحقيقي لسلة الذكريات طوال العمر.. فما أن تلقي حجراً في مياه الذاكرة الراكدة حتى تطفو الطفولة من القاع إلى السطح تطغى على ما سواها.. عشت في مريبط أجمل أيام الطفولة وأقساها. كان والدي وقتئذ، بحكم مركزه الوظيفي واشتغاله في السياسة. يُعتبر من أعيان البلدة. فذات ليل موشّى بالدم ورائحة الغدر والخيانة، اعتُقل والدي. كان ذلك بعد الانفصال في أوائل الستينات.. كنت في عامي الثامن. ما زلت أذكر ذلك وكأن ما جرى يجري أمامي للتو.. كان والدي يجلس إلى مكتبه يقرأ كعادته في غرفته المطلة تماماً على الفرات حين داهم رجال المباحث بيتنا. اقتحموا المكان ودخلوا غرفة والدي، قيدوا يديه إلى الخلف، منعوه من الكلام ثم اقتادوه إلى سيارة لاندروفر رصاصية اللون تقف بالباب. كانوا أربعة، أبقوا أحدهم مع أبي في السيارة وعاد الثلاثة يمزقون الأثاث ويحطمون كل ما يقع تحت أيديهم من أغراض بحجة أنهم يبحثون عن سلاح ومنشورات. لمح أحدهم والدتي تحاول إخفاء شيء بين المفارش أو تحاول إخراجه، ما عدت أذكر. دفعها النذل بكوعه فأوقعها أرضاً، لكنها سرعان ما قامت، ضربته بجمع يدها وصرخت في وجهه.

لم يكترث لصراخها بل انتبه لما تحمله في يدها، خبأته بسرعة

وراء ظهرها. حاول أن يرهبها، فقد أخرج من جيبه موس كباس كالذي يستخدمه المجرمون وأولاد الشوارع، ونبح في وجهها: (اخرسي، وأعطني ما بيدك، وإلا قطعت لسانك ورميته للكلاب.) كنت أقف وراءها، رأيتها تحمل ماسورة صغيرة، أخرجتها من خزانة الثياب وحاولتْ إخفاءها بين اللحف حين رأتهم يقتربون. لكن المخبر فاجأها فأبقتها في يدها. دخل الثاني ويبدو أنه أعلى رتبة من الأول الذي حيّاه وتواطأ معه بالنظرات أفهمه أنها تخفي شيئاً بيدها وعلى الفور أخرج المخبر الثاني مسدسه ووجّهه إلى رأسها وصرخ في وقاحة: (هاتِ ما بيدك و إلا أفرغت المشط براسك). ما كنت أعلم وقتها أنه غير قادر على تنفيذ تهديده، وأن هكذا مهمات لا يتعدى فيها الأمر الإرهاب والتخويف وقد يصل إلى الضرب.. أما القتل والتعذيب فهما مهمة أناس آخرين في مضافاتهم وأقبيتهم الخاصة.. لقّم مسدسه جاداً ثم اقترب منها أكثر محاولاً إمساك يدها ليخلصها مما تحمله بها. لكن ثمة حركة أرادت أمي أن تدفعه بها وتدافع عن نفسها، لكنه تصدى لها بكوعه وهوى بعقب مسدسه على جبينها فسقطت مغشياً عليها، وانتشل من يدها الماسورة الصغيرة. عرفت فيما بعد أنها كاتم للصوت.

بقدمي الصغيرة ركلت المخبر على ساقه فلطمني بقفا يده على وجهي، صرخ الأول: (عظيم، لقد حصلنا على اثبات مهم، هذا الكاتم أكبر دليل على وجود أسلحة في البيت) وهمّ بالخروج. لكن الثاني كان أكثر خبثاً: (يا فهيم! سرج دون حصان.)

- (لم أفهم.)

- (ولن تفهم... كاتم بدون مسدس! كيف صارت؟ ابحث عن المسدس بسرعة، تلاقيه بين اللحف.) وبلمح البصر كانت النضيدة منثورة على أرض الغرفة فسكين المخبر الأول كانت تجز جلودها وتبقر بطونها كخراف ذبيحة افترستها قطعان ذئاب.

بحث عن المسدس حتى وجده في اللحظة التي يأس فيها من وجوده في اللحاف الأخير. انطلق إلى سيده يزف له البشرى بلقاه. خرجا

مسرعين، بينما كان الثالث خارجاً لتوه من غرفة المكتب يحمل أوراقاً تخص والدي. أظنها رسائل ومنشورات.

اللطمة شقت شفتي العليا وكسرت لي سناً. كان اللهب يتأجج في صدري. وأنا أرى أمي تنهض متألمة وقد آذاها الكلب في جبينها. كانت تنزف وعيناها تدمع. كنت صغيراً أمام الألم العظيم الذي ألحقه أولئك السفلة بعائلتي، خرجوا يتضاحكون كأنهم أعادوا للوطن أرضاً سلبها العدو. لقد فوجئت بالمعاملة السيئة التي عامل بها الأوغاد والديَّ!

كنت أعتقد لصغر سني أن والدي من المكانة بحيث لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء، لكني أدركت خطأ اعتقادي. فلا كبير عندهم إلا البعير. وتمر الأيام والشهور ثقيلة سوداء ووالدي في المعتقل. إلى أن فاجأنا ذات فجر، وبغفلة من الزمن...

طرقات الباب المألوفة أفزعتنا أول الأمر. لكنها كانت دقتان ثم ثلاث دقات متوالية، هي دقات أبي، انتفضت أمي واقفة وكان قلبها دليلها: (هاي دقة أبوكم).. كانت تعرف إيقاعَ يده على الباب. بل كانت تعرف إيقاع نَفَسه ومشيته ونسيم عطره قبل أن يصل الباب فتعرف أنه قادم. قال لها جدي وكان يقيم عندنا منذ اعتقال والدي: (هل تحلمين يا ابنتي. أبوهم راح، سافر.. ما عاد يرجع.. اللي يروح عندهم ما يرجع منهم) ...

- (لا يا عمي. أبوهم طيب. هاي الدقة ما يدقها أحّد غيره). قالت ذلك أمي وركضت اتجاه الباب، فتحته بكلتا يديها على مصراعيه، و.. شهقت غير مصدقة، أغمي عليها، تمايلت وكادت تقع. إلا أنها تماسكت واستندت إلى الجدار وبقيت واقفة. لا تريد أن تحرم نفسها متعة المفاجأة.. تراجعت للخلف. دخل والدي علينا.. نسر محطم الجناحين هزمته الأمطار والرياح. لم نصدق بادئ الأمر، ظللنا صامتين. خشينا أن تبدد الكلمات فرحتنا وتحوِّل كل ذلك إلى سراب. لكن أمي ما استطاعت كبح جامح شوقها. نفرت الدموع من عينيها واحتضنته وسط دموعها، بل دموعنا كلنا، احتضناه بشدة وشوق، جدي وأمي وأخوتي

وأنا. بعد لحظات من الذهول والفرح ظلت والدتي تجيل نظرها في جغرافية وجهه تتهجاه بأصابعها غير مصدقة أنه عاد وأنها رأته ثانية. فما نعرفه آنذاك. أن الموتى لا يعودون.

من كان يصدِّق؟ أفرجوا عنه! كان ذلك بالنسبة لنا ضرباً من المحال. لا بد أن خطأ ما قد حصل في حساباتهم، كانت الأخبار تتنقل شفاهاً عند مطلع كل فجر، تنبئنا أنه أُعدم وتمت تصفيته مع رفاقه... انتبه والدي إلى حجم الفزع الذي يغطي وجوهنا برجوعه المفاجئ. اعتذر عن مجيئه عند الفجر، كان يعلم أنه وقت خُصص للغدر. وقت تقف فيه دقات القلب عند كل دقة باب. وتذوب فيه نثارات الروح عند كل ضربة كابح. وقت اتفقت عليه الدول العظمى أن تنصب فيه المشانق للأبطال والقادة؟

تجمّعتُ في حضن أبي دون أن أنبس بكلمة واحدة، أستمع إلى غصات قلبه المكتومة. وأسرّح بأصابعي الصغيرة خصلات شعره الرمادي الكثيف. سألني إن كنت قد بكيت في غيابه؟ قلت: (لا، الرجال لا يبكون، ألم تقل لي ذلك؟) ثم احتضنته وبكيت. بكينا جميعاً.. ثم ضحكنا.

وذات عشاء. بعد يومين أو ثلاثة كان يحدّث أمي عن أيامه في المعتقل، وعن زنزانته ذات الرقم /11/. وعن طقوس التعذيب التي كان يعانيها. كنت أنصت إليه يخبرها ما معناه: (أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان). كنت صغيراً لا أفهم ما يعني كلامه الكبير. أما ما كنت أفهمه من كلام أمي هو أن الحب أيضاً لا يمكن أن يحيا دون خبز. طلبَتْ منه أن يتفرغ لنا ولعمله ويترك السياسة، فما وراءها إلا التعب وضياع العمر هباء في هباء. كمن ينثر الحنطة في أرض سبخة.

هاهو أبي بعد عشرين عاماً من النضال الوهمي والركض المضني يدرك متأخراً أنه كان يركض وراء سراب. بعد أن اعتقل مرات عديدة واكتشف خيانات بعض أصدقائه وتعاملهم مع السلطة كمرشدين ومخبرين. أدركتُ كم أخفى عنها من الحقائق حين حدثها عن زنزانته

ذاك اليوم. فقد نثرها كاملة في مجموعة قصصية.

ذلك الحدث ترك جرحاً عميقاً في روحي دام أعواماً، وربما إلى اليوم.)

كان سيد بادي التأثر بما سمع مني ولم يعلق عليه.

تركني أسترسل بذكرياتي المغمورة عن مريبط قلت: (وإن كنت أنسى من أيام الطفولة، فلا أنسى ذلك اليوم الذي كان فيه أخي مروان ابن السنوات الخمس يقف على حافة الجرف يحمل بيده وردة حمراء، سقطت منه في النهر فحاول التقاطها، لكنه سقط وراءها، ابتلعه الفرات الغاضب بغمضة عين. استنفر الأولاد حينئذ وعلا صراخهم، واستنجدوا من في الجوار للنجدة، كان مروان يطفو ثم يغيب عن أعيننا، كنا صغاراً رئيف وأنا وعلي الحنفيش وأكبرنا جلال كان في العاشرة، نركض بمحاذاة الشاطئ، نمدُّ أيدينا الصغيرة نحاول التقاطه، لكن أذرع النهر شرسة لا ترحم، كانت تشده إلى معدتها ثم تلفظه.

أصابني الهلع وأخذت أبكي.. فقد جرفته الأمواج بعيداً عن الشاطئ. كدنا نصل إلى المعبر الثاني للنهر حين قيض الله لنا شاباً أكبر من جلال، من بيت المفتاح أظن اسمه خلف. ألقى بنفسه في النهر كنورس خرافي التقطه وضمه تحت جناحه وأنقذه، أخرجه إلى الشاطئ، ثم مدده وأخرج ما بجوفه من ماء حتى استعاد وعيه. حسبناه أول الأمر ميتاً، كان جثة هامدة، لكنه أخذ يحرك قدميه. في هذه الأثناء جاء كل من كان على الشاطئ أو كان يسبح ليشهد إنقاذ مروان.. أبو وردة . هكذا غدا اسمه بعد تلك الحادثة.. لإنه ما إن صحا من " موته غير المعلن " حتى رفع الوردة الحمراء التي ما زال ممسكاً بها قائلاً: شوفوا أحضرتها بنفسي. أنا بطل....

ضحكنا حتى استلقينا على ظهورنا.

وضحك سيد عثمان أيضاً.

***

- 10 -

حاولت أن أرسم لكن لا فائدة. كان باب الغرفة مواربا يكشف القسم الأكبر منها، حين مرّ عبدو وبطرف عينه السليمة مسح صورة بانورامية سريعة للغرفة ثم عاد ووقف بالباب. فضوله أقوى من أن يدعه يمر دون أن يعرف ما يحصل في غرفة الحمداني، وقد لاحظ تغييراً في توزيع أثاثها وسريراً إضافياً ورجلاً بقامةِ جَبل يتربع على كرسيي الأثير.. استعذت بالله من الشيطان. حين وقف بالباب تيقنت أن البلاء قادم. فهو يحلُّ حيثما يحلُّ هذا الرجل. وبطبيعة الحال هو يعرف، وكل من في السكن يعرف أن المدرس الجديد قد وصل. وما عاد ضيفاً فقد أصبح من أصحاب المكان.

عند دخوله الغرفة، جلب معه جواً غير مريح، إنه مزيج كريه من رائحة الإبط المتعرق ورائحة الثوم واللبن الحامض وسمك التونة، والعطر الرخيص الذي يباع في المقاهي والباصات والأرصفة، يدهن به طاقيته وأطراف لحيته.

دخلتْ أولاً لحيته الحمراء ثم كامل جثته التي تشبه شوالاً ضخماً يمتلئ بالألبسة المستعملة والأحذية القذرة، اتجه إلى حيث يقف الأستاذ سيد، هاشاً باشّاً مرحّباً بالمدرس الجديد:

- يا ألف مرحبا. نوَّرتنا والله. ياأهلاً، ياأهلاً ما درينا بقدومك لو درينا كنا عملنا الواجب وساعدناك في العفش .. ونظر إليَّ موحياً لسيد أنه يحمّلني مسؤولية عدم إخباره بقدومه

شعر انه انزلق في هوة الكذب، رفع طاقيته البضاء وحك ما تحتها من بلاط قائلاً:

- إحم، أنا الشيخ عبدالسميع أستاذ مادة القرآن والتفسير،

بإمكانك أن تناديني الشيخ عبدو كما يناديني الزملاء. حضرتك تدرِّس أي مادة؟

سحبَ الأستاذ سيِّد يدهُ بهدوء من بين يدي عبدو وقد لسعته ذبذبات الكذب والنفاق. تسربت بين أصابعه كدبيب النمل، نظر إليَّ بطرف عينه ولسان حاله يقول (يبدو أن صاحبنا كاذب ومراوغ مكشوف من الطراز الأول). صح لسانك يا أستاذ سيد. فالرجل لو تدري ما فعل في الاجتماع قبل مجيئك بيومين! كان أول الرافضين استقبالك وتشهد على ذلك عينه المغطاة بالشاش. اسأله عنها..

حدّثت نفسي بذلك مستغرباً الوقاحة التي يتحلى بها هذا الرجل! فهو مذ عرفته لا يتوانى عن مسح الإهانة بجنبه الأيمن ولف الشتيمة ووضعها في جيبه الأيسر وكأن شيئاً لم يكن. بالرغم من محاولاته الفاشلة في إثبات رجولته بالصراخ والشتائم ومشيخته بإطالة لحيته وسبحته. كان يعمل في الصيدلية الوحيدة في حوث منذ الخامسة مساء حتى منتصف الليل، عملاً إضافياً أمّنه له الأستاذ أحمد في بدايات مجيئه منذ خمس سنوات حين أخبره أنه يمتلك خبرة جيدة في أمور الصيدلة... ويقال أيضاً، وهذا على ذمة محمد النبطي مدرس الفقه والندّ الحقيقي لعبدو في إمامة المسجد أنه يبيع حبوباً منشطة تؤخذ مع القات، يأتي بها معه من مصر بداية كل عام دراسي مرفقاً إياها بوصفة طبية نظامية تحسباً للجمارك في المطار. فهي تشبه حبوب النعناع البيضاء لكنها أصغر منها. ممنوع بيعها هنا دون وصفة طبية، يبيعها عبدو على أنها برشام مهدّئ لآلام الرأس، فيما هي تثقّل مفعول القات، وتجعله أقرب للحشيش. وحين فُضح أمره.. أخرج نفسه من هذه الورطة بقدرة قادر. ثم انتظر بعدها فترة طويلة.. نسي الناس فيها فضيحته.. حتى بدّل الحبوب - وهو الخبير بأمور الدواء والصيدلة - إلى أُبر، وجعل مفعولها أشد وأقوى لقاء مائة ريال عن كل حقنة يحقنها لرجل ضعيف الإنجاب أو مصاب بالعنّة والارتخاء مدعياً له أنها تزيد الحيوانات المنوية وتقوّي الإخصاب. أو يبيعها لضعيفي النفوس من

الشباب. الراغبين عن الحياة ومباهجها فمالوا إلى الضياع والتسكع. أو ممن أرهقهم السيلان من تعاطي القات.

وحين اكتشفوا أمره، طالب بعض وجهاء حوث إنهاء عقده وترحيله فوراً. لكن الأستاذ أحمد الحوثي حال دون ذلك رحمة بأولاده السبعة وامرأته المريضة التي جاء بها مع أولادهما ذات يوم متذللاً إلى بيت الأستاذ أحمد، ووقف بالباب ذليلاً تاركاً زوجه تطلب من الحوثي أن يعيده إلى عمله. وكان قد أصدر أمراً بإنهاء عقده وترحيله... تدخلت زوجة الحوثي أيضاً بإلحاح من امرأة عبدو التي ارتمت عند قدميها متذللة تطلب منها التدخل لإعادة زوجها، وما كان الحوثي ليسمح لزوجه بالتدخل بأموره رغم أنها معلمة في ابتدائية نشوان، ولكنها حين رأت المرأة تبكي وتتذلل أمامها ومعها زوجها يقف بالباب مطأطئ الرأس ذليلاً، في وضع لا يسر صديقاً، رضيت أن تتلقى غضب زوجها لقاء أن يعيد عبدو لعمله كرمى لعائلته. وافق الحوثي على مضض شريطة أن يتعهد عبدو خطياً في المخفر أمام ضابط أمن حوث ألاّ يعود لسابق عهده في بيع الحبوب وزرق الإبر الممنوعة... وأمّن له ولعائلته وقتئذ سكناً مجانياً لعام دراسي كامل. ورغم ذلك فعل ما فعل في الاجتماع دون خجل وعض اليد التي ساعدته.

وما مجيئه اليوم إلا ليتملق الأستاذ سيد حين شعر أنه يحتاجه في ترجمة الوصفات والأدوية الأجنبية التي يبيعها سرّاً في الصيدلية. لملم الأستاذ سيد شفتيه الغليظتين وغيّر لهجته قائلاً:

- يا ستمية مرحبا، ربنا يخليك يا شيخ عبدو. تشرفنا بمعرفةْ حضرتك. حضرتي سيد عثمان الغانم مدرِّس التربية الإنجليزية.

فوجئتُ بلهجة سيد الساخرة والمقلّدة للهجة عبدو، فقد تكشَّف لي جانب جديد من شخصيته.لم ينتبه الشيخ عبدو للسخرية المبطنة في لهجة سيد، لكنه ردَّ منذهلاً:

- وهل أصبح اسمها التربية الإنجليزية؟

ركّز عبدو على كلمة التربية ومطها في كلامه محتجاً على اقترانها بالإنجليزية.

ردّ سيِّد ساخراً وهو يخبّئُ ضحكة خلف أسنانه:

- أمَّال، أضافوها بقرار وزاري. مَشفتوش؟

- لأ مَشفتوش! حشوفه فين؟ وبعدين مين اللّي طلّع القرار ده ؟

رد الشيخ عبدو بصدق أبله.

قال سيد وقد تورط في شِباك عبدو:

- من يكون يعني؟ الوزير طبعاً. الوزير هو من أصدر القرار...

انتفض عبدو معترضاً:

- وزير مين يا أستاذ سيد! وزير إيه! ده أكيد مكنش صاحي! إمتى كان الإنجليز عندهم تربية، قال تربية انجليزية قال. دُوْل ناس مش متربيين أصلاً. ناس كَفَرَة. صليبيين. تلاقيك واخد الشهادة بتاعتك منهم، صح؟ يبدو أن عبدو نسي نفسه. فقد أخذته الحالة والحمية الدينية المزيفة التي تتلبسه في المجالس.

أحسَّ سيّد أن الرجل قد تاهَ منه، سكت ولزمَ على فمه لثام الصمت.

في هذه الأثناء دخل زياد وكأن في دخوله عزفت موسيقا أوبرالية عنيفة مفاجئة في مكان من الغرفة تنبئ عن وقوع كارثة. وعيناه ما نزلتا عن عين عبدو السليمة وكأنه يصوّب عليها.

تدارك عبدو ذلك بسرعة فوضع يده على عينه درءاً لعين زياد وتحسباً لأي هجوم طارئ. حركات زياد حين بدأ يتعوذ من هذه الشوفة الرهيبة كانت توحي بأنه رأى عفريتاً أو منكراً.

هكذا هما منذ أن التقيا أول مرة في الصيدلية وتعاركا عراكاً شهدته نصف حوث، كان ذلك وقت البازار حيث يكثر الناس والباعة، اجتمع عليهما خلق كثير تفرجوا على مدرسٍ جديد أشقر بشاربين معقوفين مرّغ أنف الأستاذ عبدو في الوحل وقلل من قيمته أمام

طلابه والأهالي .

وكان ذلك في اليوم الأول لزياد في حوث، وهكذا فهما في نقار وشجار دائم. وآخر ما حدث بينهما كان ما حصل في الاجتماع الأخير الخاص بقدوم سيد.

دمدم زياد وبدأ يتفُّ في عبِّه وحواليه. يقرأ ويبسمل. وكأنه رأى شيطاناً. فانبرى له عبدو صارخاً بأعلى صوته ، ملوحاً بيده اليمنى لأن الأخرى تغطي عينه، ولحيته تتراقص فوق صدره.:

- إيه مالك يا زياد يا ابن أبيه؟؟ شايفني عفريت يتنطط قدامك ولا إيه؟ مفيش حد مالي عينيك. إيه يا أستاذ حمزة! أنا في أوضتك! لِمِّ صاحبك. أحسنْ والله العظيم تلاتة. ألِمِّ عليكو السكن كله.

بهذه السرعة كشف الشيخ عبدو أوراقه النتنة أمام الأستاذ سيد الذي بدا مذهولاً لما يجري أمامه.. كان عبدو مرعوباً وصراخه صراخ جبان يستقوي بصوته لطرد شبح الخوف من تلافيف دماغه..

أجلستُ زياداً وأثقلت عليه بالكلام، أفهمته: (أن الرجل داس أرضنا ومن المعيب أن نبهدله فيها.)

لكن زياد زعق غاضباً:

- داسته سلمى.. لا تعمل حالك دبلوماسي قدام أستاذ سيد ، أنت أكثر واحد يكرهه. يا رجل بأي وجه جاء يقابل الأستاذ سيد وهو أول الرافضين لقدومه؟! شخص عديم الشرف والناموس.

حاولت تهدئة زياد طالباً منه التوقف عن الصراخ. ولكن قد أسمعتَ لو ناديت حيًّا.

هدّأتُ من جزع عبدو الذي أخذ يرتجف وأنا أكاد أضحك لمقالب زياد في هذا الرجل الذي يستحق ما يجري له. تدخَّل سيد خشية تفاقم الأمر. أزاح لثام الصمت قائلاً بتردد :

- تفضل شيخ عبدو.. استرح، الشاي جاهز، الأستاذ زياد ما يقصدش...

قال سيد ذلك رغبة منه في تهدئة الجو، لعله يتوصل إلى مصالحة بينهما. ولم يدر أنه بذلك فتح على نفسه طاقة ريحها قذرة. نظر عبدو إليَّ أولاً وقد غدا شكله مضحكاً بشعر لحيته المتيبس والمتناثر طولاً وعرضاً. ثم نظر إلى إبريق الشاي الفارغ، وانتبه إلى الغاز المطفأ. وأن الشاي غير جاهز وغير معد أصلاً، كما قال سيد. تمتم محدثاً نفسه متقصداً رفع صوته:

- هه؟ قال الشاي جاهز قال؟ جاهز فين؟.. في المشمش!

بطرف عينه المكشوفة زوَرَ الأستاذ سيد، وقد بدا سيد مُندّى بالإحباط من فشل خطته في الصلح. تابع عبدو سؤاله دون خجل: فين الشاي يا أستاذ سيد؟؟

بينما سيد يقطر خجلاً ناظراً إليّ منذهلاً من تورُّطه غير المباشر في دعوة عبدو للشاي، غمزتُ له ألاّ يُدقّق. كلها ثوانٍ وينتهي الموقف... قلت متجاوباً مع رغبة سيد في الصلح:

- لحظة ويكون الشاي جاهز.. حلّت البركة .

إلا أن عبدو قام هامَّاً في الخروج والتخلص من هذا المأزق قائلاً كمن به مس:

- مش عايز شاي؟؟ شكراً..... شكراً لسه شارب. .. أنا إيه اللي جابني هنا... فرصة سعيدة أستاذ سيد، سلّم لي عالوزير بتاعك والتربية بتوع أصحابك الإنجليز - نظر إليّ وبربر مُرقّصاً لحيته الحمراء أمام وجهي - انت واحد من ضحايا الراجل ده. وفتل رأسه تجاه زياد الذي زأر بوجهه فجأة فأرعبه. وعلى أثرها أصبح عبدو بالباب خارج الغرفة وقد تهيأ للهرب قائلاً:

- ربنا ينتقم منك ويهدّك يا شيخ. لأ. شيخ إيه؟ دَا نْتَ شيطان، وشيطان زفر كمان.

انقض عليه زياد مزمجراً: منو الزفر ياول...يا ابن الزفرة ؟.

لكن عبدو انفلت من يديه كفأر يفر أمام قط متوحش. لم يلحقه

زياد بل أخذ يركض في مكانه عند الباب مدربكاً بقدميه لاصدار صوت يخيف به عبدو الذي مازال يعتقد أن زياداً يركض وراءه، ثم صرخ به زياد:

- يواال جردون.. قسماً عظماً أشوفك مرة ثانية هُون تعتِّب هاي الغرفة، إلا أشقفك وأرميك للكلاب... لا يا حقير لا... توارى عبدو ورجع زياد إلى مكانه.

امتلأ البهو بالمدرسين الفضوليين، خرجوا من غرفهم بعد سماعهم زعيق زياد. تضايق سيد من الموقف برمّته موجهاً اللوم إلى زياد الذي دافع عن نفسه قائلاً:

- هذه الفصيلة القذرة من البشر تستحق الإبادة ولا تستحق العيش أصلاً. فهم كالحشرات والديدان أخذت تدب وتتكاثر في الآونة الأخيرة في الأرياف وبعض المدن. يتسولون على أكتاف الدين. والدين منهم براء. أقسم بأعناق....

نبهته وغمزته ألا يقسم قسمه اللعين. فليس من اللائق كشف الأوراق دفعة واحدة أمام الغرباء. فهذه الجلسة الأولى له مع الأستاذ سيد. انصاع لرغبتي وقلما يفعل ذلك ثم تابع مهدداً:

- ماشي، ستكون نهاية هذا الحقير على إيدي. هذا وعد، أتحاسب عليه يوم القيامة.

مرت دقائق ثقيلة. انزلق فيها آخر ضوء قادم من النافذة عن طرف السرير وأعطى انطباعاً بالعتمة. فقد تحدرت الشمس وراء الأفق ورافقها صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب.

نهض سيد ليتوضأ.... قال له زياد قبل أن يصعد إلى غرفته:

- مُزمْزمة أستاذ سيد، ادع لنا.. سلام..

وخرج بعد أن حذرني من ادخال عبدو النتن إلى الغرفة.

***

- 11 -

كنت أتصفح كتاباً عن تاريخ الرقة في العصور الغابرة وماكنت أصدق أن الرشيد بكل عظمته وجبروته كان يحكم مدينة تعج بالقوادين والعاهرات. ونساء يواربن باب العفة ليعشن رفاهية كاذبة، مرتبط بقاؤها بالقدْر الذي يملأن به سلال الأثرياء والأمراء من رُطب أجسادهن. محاطة بنسيج المؤامرات الذي يميزها لهذا اليوم.. قانونها الدائم أن كل شي له ثمن بما في ذلك الشرف..

مدينة تغص بفتيات جميلات مضى بهن قطار العمر ممتطيات صهوة الغرور يتهادى بهنَّ فوق فرات الرغبة والاكتواء، رافضات كلّ من تقدم إليهن، ليقعنَ آخر الأمر في فخ القسمة والنصيب في أحضان شيخ عجوز، يتنسَّمن فيه فحولةً أيبستها السنون وجراح القبيلة. فيمسين بعد حين أرامل مثقلات بالحزن. وليس مثل ليل المدينة الآسر يفض بكارة حزنهن، يحرّك شبق الرمال في أجسادهنّ المشدودة، ويحوّل صهيل الدم في أرحامهن إلى محض انتظار.

مدينة ما برحنا غرباء فيها بالرغم من احتراقاتنا واكتواء ذاكرتنا بنار صمتها وصهيل ثاراتها، ما برحنا غرباءَ بنظر القلة من أدعياء أهلها. كدت أقول السفهاء.. وتشهد على ذلك المجالس المنتخبة بأنواعها. فمن الذي يحق له أن يترشح غير الذي تزكيه السلطة المحلية وتحميه قوانين العشيرة؟ حتى لو كان إمّعة جاهلاً وأميّاً.. يكفيه أن وراءه رجالاً يسدون عين الشمس بهراواتهم وعباءاتهم.. والله أقول ذلك لا لعقوق في نفسي لهذه المدينة، ولا رغبة في منصب أو جاه.. ولكنه همسُ رمالٍ عطشى لصبَّار يخبِّئ الماء وراء أشواكه.

آزرني أناي قائلاً: (نعم، فأنا لا أنسى أنك نشأت وترعرعت في

حواريها، وشربت عذب فراتها، وتعللت بنسائم أمسياتها، وعايشت أغلب مثقفيها، ومنهم من نبتَ له جناحان وحلّق بعيداً خارج السرب فملأت شهرته الآفاق. ومنهم من غدا كاتباً مرتزقاً طال قلمه أقلام أقرانه وما تجاوز طوله طول القلم، يغرق في كأس من الخمر. أو فناناً مرموقاً ضاقت به البلاد فسرى تاركاً وراءه معاطف الأنين والترجي غير آسف إلى فضاء أرحب، تُرفع له القبعة فيه.. وآخرون اغتربوا في الخليج، ما عدتَّ تفرق بين رؤوسهم ورؤوس أموالهم.. يعلق بعضهم خيباته نياشين على "حاووز " النهر بعد أن لفظهم الفن والشعر فاستقبلتهم بيوت العهر وحانات الخمر يعلنون من منابرها أنهم المستهدفون والأوحدون. وفيها باحثون يجاهدون بكل إخلاص جهاد القابض على الجمر. ينفضون غبار السنين عن رجالات أجلاء في التاريخ. وتشكيليون أشكلت على بعضهم مسائل الفن فاسودَّت سحناتهم وهرّت لحاهم وامتلأت رؤوسهم حقداً وغيرة.)

هرب أناي وتركني وحيداً كتلميذ خائب أقلّب أوراقي السرية أمام هذا الأفريقي الطويل...

بحركة كسلى من يدي تناولت فنجان القهوة البارد أفرغته في جوفي دفعة واحدة ثم قلت لنفسي: (المدن كالنساء لا يمكن السيطرة على سلوكهن. يفرحن بالغريب، يفتحن له أبواب أسرارهن، فيقفَ مذعوراً أمام رغباتهن التي لا تنتهي، حتى يستنزفن آخر ما تبقى من رجولته وشبابه.. وماله..).

أطفأت وهج ذاكرتي عن مدينتي ولم أقل حرفاً لهذا السفان الذي أوغل أكثر مما يجب في مياهي الإقليمية. سحبت النفَس الأخير من لفافتي بعصبية، فقد وجدت أنه كان يتلصص على كل حرف قلته وعرّيته في ذاكرتي. وعلى كل نافذة مرت بخاطري، ولكل امرأة تعرت لحليلها.

جعلني هذا الغريب أوغل في شواطئ موحلة ما أردت لها أن تلوث

ذاكرتي يوماً ما. أشعرني بالعار وكأنه قد دخل إلى مخادع نساء المدينة كلها. سألني وقد أحس النار في عيني تتقد:

- لماذا تتحدث عن مدينتك بهذا الألم!

- حين لا نرمي وجوهنا إلا على مقصلة النهر ودور العهر فلا نملك إلا أن نتحدث بهذا الألم. على كل حال هذا ما طفا على سطح الذاكرة.

ابتسمَ ابتسامة ماكرة أشعرني بها أنه يعرف شيئاً عن المدن لا أعرفه. أو أنه يعرف مالا أعرف عن مدينتي ولم أذكره بعد؟ حقّهُ أن يفعل ذلك ولا أُكثِره عليه فهو الذي سافر ورأى وعرف.

- هل تعرف شيئاً عن مدينتي لا أعرفه؟!

- هل نسيت أني عملت في حقل الترجمة والأدب! ألم تتجاهل رائداً من رواد القصة العربية في مدينتك ؟

بماذا أجيبه؟ فهل حين لا أذكر جبل عبد العزيز أو لا أذكر الفرات هل يعني هذا أنهما غير موجودين؟ أو أني أتجاهلهما! ماذا أقول؟ قال أناي: (لا تحتج، الرَّجل سيشاطرك الغرفة!)

- (الغرفة.. وليس حياتي وأفكاري؟)...

- (مالك لا تعي؟ الرجل ينبّه ذاكرتك إلى العجيلي فحسب!)

- (وهل تناسيته حتى ينبه ذاكرتي إليه؟ ثم لم أنهِ حديثي بعد.)

- (حمزة.. الرجل سيفرد لك ذاكرته كما فعلت أنت. شدّ قامتك وصادق هذا الرجل. فالصديق في الغربة كما الصُّحبة في زنزانة. كما النديم إلى طاولة الشراب. سترى. فما سألك إلا لأنه يمتلئ حكايات أثقلته ويرغب رميها بين يديك. هو سعيد لثقتك به. فأنت لم تحدِّث أحداً بذلك من قبل. هيا..)

- (حسناً.. سأنثر ذاكرتي طحيناً وملحاً وماء، أعجنها أرغفة وأنشرها على صاج الغربة، أستبيح لهذا الغريب الياسمين والصفصاف

وشجر الغرَب. وكل النساء اللائي عرفتهن أو سمعت عنهن.)

- (يا حمداني، شرّع قلبك للفرح. وارفع قدميك عن جمر المحرقة.. أدري بك موجوعاً يا ابن أبي. ومذبوحاً من الوريد إلى الوريد.. اضبط روحك وخذ نفساً، وتخلص من غبنك وشواطئ ذاكرتك القذرة، وحدّثه عن قامات مدينتك، من زعامات واجهت الفرنسيين ورجالات دولة خلّدهم التاريخ المعاصر ومن فنانين وأدباء وباحثين وشعراء... فما عاد الغريب غريباً حين دفع الباب ودخل، أقدامه ليست من جمر. أخبره أنك تركت وراءك رجالاً يغتسلون كل صباح بفرات الفضيلة ويعتمرون في الظهيرة عمائمَ النزاهة. وفي المساء يقتاتون مع نسائهم خبز العفة والوفاء.

حدّثه عن نساء لهنَّ نكهة الموز واشتهاء البرتقال، متلفعات بقصائد البدو وابتهالات الظلام. اكتم عما تبقى من غصات الكبد وأعلن له مدينتك فاضلة ما مسها سوء ولا عوج. ثم اسأله رأيه؟ وأخبره عن غربتك فيها رغم أنّك ولدت وتجذرت فوق ترابها. شاركت أهلها أفراحهم وأحزانهم)

شددتُ قامتي وقررت ألا أبح بما تحت الجلد. لا لن أفعل ذلك بالتأكيد.. لن أفعل. ولا أدري إن كنت سأتحدث عن تلك الكائنات البشرية الريفية التي أخذت تنمو وتتكاثر على أطراف النهر منذ أن فاض وغدا غولاً يبتلع الأخضر واليابس، كائنات هاربة من قدرها إلى أقدار مرسومة على مقاس حظها العاثر أخذت تدبُّ في المدينة على أربع، تنبطح وتزحف، تقدم القاصي والداني من الدم، والنافر والغائر من الجسد كرمى لعيون المنصِب والوجاهة والتزلّف الكاذب.

حسناً يا سيد.. فمدينتي الآن فاتنة وفاضلة، نعم... فقد ولى عهد الغلمان والجواري والعباسة وربيعة الرقي وأبي نواس. فلا عاهرات ولا قوادين ولا مرتشين ولا سماسرة. ولا. ولا...

شعرت بخزي وأنا أفكر بذلك، فما ألمسه من صدأ يغلف مدينتي

هو صدئي أنا ، مخصوص وملزمٌ به وحدي! إذن فلأحافظ على ما تبقى من ياسمين القلب...

لا بدَّ من مسافة للصمت والتشظي بيني وبين هذا المارد.

أيقظني من شرودي تصفيق سيد مشجعاً بسخرية واضحة قائلاً:

- كنت أعلم أنك ستقول أن مدينتك فاتنة ورائعة. ولكن أن تدّعي أنها فاضلة بهذا الشكل؟ فهذا ما توقعته منك! أنت تخفي أمراً عظيماً يا ولد. يا للمدن المخاتلة ترش على عشاقها نهنهات من رذاذ الطمأنينة حيناً. وتغتالهم بسكاكين لصوص غالب الأحيان. هل مدينتك بهذا القدر من السوء حتى تغلفها بهذه المثالية الفاضحة؟

نبض صدغاي بعنف. تفصّد عرق من كلِّ مكان كملح الأرض ينزّ. كيف سمع ما كنت أهجس به وأنا لم أفه بكلمة. نبَّهني أناي المخادع: (لمَ كذبتَ عليه؟)

صرخت به: (ولكني لم أفتح فمي! كنت أحاورك أنت! كيف سمع حديثنا؟)

قال: (كنت تتحدث بصوت عال.)

- (ماذا؟ كيف حدث ذلك؟ هل سمع! ولكن. أنت السبب أنت من طلب مني أن أحدّثه وأناديه. أنت لستَ أناي..) جف حلقي، وتوحّل ماء الأجوبة. ما عادت تنفع الطَّاس لغرف ماء الوجه من قاع المركب. مسحت العرق عن جبيني....

عاود أناي السؤال: (لمَ كذبتَ عليه؟ انهض من وحلك وواجه الرجل.)

كثُرت الثقوب في قِربة خجلي. ولكن! لم كل هذا القلق والخوف؟ ليسمع! أين المشكلة؟ لستُ مسؤولاً عما يسمع. ولست مسؤولاً عما يفهم. ولست أنا من يحمل وزر مدينة بأسرها. فلا ضير أن تنحني سنابل القلب أمام الغرباء حين تكون ممتلئة ؟!

قلت لسيد بتحد وقد أزعجني تصفيقه وضحكه الساخر:

- لمَ السخرية؟ وهل أم درمان عروس للمدائن؟؟..

اهتز جسده الضخم من الضحك وقد أدرك أني أصبحت خارج المركب، أتعلق بوريد خالٍ من الدم ينوء بثقلي... يا إلهي؟ ألهذه الدرجة استطاع هذا الرجل تحييدي في أول حوار بيننا؟.. قلت مغتاظاً:

- هل في سؤالي ما يضحك؟

- عفواً، أنا آسف، ما أردت السخرية. ولكن أم درمان فعلاً عروس المدائن. فما زالت تحتفظ ببهائها. وهي كباقي المدن الكبيرة تعشق وتحب، وفيها من المبدعين ما هبَّ ودب. تعج بالأسواق الشعبية القديمة والحديثة، تشتهي الغالي وتستغلي الرخيص. ترفض النذل وترغب الرجل الشهم. تتاجر بالعاج والحيوانات المحنطة ولا تخشى جمعيات الرفق بالحيوان، ، فيها أكثر من جامعة وأكثر من مطار ولكنها ليست كمدينتك، فهي لا تفتح ذراعيها لأحد رغم أنها مَريودة من الأغراب.

شرد بصري بعيداً وراء النافذة.

بدأ الليل يمدّ لحاف العتمة والسكون على المكان. قلت له أو لنفسي لم أعد أذكر: (ومدينتي أيضاً يا سيد مريودة ومحبوبة من الأغراب، تعشق وتحب وتعج بالقصاصين والشعّار والرواة وأسواقها عريقة في القدم وعلى رأسها سوق هشام. ولكنها تميل للنذل وترغب عن الشهم.. ليس بها جامعات لكنها تتاجر بالعاج البشري وهي متعةُ الأغراب، امرأة مستباحة في الليل للأغراب وفي النهار للقادمين من الغرب، تتاجر بالأعراض والأثداء الناهدة.. والمترهلة أيضاً.

مدينتي يا سيد لا تخشى جمعيات النخوة! ولا تهتز لها شعرة لكل ما يجري في ليلها ونهارها من مراسيم العهر وقتل الضمير! مدينة لا تفتح ذراعيها للأغراب فقط. بل تنحني وتنبطح وتجيد كل وضعيات الذل والإذلال. وبالأخص وضعية الفارس تكون فيها هي المطية. ففيها المتعة

المثلى. وهي الرائدة في تنفيذ تجارب الحكومة بكل وزاراتها، فهي أول مدينة تطبق الاختلاط في ثانوياتها وهي أول مدينة مباحة لتجريب المناهج الحديثة في مدارسها.

وكذا النهر ما عاد نهراً حين نحروا خاصرته فنزف بحيرة زرقاء بلون الألم يسفحون عليها شبق رجولتهم. فعند المساء تحل المدينة نصف تفريعتها للأزواج الطيبين ليسقط النصف الآخر من التفريعة للنصف الباقي من متنفذي المدينة في أيام معدودات من السنة وباقي الأيام لوالي المدينة وحده في قلب طرّادة راسية على شط البحيرة المحمية.

أغبطك يا سيد على حبك لمدينتك الجميلة.. ولا أشك أنها كذلك.. ولكني لا أستطيع التحدث عن مدينتي بهذا الحب والولاء، فلقد قدمتُها قبل أن أولد وأنا في خاصرة أوجاع أبي قبل خمسين عاماً مع كثيرين من أمثاله قدموا إليها مع أُسرهم بحثاً عن عمل، أو نفياً إدارياً، أو نقلاً تعسفياً.

ما الذي تريده أيها السفان الأفريقي؟

أتساءل ما الذي دعاك لأن تهتك ستر ذاكرتي؟ وتغمز من قناةِ مدينة بناها قبل حين موغل في القدم سلوقس كبير قواد الاسكندر وسماها باسم حفيده كالينيكوس إلى أن جاء المنصور وأعاد بناءها باسم الرافقة وبنى الرشيد قصورها واتخذها عاصمة ثانية له. وانزوت بها العباسة متخفية عن أخيها هارون بحملها من زوجها السرّي جعفر البرمكي في قصر للبنات. والتجأ إليها سيف الدولة الحمداني حينما انهزم أمام الأخشيد. وحين انكسر أمام كافور ثانية عام 333 هـ.. " ويلهج أهلها لهجة حية وفريدة، لم تفقد قيمتها على مر العصور.. ثم بعد ذلك تدّعي أن مدينتك عريقة غير مباحة للأغراب.

ألهذا الحد تمتلك يا سيد فراسة قراءة الطمي في ذاكرة الآخرين! تقشّر رُقى الطين باحثاً عن جراح نسيها التاريخ، لتكتشف وحدك أن مدينتي مباحة للأغراب؟ ليكن. تراك يا أسمر ما أتيت بجديد.

لعلها سمة تختص بها كل المدن المغلوبة على أمرها؟ أو كل المدن المخترَقة بنهر.. فهذه بغداد مخترقة بنهرين. ومازالت بوابة للشرق.. وهي توأم لمدينتي. فلا تتعب نفسك، ستظل مدينتي على حالها حتى لو عُدتها بعد ألف عام، فهي كباقي المدن العربية والمستعربة تظل تنفض عنها غبار أربعة بل خمسة قرون من نعال التخلف والعثمنة وبعر الماشية.

لذا أيها الأفريقي الطويل ((أَطلقْ رصاصك على جثتي، على أفكاري.. أطلقه حيث تشاء)) على رأي الشاعرة سنية صالح ... لن ترى قطرةَ دمٍ تسيل. فكل الدم نزف هناك بين خاصرتَي دجلة والفرات.

أطلق. فجسدي من ورق وطين. لا يهم..... أطلق.... لم يبق من الأصحاب إلا أنت لم يطلق بعد. لا يهم.. فعصافير القلب ستظل تطير دون وجل وراء قدرها تجوب العالم.

***

- 12 -

عدنا من صلاة العشاء..

فتحت الباب، تذكرت أنه عليَّ أخذ نسخة عن المفتاح وإعطائها لسيد الذي دخل قبلي وابتلعه ظلام الغرفة، أضأت اللمبة الوحيدة والمعلقة وسط السقف. كانت كبسة النور بجوار الباب وكبسة أخرى بجوار سريري. قال سيد وقد توسط كبد الغرفة:

- الله ينور عليك يا حمزة....

ثم اقترب من سريره وبحذرٍ شديد أخذ يفك إسار العفش المربوط.. يفلت فراش الإسفنج على طوله فوق بساط الرقع الملونة، ثم يغطيه بشرشف من الكتان الأبيض يسدله حتى الأرض مغطياً منظر حقيبتة الكبيرة ذات الخيوط الصفراء والبابور والأحذية تحت السرير، ثم اختار للوسادة مكانها في الطرف

الملاصق للجدار، وكمن يمدِّدُ طفلاً غفى لتوِّه ويخشى إيقاظه، كان يمدد لحافه بكل تؤدة. وأظنه بالغ في ذلك ليريني أنه يمتلك لحافاً مميزاً.

تجاهلت الأمر. لبست منامتي واستلقيت على فراشي وشبكت أصابعي تحت رأسي أتأمل مساحتي المفضلة من السقف. كان سيد واقفاً بهامته الفارعة لا أرى منه سوى ظهره.. وما كنتُ لأرى ماذا يفعل من مكاني بسبب اللوحة التي أمامي فوق المرسم.

أحسست بالوقت يمرُّ ثقيلاً وقد بالغ في وقفته وأطالها، سألته وقد دبَّ فيَّ الفضول:

- هل ستقضي الليل واقفاً توضِّب لحافك؟ ...

- لقد انتهيت.

كان يرفو جانباً صغيراً من اللحاف، عقد الخيط بأصابعه وقطعه بأسنانه. ثم رفعه وطبطب عليه ليتأكد أنه غطى طول السرير وعرضه. ثم اندسَّ تحته، وجرّه حتى مستوى ذقنه، ومرَّرَ أصابعه متبسِّماً فوق رسم دائري كبير على وجه لحافه. لمحته بشكل أفقي من مكاني وأنا مستلق. كانت الستارة المنسدلة بلونها الأزرق والتي تغطي النافذة الوحيدة تزيد من عتمة المكان فسحبتُها إلى طرفي وعقدتها، ثم فتحت الدرفة اليمنى فدخل شيء من الهواء الرطب وقليل من ضوء الشارع البعيد انعكس على لحاف سيد. وكان الضوء الوحيد في الغرفة يخفت أحياناً ويشع بالتناوب مع صوت المولد الذي كان يسمع صوته من مكان بعيد خلف السكر.

أنزلتُ اللوحة عن المنصب ورفعتُ نصفي الأعلى معتمداً على مرفقَيّ الاثنين وبدأت أتأمل وجه اللحاف، كان الرسم كبيراً جلياً يمثل وجه امرأةٍ مرعوبة تصرخ. غارقة في الجحيم أو خارجة منه، شعرُها أفاع تتلوى، فمها يزأر مبرزاً أسنانها الكبيرة وعيناها جاحظتان مرعبتان! أدهشني الموضوع بقدر ما أدهشتني دقة التطريز والألوان، تساءلت بيقين: يا ألله ما أضيق الدنيا؟! اعتدلت وجلست على طرف السرير. لقد كان الرسم على اللحاف يمثل وجه الميدوزا وهو ذات الرسم الذي كلِّفتُ به طلابي ذات يوم هناك في معهد الفنون بأرض الوطن قبل رحيلي. أيّ تقاطع أفكار ألتقي فيه معك يا سيد؟ أية ليلة سأقضيها، بعد رؤيتي لهذا الدرع المخيف؟! عادت بي الذاكرة إلى مدينتي المرمية على كتف الفرات. حيث قاعة الرسم في الطابق الثالث من المعهد، كانت المشاريع الجدارية في قسم النحت، تتطلب تدريباً على الرسم الواقعي أولاً. كنت وقتها قد طلبت من طلاب إحدى الزمر اختيار موضوع للنحت من شتى الحضارات. أشرت إلى إحدى الطالبات أن تخرج إلى السبورة وترسم موضوعها. كان اسمها الخيزران تتميز بشعرها الأسود الطويل منفلتاً ناعماً يغطي ظهرها كطرحة سوداء حتى ردفيها، وبجمال وجهها الوضاء والفاتن، وبأناقتها التي تلفت الانتباه كمضيفة

طيران. تشعل الغيرةَ في قلوب أقرانها الفتيات. كانت الخيزران معتدة بشعرها كثيراً وتعده سر فتنتها، فتتركه تياهاً كعباءة من الحَبَر الغالي.

تناولتْ الطباشير الملون وأخذت ترسم مشروعها. وتابعتُ أنا الحوار مع باقي الطلاب. كانت عيونهم مشدودة لما ترسمه الخيزران. انتهت من الرسم.. التفتُّ إليها، كان موضوعها درع أثينا استوحته من الحضارة الإغريقية. وجه امرأة مرعب شعرها أفاع مخيفة. رسمَته بشكل مدهش وبديع. لوّنت الأفاعي بالأزرق، والوجه بالأحمر والأسنان بالأبيض وراعت الظل والنور فأعطت انطباعاً بالنحت النافر فغدا المنظر مرعباً.. أنهت الخيزران الرسم ووقفتْ بجانبه تنتظر رأيي... وقد تحققت من إبهار الجميع. سألتها: ما اسم المشروع؟

- درع أثينا.

- ماذا يمثل هذا الرسم؟

- رأس الميدوزا المرعب.

- هل تخشين هذا الرسم؟

- لا أخشاه، ولكني أكره الأفاعي.

كان حدسي يسبقني أنها قد اختارت هذا المشروع المخيف وهي تعرف حكايته جيداً، آثرت أن أعيد للطلاب الحكاية: (هل تعلمون أن هذا الوجه كان لأجمل امرأة عند الإغريق، اسمها الميدوزا، كانت تياهة مغرورة بشعرها الطويل، تفتن به عقول الشباب، فعاقبتها الإلهة أثينا على غرورها، فحولت شعرها إلى أفاع. ومسختها صورة بشعة منفرة تلقي الرعب في القلوب بمنظر وجهها الكالح وأسنانها الكبيرة أما نظرتها فكانت تحيل من تقع عليه حجراً ويقال أن أثينا ساعدت البطل بيرسيوس في قتلها من غير أن يتعرض لنظرها، لأنه كان ينظر إليها من خلال ترسه المصقول كالمرآة.وكانت صورتها تزين ترس أثينا وبه تمكنت من هزيمة أعدائها.)

خجلت الخيزُران. ظنت أني أرميها بكلامي، احمرّ وجهها. رمت الطباشير على رف السبورة، ثم زمت شفتيها بحنق راكضة نحو طاولتها. جلسَت غضبى ترمقني بعينين كلهما عتاب. كانت تعتبر نفسها خارج دائرة النقد والتوبيخ عندي، لذا فوجئتْ بكلامي، بل كان صدمة بالنسبة لها.

هي محقة في ذلك فما كانت تستحق مني هذه القسوة غير المقصودة. وهي المجدة في دروسها والمتفوقة دائماً، لذا كان لابد من إصلاح الموقف معها. انتظرت قليلاً. ثم قلت موجهاً كلامي للطالبات:

- ما رأيكن بشَعر كشعر الميدوزا بدلاً من شعوركنَّ المتناثرة هذه كالأشواك والأعشاب الضارة؟.

تعالى صراخهن غضباً واحتجاجاً وسط تعليقات وضحك الشباب. وفي غضون ذلك، لمحتُ ابتسامة رضا على شفتين كانتا غاضبتين، فغدتا بلون الكرز ضاحكتين، وعينان جميلتان ضاع منهما العتاب. ما كنت أرغب أن يكون إرضاؤها على حساب إغضاب الفتيات، ولكن حصل ما حصل دون خسائر في الطرفين. نبهني سيِّد من شرودي يناديني، عدت.. وما زلت أنظر لرسم الميدوزا فوق لحافه . سألني:

- هل تخشى هذا الرسم؟

- لا أخشاه، ولكني أكره الأفاعي؟!

أغمضت جفني على فرات يحترق، خشيت أن يفلت من عيني، ويعرِّي ذاكرتي أمام هذا الكائن الملتحف بالموت. أغمضت جفني أكثر..... فقد كانت الخيزران صديقة أكثر منها طالبة.. كنت أكبر منها بأربع سنوات ... كانت مثقفة ومحاورة لبقة. وهي الجميلة الأجمل. مؤنستي في وحشة التدريس ورتابة الدوام وزحمة المشاريع ودوشة الطلاب. كل صباح تقدم لي القهوة من ترمس أنيق تأتي به من بيتها. أدمنتُ قهوتها. وغالباً ما كانت هي التي تقطف الرشفة الأولى من شفة الفنجان فأتبعها أنا من ذات الفنجان الذي غدا مقدساً لديها. تأخذه معها للبيت وتعيده في اليوم الثاني خشية أن يصيبه مكروه أو يشرب به

أحد غيري. وما كانت تنسى أن ترفقه بحفنة من الياسمين توزعه على أطراف الصحن.وترمي بياسمينة واحدة في قلب الفنجان...

فتحتُ عيني واعتدلت برقدتي ثم سألته:

- أظنك تدرك أنَّ هذا الرسم يمثل درع أثينا أي درع الموت؟

- نعم أُدرك ذلك. أين الغرابة؟.

- لكنك اخترت رمزاً إغريقيا ، يخشى أهله الموت. ويعتقدون أنه أكثر الأشياء فظاعة...

- ليسوا وحدهم من يعتقد ذلك. نعم هو كذلك، لكنه أكثرها غموضاً ومتعة. الموت عندي هو الحياة. في جملته الأخيرة عرفت أنه يرمي إلى أبعد من ذلك.. أجبته وقد راق لي الحوار:

- هل ضاقت بك الوسيلة في حضاراتنا كي تلجأ إلى حضارة الغرب باحثاً عما يذكّرك بالموت ومتعته؟

اعتدل أيضاً برقدته متربعاً فوق سريره مواجهاً لي. وقد أدرك أن الليلة ستطول. وأني راغبٌ بالمجادلة ومعرفة سرِّ هذا اللحاف. قال:

- أولاً ، الحضارات يا صديقي ليست ملكاً لأحد ، وليس من حقِّ أي مخلوق أن يفرض رأيه بهذه الطريقة المتخلفة على أحد! ولا تنسى أننا بحاجة دائماً لما يذكّرنا بالموت، أكان من حضارتنا أم من حضارات العالم كله. ..

أراح ظهره إلى الجدار احتضن المخدة في حجره، وتابع:

- حمزة... قبل أن أنسى. أما خطر ببالك يوماً أن ترسم الموت؟.

- حرام عليك!.. الموت؟ قل ترسم الحياة، الفرح، المستقبل، الجمال...

- يا حمزة من يدرك قيمة الموت يدرك قيمة الحياة. جرِّب أن ترسمه، أمامك لوحتك والألوان، لا تخف منه. فالموت لا يهاجم مثل قاطع طريق، ولا يدنو منك مثل متسول.... هل تعلم لم لا يفعل ذلك يا أبا الحضارات؟ لأنه بداخلك. بخلايا دمك ونقي عظامك. لأنه كما الضوء

لا يمكنك أن تكتشف حجمه إلا إذا قارنته بحجم الظلام الذي يحتويه داخلك..

- أعتقد أننا محكومون بالموت بقرار لا علاقة له ما بداخلنا من ظلام أوضوء، قرار حين تحين ساعته، يغدو غير قابل للطعن أو الاستئناف، فقط ننتظر فيه تنفيذ الحكم.

- لا يا صديقي. حتى الموت نستطيع التفاوض معه، نستمهله، وكما قلت لك، هو ليس بقاطع طريق.

- ولكنه كذلك حين يسلبك أعزَّ الناس إليك.. أو يسلبك روحك وذاتك..

اعتدل ثانية ولف اللحاف حول وسطه وعلى ركبتيه وقد تيقن أن الحوار سيطول، وليل حوث البارد لن يرحم رجلاً خمسينياً وقع ضحية حوار مع شاب ثلاثيني مشاكس...

حرر ظهره من الجدار وأصبح قبالتي تماما، ابتسم وقال:

- حمزة... إياكَ تعتقدْ أن الموت يسلبك شيئاً هو لك، فكل ما عندك هو له. فمنذ ولادتك تربّص بك وجلس ينتظر أن تنتهي من مهامك في الحياة. ومن ثم يأخذك في مشوار بعيد ينأى بك عن دنياك المتعبة. وهي ليست النهاية حين يزورك.. لا. الموت هو أن تنام بذات الطريقة التي تنامها كل يوم، ولكن نومك هذه المرة سيطول.. وما ينتظرك في صحوتك، فمختلف عما كان ينتظرك كل صباح.

- أنت تفلسف الأمور إذاً على طريقة علماء النفس!

- ليكن .. أوَ لست معي أن النفس خالدة ؟

عدّلت من جلستي وقد أخذ البرد يسلبني دفء الكرز، فتلفلفت بلحافي لعلي أتحدث بذات الفلسفة التي يتحدث بها. قلت:

- بلى خالدة.. فالخلودَ صفة جوهرية من صفات النفس العاقلة.

- جميلٌ هذا الكلام.. إذاً أنت تؤمن بأن هناك حياة أجمل تنتظرُ هذه الروح؟

- ذلك يتوقف على ما كنا نفعله في حياتنا الأولى. إن كان جميلاً فما ينتظرنا هناك سيكون أجمل.

- إذن بحجم الضوء الذي بداخلك تنتظرك حياة ماتعة هناك.... أنت فنان ولا يمكنك إلا أن تكون كذلك. فمن أين تأتيك الخطايا إذا كنتَ خالقاً صغيراً للجمال ومُحبّاً للخير. والجمال بطبيعته هو الخير، وهو جوهر الفضيلة.. حمزة / النفسُ هي ربُّ الجسد./ يطهر حين تَطهر.

- الفنانون ليسوا أنبياء ولا أنصاف آلهة.. فما نحن إلا بشر مقيدون بثقافتنا ومواهبنا وحتى غرائزنا ومصالحِنا الخاصّة، ولا نرى من الأمور أحياناً إلا ظلالها..

- دعني أسألك عن لحظة الخلق لديك، فحين ترسم أو تنحت ألا تغرق في كينونتك وينتفي عنك الجسد؟ ويغدو وجهك وجه من ضنى بسفر طويل، تحضرُكَ أرواح من تحب وعطر من تهوى ووجه من ترغب. تشفقُ عليكَ الألوان كلها. ولكنها في ذروة الخلق تخذلك، فتلقي بالريشة جانباً، وتمد أصابعك تعجنُ بها وحل الروح. وربّات الحسن والجمال يتساقطن عليك. فتجوس يداك في أرجاء اللوحة تهيم على وجهك، تبحث عن كفن يليق بك فلا تجد. تواجهُ موتك الذي تعرفه بموت آخر ينتظرك هناك في عمق اللوحة لا تدركه، فتشعر أنك أقرب الناس إلى الله. ذاك هو موتك الأجمل.

شممت رائحة تصوف في ثنايا كلماته.. قلت:

- الموت هو الموت، في كل زمان ومكان. حتى ولو شعرت أنك في أقرب لحظاتك إلى الله.

- حمزة.. على رسلك يا صاحبي. على رسلك.. أنا لست فيلسوفاً كما تظن، ولا فناناً كي أشخّص لك الموت وأرسمه!

- ولكنك تضيِّق الكلمات! ..

- أنا أتحدث عن موقف أقرب ما يكون للوقفة، تلك التي يقف بها المتصوفة في حالة الخطاب المباشر مع الذات العلوية. ألم نتفق أنه

كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة.

- حدسي كان في محله.

- عفواً؟

- لا شيء.... ولكن هذه العبارة قالها النفّري لغير غرض الموت. فقد كان يزعم الوحي والإلهام من لدن الله. والموقف الذي تتحدث عنه، هو حالة الصوفي عند الوقفة، وهي حالة يضعها النفّري في مرتبة أعلى من المعرفة.

رفع سيد يديه مؤكداً، وسأل فرحاً، كما لو أنه في قاعة الدرس وقد تجاوب معه طلابه:

- برافو. أحسنت حمزة. لماذا يراها كذلك؟

- لأنه يرى أن الواقف هو أقرب الناس إلى الله.

- أحسنت يا حمزة.. هذا ما أردتك أن تصل إليه... أنت تذكّرني بشاعر صوفي من تونس. صديقاً كنت أسمّيه سيد الكلمات.. كانت له آراء مثل آرائك.

هل كنتُ في اختبار؟ أظنني كذلك. فسيّد لم ينس فارق السن والخبرة والعمر. وما عليَّ إلا أن أحترم ذلك. ولا يعني بالضرورة أن أكون معه في طرحه. على الأقل هذا ما تعلمته من ثقافتنا وتربيتنا الدينية في شرق المتوسط. فالمرء عندنا في سجوده وخضوعه التام، هو أقرب الناس إلى الله.

نهضت بسرعة وكأني تذكرت أمراً مهماً. فتحت البراد وأخرجتُ تفاحتين في صحن، وعلبتين من عصير البرتقال الطبيعي وضعتهما على الطاولة، ناولته تفاحة وأخذت واحدة.

***

- 13 -

تناولنا العصير على مهل دون أن نغير جلستنا التي كانت أقرب لليوغا منها لجلسة حوار.

جملته الأخيرة (سيد الكلمات) عن صديقه الشاعر التونسي، أعادت ذاكرتي إلى امرأة فاتنة هناك في الوطن الأم. كانت تناديني بذات اللقب: سيد الكلمات. وأنا هنا لست أدعي أنني كذلك. فما أنا إلا سيد نفسي.. كانت حنين - وهذا اسمها - امرأة فاتنة تزيد العشرين بثلاث. تخرّجتْ حديثاً من كلية الهندسة المعمارية، تنادد الخيزران رقة وأنوثة وجمالاً. الخيزران التي أصبحت أماً لولدين وزوجاً لطبيب لا يعرف لوناً لمتعة ولا رائحة لكتاب همه من الدنيا عيادته ومرضاه وكيف سيجمع ثمن السيارة والفيلا أسوة بزملائه القدامى.. إلا أن حنين تزيدها بعينين زرقاوين وتزيدها طولاً.. التقيت بها أول مرة في مرسمي.. جاءت تزيد خبرتها في الرسم واللون إلى جانب براعتها في الرسم الهندسي.لم تكن كالأخريات يأتين ليتعلمن فيغادرن ثم يُنسَين مع مرور الزمن. جاءت دون أن تدري كي لا تغادر. ما كانت وحدها حين أتت، كانت رفقة أمها السيدة وجيهة المحامية المعروفة تدلّها إلى مكان المرسم..

والسيدة وجيهة تعرّفتُ إليها حين زارني محام صديق وكانت بصُحبته فعرّفني إليها. ذكرتْ لي يومها أن ابنتها الوحيدة حنين على أبواب التخرج من كليّة العمارة ستأتي بها يوماً إلي لتصقل موهبتها في الرسم.

كنت نسيت تلك الزيارة التي مضى عليها أكثر من عام، إلى أن فاجأتني مع حنين. رحبتُ بحنين وكأني كنت أنتظرها منذ ألف عام. المرسم كله بدا يضحك لحضورها. اللوحات والتماثيل والكتب

ومنصب الرسم والألوان، حتى قدح الشاي ذو الخط الأحمر اهتز فوق الطاولة حين وقع بصرها عليه. ما كنت أشك منذ أن تركت مكاني وراء طاولتي وجلست قبالتها وهذا قلما يحدث مع ضيف " عابر مرسم " فهي لا بد مقيمة وليست عابرة كالأخريات... استطاعت أن تحتل مستعمرة واسعة فوق أجمل شواطئ العمر. رغم أني أغلقت المنافذ والمعابر جيداً ومددت أسلاكاً شائكة في كل الدروب المؤدية إلى قلبي بعد زواج الخيزران.. كانت حنين ماتعة باسقة ترميك من أول رمشة ترمش بها. كانت أنثى بكل ما تعنيه الكلمة من ألف معنى ومعنى.

كان السؤال المهم: كيف السبيل إلى رؤيتها وحدها دون أمها التي كانت ترافقها في زياراتها الثلاث الأولى.... تبادلنا النظرات ومدارات المخاطر التي تنتظرنا وأرقام الهواتف... دوّنت حنين الرقم على دفتر صغير لازمها طوال السنوات التي عرفتها بها.... للحظات انتابني الخوف، مر شريط مستقبل أيامي معها محفوفاً بالمخاطر، خفت عليها مني، أو خفت منها علي. امرأة بهذا الجمال، دائمة الفتنة والأناقة، ستراقبها العيون أينما حلت، سيحسدني الكثير عليها.. وما أكثر الحساد والعسس والمخبرين.. كانت أمها تفكر بطريقة لعدم مجيء حنين وحدها. فهي ستكون مشغولة في الأيام القادمة في مكتبها، لديها قضايا تتابعها وتسهر عليها. اقترحتْ عليها حنين أن تأتي معها سلاف ابنة خالتها.. قبلت أمها بذلك.... قلت لأمها: (هل هناك أزمة ثقة؟)

ردت معتذرة: (عفواً.. لا.. لا أبداً.. ولكن حنين لا تعرف كثيراً في المدينة. ما زالت حديثة العهد بها فقد كانت تعيش مع أبيها في دمشق منذ طفولتها.. نحن منفصلان منذ زمن.. لذا لابد أن يكون معها أحد. ريثما تتعود على المجيء وحدها، عفواً كم مدة الدورة؟)

أجبت على الفور: (طول العمر..) ضحكت حنين، وذهلت أمها قائلة: (نعم؟!)

- (أقصد سيدة وجيهة أن عليها ألا تنقطع طوال عمرها عن

التدريب. أما الدورة هنا فهي.. ثلاثة أشهر) أنّبت نفسي وقتها: تنبه يا ولد لا تفضح مشاعرك أمام أمها. ما بالك وأنت المعتاد على زيارة طالباتك وصديقاتك المدرسات والرسامات. لا أدري كم مضى من العمر حين غادرت حنين وأمها المرسم في الزيارة الأولى. بعد أن طوقتني المخلوقة بابتسامة ساحرة أزالت آخر متراس نصبته الخيزران حول مستعمراتها الآمنة في قلبي أقصد التي كانت آمنة زارتني حنين مع سلاف ابنة خالتها اليافعة مرات عديدة. وبين تلك الزيارات كانت تهاتفني، يأتيني صوتها عذباً آسراً: (صباح الخير.. سيد الكلمات).

- (صباح النور .. امرأة الهاتف.) كان يرضي غرورها الأنثوي أن أناديها بهذا اللقب. لأنه أول لقب ناجيتها به في أول مهاتفة بيننا. فهي عبر الهاتف تفك عقدة خجلها وتطلق لسانها: ترفع أشرعة الفصاحة بلا تكلف فتقطر شجواً بطيئاً لذيذاً، فتغدو بحق سيدة للأثير.

ولطالما استشقتُ عبير كلماتها فتتملكني نشوة أبديةلم أنلها من قبل. تختصر عشقها لي بكلمات دائمة الموسيقى، ورنين عذب لا يهدأ.كانت ضحكتها تسكرني وتفتنني.. أما حين نلتقي يخونها التعبير، فيتجدد عبقها الأنثوي في كل لقاء، يغلفها الصمت البديع حياء من الكلام....

بعد أيام تحررتْ حنين من رفقة سلاف، حين أخبرت أمها أنها قادرة على الذهاب وحدها دون خوف. فأصبحنا نلتقي وحدنا عاشقان موجعان تحت رماد الرغبة. نلتمس الجمر في كل لقاء. نتجاوز خطوطاً حمراً رسمناها بأيدينا. حنين امرأة عملية. تضحك قليلاً، تدخن، تتأنق كسيدة مجتمع.لم تكن قامة تشبه قامتها، ولم تكن عينان تشبه عينيها. كان لشفتيها طعم القرنفل ولثدييها انحناء الموج وطعم البرتقال..

كان جسدها فائراً ناعماً، أرضاً بكراً. ما كان يغويني عنها في الحب أية امرأة غيرها..

ما انحنيت إلى شفتيها أو عنقها مرة إلا وشممت رائحة مطر وسنابل

خضراء. وما ضممتها إلا وينبثق من حقول صدرها فل وياسمين. كان لها وجه ملاك حين تغفو. وجهها الجميل كان سبباً كافياً لأن أبقى على قيد الحياة. فكم جاءتني نوبات القلب. فكان يكفيني طيف وجهها. يزورني في غرفة الإنعاش، ليخذل الأطباء والحاسدين بموتي، فيكتب لي عمر جديد..

وذات زيارة إلى بيت أبيها في دمشق، كان والدها التاجر المسافر دوماً خارج البلد، تواعدنا بالهاتف والتقينا جانب نادي الضباط القديم في الصالحية.. دخلنا إحدى عمارات قاسيون التي تطل على دمشق وفي المصعد غرقنا في قبلة أذابت جليد الوقت والانتظار. وحين دخلنا البيت في الدور الرابع بدت مثيرة ومشتعلة، لم تنتظر حتى تغلق الباب فأغلقته أنا بقدمي كنت ألفها وأدور.. ارتمينا على أرض الصالة المغطى بالسجاد العجمي... وكان اللقاء حميماً اكتوينا بناره.. أطفأناه مرتين أو ثلاث. وفي المساء كان لنا لقاء آخر في الشرفة المغلقة بالزجاج المفيّم المطلة على ليل الشام الآسر.. خيل إلي وقتها أني سمعت تكسر بللور ضلوعها. سألتها إن كان شيء ما قد تحطم؟ قالت: (احذر، فحين يتحطم الكريستال يتحطم دفعة واحدة ويغدو غباراً تذروه الرياح لا يترك وراءه أثراً. هو ليس كباقي الزجاج...)

وهي ليست كباقي النساء. هذا ما كانت ترمي إليه. وما كنت بحاجة لهذه التورية. أدركت ذلك منذ القبلة الأولى..... خشيت عليها مني بعد لقاء الشرفة. غدوت عاقلاً في لقاءاتنا القادمة. وأصبحتُ في عناقي لها كعباءة مبللة ندية ترفرف على ثناياها تهامس جمرها دون أن تطفئه. وضوءاً خافتاً يتواطأ مع تلافيف جسدها دون أن يخترقه.

ولا يضيرها أحياناً إن بقيت ذلك البحار الذي اعتاد السباحة بكل أشكالها دون خوف في مياه دجلة والفرات، والطواف في كل الاتجاهات دون أن يتجرأ على العوم يوماً في شط العرب.

حواري الليلة مع سيد، وجدّيته في الدفاع عن فكرته، حرّك رماد

عشقي للمثاقفة والحوار. فهيئته البسيطة والواثقة دون حراك، تدفعني لاحترامه وانتقاء كلماتي فيما أقول، فما اهتز في جلسته الشبيهة بجلسات اليوغا قيد أنملة. عيناه كانتا كعيني باشق تصوبان سهامهما إلى وجهي تحثاني على الكلام.. طال الصمت. أظنه ينتظر مني متابعة الحديث... فلسفته في الحياة كادت تدفعني لأشتهي مقداراً عظيماً من الموت، بمقدار ما كنت أريد من الحياة. و حجماً كبيراً من الظلام، بحجم ما يحتويه العالم من ضوء. جعلني أعود إلى كثير من الأشياء التي حمّلتُها معان. وتأكد لي أنه ليس هناك شيء له معنى، وشيء آخر ليس له معنى. فلكل شيء معناه الخاص. وما يعنيه الشيء ذاته غير الذي تعنيه نفسك عنه... و.. ونجح لغاية الآن - إذا كان هذا غرضه - في استفزازي واكتشاف ما أملك من مخزون ثقافي وفكري ضئيل قادر على المناورة... وبصراحة أعترف، أن ما حدث قبل قليل من مواجهة مع سيد كدتُ أخشى على نفسي منه .. فأنا منذ زمن ما خضتُ هكذا نقاش. مذ تركتُ مدينتي ومثقفيها بكل انتماءاتهم السياسية والحيادية والفكرية والقبلية. وحواراتهم على رصيف مقهى صديقنا الفنان الراحل ياسين. والتي كانت تبدأ عادة بتعليقات ساخرة من أبرهة، حول نص كتبه خيبر، أو تفخيم مقصود مبطن من ماجد - الذي لا يتردد في إعلان نفسه الكاتب الأول والقاص الأوحد - لما نشرته سوهاج في مسابقة البيروني للقص واللف والميش. فقط ليثير حفيظة كل الجالسين دون استثناء..

أو تقليل متعمد من جوزيف لقصة قصيرة نشرها عمر في جريدة الرافدين، أو نقد بنيوي من أسعد لمقالة كتبها ابن حلزة السفراني في جريدة الأسبوع الأدبي. يحتد النقاش لينتهي بالمهاترة وزحزحة الكراسي. ويكاد يصل أحياناً إلى حد السب والقذف وترك المكان.....

وحده صديقي ياسين. جبل المحامل. جالس لا تهزه ريح...

رحمة الله عليك يا أبا المؤمن. رحلتَ وما كان يهزك نقاش، ولا

يستفزك موضوع. لا تعنيك رواية ميم، أو قصة ياء. أو حتى لوحة لبيكاسو أو دافنشي. يكفيك حجم الضوء الممدد في روحك يلفه سيلوفان بارد. يكفيك أن تردد لمحدثك الغاضب بأعصاب مثلجة: (ما عليكْ ما عليكْ، الأمور بخير.) وما كانت وقتها الأمور بخير. رحماك يا صديقي الخالي من أمراض عُقد النقص كعقدة نابليون، وأوديب.. ونيرون.... ودواس... لا تغيب عن بالي زياراتك المتقطعة إلى مرسمي، كانت تمنحني الثقة والسرور والحيوية، أسألك حينها: (أين كنت؟) فتجيبني باختصارك الذكي وتلميحك: (دعَونا لك.) أفهم أنك كنت في المسجد المجاور لمرسمي. رحماك يا صديقي الطيب. لحقت بزوجك الفاضلة وأم ولدك الوحيد " المؤمن " التي سبقتك بأشهر إلى دنيا الحق. ما زلت أذكر فراقك لها. رأيتك ذات صباح ماطر حزين تقف أمام دار التوليد. متكئاً إلى باب الحديد الداخلي للمشفى، تسترق السمع إلى صراخها لعلك تسمع صراخ وليدها معه، كانت تصارع الموت كي تهب لك طفلاً آخر أخاً للمؤمن، ما كان يهمها أن تعيش. همها أن ترضيك بطفل آخر.. قلت لي يومها: (اسمعْ صراخها. إنها تتعذب. المسكينة تعاني. لا أريد المولود، لا أريده. أريدها هي. لتنج بنفسها.. يا رب نجها من العذاب. أرحها. فروحها تتعذب. قال لك قريبك الطبيب: (إنها تموت ببطء، لا أمل في نجاتها..) ما عادت تحملك قدماك. وتابع قريبك بكل وحشية: (ضغطُ دمها انخفض إلى أقل من أصابع اليد. نسبة السكر ارتفعت حتى تجاوزت أقصى محطة يصلها قطارٌ للموت. تمزّقَ الشريان الأبهر، انقطع وريدٌ ونزف آخر..و.. لا يريحها من موتها البطيء إلا الموت الحقيقي.) بكيتَ ورفعت يديك للسماء وسط دموعك، دعوتَ لها: (ارحمها برحمتك يا أللّه.. نجها من أجل ولدها المؤمن.) لحظات وجاءت الممرضة تنعي لك بقلب جامد حزين دون أن يرف لها جفن وفاة المولود، صرختَ بها: (لا يهم، وزوجتي؟؟.) قالت الممرضة قبل أن تغادر: (زوجتك بين يدي الله) أجهشتَ كما النساء لحظتها بالبكاء وهمستَ: (كلنا بين يدي الله.. كلنا..)

لحظات أخرى مريرة مرت... صراخها كان قد همد.. وهمد معه نبض قلبك.. اتسعت عيناك وتفجر قلبك حين عادت ذات المرضة - وليتها ما عادت - بنعوة أشد جزعاً وقتلاً من الأولى، ما احتملها قلبك الصغير، أغمي عليك... وعشتَ بعدها أيامك وحيداً شارداً.. مضى عليك عام أو أقل، ما احتملَتْ روحك عذاب الفراق بعدها، قطعتَ لنفسك تذكرة رحيلٍ حمراء من الدنيا في أول قطار عابر إليها وإلى مدن لا تعرف الظلام..

أُطمئنك أبا المؤمن، الأمور عندنا، مازالت كعهدك بها ليست بخير... فالخير كله كان في قلبك أنت وقلب أم المؤمن زوجك. الخير في براءتك المخبأة وراء رسوماتك الطوطمية الرائعة. في مداد قلمك الأسود النبيل. وعبير ضحكاتك البيضاء، وصمت صلواتك...

***

- 14 -

أخذني الصمت والتفكير طويلاً. خشيتُ أن يفهم سيد أني أتهرب من الحوار. أو غير راغب فيه لعجز مني، أو لأسباب أُخرى في مخيلته.. تنبهتُ لذلك، لكني لم آبه.... قررت توجيه دفة الحديث باتجاه آخر، وكسر الجدية في الحوار. سألته:

- هل حاولتَ يوماً أن تغمر كلماتك بالماء؟ ورأيتَ إن كانت تغرق أم تطفو، أو يتغير لونها؟) ضحك سيد لهذا السؤال السريالي " كدت أقول السخيف " قال باستغراب:

- لا لم أحاول، ولن أحاول. حمزة دعك من هذه المسخرة لازم البرد أثّر بعقلك شوي أرني وجهك. تجاوزت سخريته، ولم أنظر إليه، خشيت أن يغرقني في محاضرة أخرى عن فلسفة البرد الصوفي ورأي ابن عربي والسهروردي فيه.. قلت:

- على كلٍّ، لو رغبتَ في التجربة؟ فهذا جردل ماء، الق فيه ما شئت من الكلمات. وأنا واثق أنك ستحصل على المتعة المطلقة، من خلال التفرُّد والاستغراق بمعنى الأشياء وطعم الكلمات، وستتوالد الأفكار الجميلة في عقلك من الكلمات الهامة، والتافهة، على حد سواء.

- أنت جاد إذاً؟! يمين بالله إن ما غيرت الموضوع راح أقلب وجهي وأنام. شامم ريحة سخرية في كلامك!

- الحقّ علي، كنت أرغب تسليتك وتزجية وقتك بما يفيد.

- حمزة... تراك أثقلتَ عليَّ في أول ليلة لي أقضيها في غرفتك! يجي منك تسويني حاوي يكلّم نفسه. أو يكلّم الماء في سطل؟ حمزة...

الوقت تجاوز منتصف الليل... على كلٍّ.. أنا أشهد وأبصم بالعَشرة لأهل الشام بالبراعة!

- عفواً؟.

- آي نعم. أشهد أنكم تديرون الحديث ببراعة بالغة، فقد أدرتَ دفة الحديث من فلسفة الموت والحياة، إلى رمي الكلمات في سطل ماء و. ما زلت أعتقد أنك تهرّج، فما تقوله لا يمت للعلم أو للفيزياء بصلة؟ ولا حتى للمنطق! أنا متفاجئ بك إن كنت جاداً يا حمزة....

رغم أني كنت أهذر، فقد أصابني الإحباط من ردة فعله. قلت يائساً: إنسَ!

- أنسى ماذا؟ يا فخر بني حمدان! أم أقول يا فجيعة بني حمدان؟

- إنس موضوع الماء والكلمات. كانت الفكرة بنت اللحظة. كنتُ أقصد منها، أنك وأنتَ الأستاذ سيد بكل خبرتك وفهمك للحياة وفلسفتك الخاصة والعامة عن الموت، واعتقادك بأنه كالجوعُ والفقر أو المرض، تستطيع التحايل عليه بالمهادنة أو المال أو الدواء ؟ أقول رغم كل ذلك سينتابك الخوف وأنت تتأمل كلمة الموت فوق الماء، تهوي إلى القاع دون أن تترك أثراً لها على السطح قال وكأنه يداريني على قد عقلي: أنا معك. ولكن كيف تتحول الكلمة إلى حجر يسقط في قاع القسطل؟!

قلت وقد حوّلتني الحالة في ذهني إلى سفسطائي سخيف:

المسألة ذهنية.. أقصد نفسية، تتبع حالة التجلي لديك. نعم، فقاع القسطل هو حجم الظلام الذي يعيش بداخلك، ستهرب منك لحظتئذ كل الوجوه الجميلة. ستجدك وحيداً مع وجهٍ هو أقرب لوجه الميدوزا، ستجد نفسك تستحضر ثقافتك وكل الصور التي مرت بك عن الموت وعن أشكاله. منذ القتل الأول بين قابيل وهابيل.

أخذت نفساً عميقاً وتابعت فلسفتي المائية وسط ذهول صاحبي: أما

وأنت ترمي كلمة الجمال أو كلمة الحب، ستجدها تطفو على سطح الماء، دليل شفافيتها ورقتها. وستجدك مبهوراً بلوحات أساطين الفن البديعة تتهمر عليك... أظنه اقتنع بالفكرة نوعاً ما، أو لعله يداهن فلسفتي، بلع ريقه وقال:

- أنت تفاجئني يا حمزة بخبرتك العظيمة في فيزياء المشاعر الإنسانية!

قال ذلك بجدية مبطنة لم تخف عليّ. أجبته متظاهراً بالفخر، وبنفس وتيرة جديته المبطنة:

- ولو أستاذ سيد، هذه ضريبة ثقافة الفنان في فهمه لذاته وللذات الإنسانية بشكل عام..ولَوو..

وغمزته دلالة أني معه على ذات الخط.

- هل تحققت من هذه التجربة بشكل عملي ؟ أقصد هل جربتها مع أحد غيري؟ أم أنك تطبقها عليَّ لأول مرة؟ وأكون أول ضحاياك المجردلين؟

للأمانة أقول ونحن الآن في زمن كتابة الرواية، وليس في زمن الحدث الذي مضى عليه ما يقارب العشرين عاماً. أقول إنني لغاية هذه اللحظة لا أدري كيف واتتني حينذاك تلك الفكرة. ولا أدري إن كنت قد قرأتها في مقال، أو مجلة علمية، أو سمعتها من أحد. وأذكر أني سألته في خضم حوارنا، وما زلت وقتها أدافع عن فكرتي:

- هل لك أن تخبرني لماذا اختار الله القتل، وجعله أول أشكال الموت بين البشر ولمْ يجعلهُ موتاً رحيماً؟

- تقصد قتل قابيل لهابيل. حتماً ليرينا فظاعة الموت!

- حتماً.!... إذاً اعترفتَ أخيراً أن الموت أمر فظيع.؟ وأدركتَ أني لم أدر دفة الحديث بالقدر الذي جعلنا نخرج عن موضوعك الأثير، الموت.

- ما يدهشني يا حمداني هو دفاعك عن نفسك بالطريقة التي تعجبك. والآن حباً بالله يا حمزة اقلب وجهك ونم، سنكتفي هذي الليلة بهذا القدر من اقتلاع حشيش الروح. نم ودع غيرك ينام.. تصبح على وطن جميل... قلت: تصبح على ميدوزا.

ضحك وجر اللحاف فوقه. لم أضحك، كنت جاداً في ردي، اندسستُ في فراشي، كانت أمعائي ترتجف من البرد. أي وطن جميل سأصبح عليه يا نفري الموت؟ بعد كل هذا الحوار، أنا ميت لا محالة. مضى من الليل نصفه، ونسمات باردة تتسرب من خلال النافذة، يزداد وخزها في مؤخرة عنقي. نصلها حاد وبارد، تنزلق إلى فقرات الرقبة، أحسها تدخل في نخاع العمود الفقْري. تتوزع عبر الأعصاب إلى كامل جسدي. لحظات طويلة من الصمت البليد مرت. أعقبتها لحظات أخرى من الصمت الحزين لم أستطع فيها النوم. أحسستُ بوابل سهام سلطها هذا الرجل على روحي. أدخلني نفقاً ما كنت لأدخله في أي مجلس آخر. ألَّبَ عليَّ ذاكرتي وداهمتني الهواجس. وتركتني دماء وجهي تيَّاها مذعوراً.. تكلَّمتْ يداي تحت اللحاف بإشارات وحركات مبهمة. كم تشهّيتُ أن يخرج طمي ذاكرتي إلى فضاء الغرفة، فيتساقط خرافاً ميتة فوق لحاف سيد. مددت يدي من تحت اللحاف كانت تعرف مكان مفتاح الضوء، أطفأت اللمبة وحاولت النوم. كدت أقول وحاولت الموت. اختلط النباح كأغلب الليالي بطلقات الرصاص.. رصاص المهربين ورصاص الدرك. ثم تباعد إلى أن تلاشى. ألِفَتْ عيناي غياب الضوء، لحافي كان درعاً من الصفيح البارد. كثرت فيه الثقوب، تسللتْ منها أفاع بعمائم كالتي يلبسها سيد، في فم كل أفعى مضغة كالتي يمضغها سيد..

لبدَ لحافي فوق جسدي وروحي وتيبستْ أطرافي، بلعتُ ما تبقى من ريقي، تشاهدتُ وحوقلت، ولعنت الموت في سرّي. تناوبتْ روحي حزناً مع حداء بدوي حزين، استحضرته ذاكرتي. ما الذي يحدث؟ أهي

إرهاصات الموت؟ لا أظن.... أخذ العرق ينزُّ من جسدي. الحمد لله. العرَق علامة خير، فالموتى لا يعرقون... غفوت. ولا أدري كم مضى من الوقت. فقط نباحٌ قوي نبهني من موتي، اعتقدت أنه كان في الحلم، وإذا به يستمر في الحقيقة. رفعتُ عني الغطاء بسرعة، وكأني خارج من قبر بلاطه جليد، وسقفه درعُ أثينا... سحبت درفة النافذة واستنشقتُ ملءَ رئتي هواءً نقياً مشبعاً بالرطوبة. نظرت إلى سيد كان يغط في نوم عميق. كنت أشعر بتنفسه المنتظم. تنفس القانع الراضي تحت لحاف من الموت.

قرأت المعوذات لعلَّ وعسى، شربت كأس ماء كان بجواري.. تقلبت... كان يوماً حافلاً. ولم يَطرف لي جفن.. حاولتُ النوم. لكن هيهات لمن مر عليه يوم كيومي.... ومع الموجة الأخيرة من الليل، بدأت أشعر بالوهن والوسن يلفانني كغلالة رقيقة. ... ويبدو أني غفوت قبيل طلوع الفجر.

***

اليوم الثاني

- 1 -

كباقي صباحات حوث كانت الشمسُ كعادتها تستيقظ قبل كل المدرسين، تلسعُ وجوهنا بأشعتها الدافئة متسربة مع هواءٍ بارد وثقيل من النوافذ الكبيرةِ. التي تشكل الجدارَ الشرقيَّ لسكنِ المدرسين..

والفجر كان يجرجر عباءة الليل خارج القرية، فتصحو من غفوتها على سماء مفعمة بالضوء.

انشقَّ فجر يوم السبت، اليوم الثاني للأستاذ سّيد في حوث. فركتُ عيني ونظرت إلى مكان نومه! وما رأيته جعلني أنتفض وأنفضُ عني وسَني وكامل غطائي، وأقف مذهولاً. كان فراشه واللحاف مضبوبَين فوق السرير ومربوطَين بحبل كالأسطوانة مثلما جاءا كما لو أن صاحبهما مهيأٌ للرحيل، أو أنه ما نام فيهما أصلاً... أين الرجل؟ الساعةُ تجاوزت السادسة والثلث بقليل، وجلبة المدرِّسين وأصوات الإستيقاظ قلما تبدأ قبل السابعة. لابد أن أمراً ما قد حصل!؟

جلستُ على حافة السرير، سويت شعري بأصابعي ومسحت عن عيني ماتبقى من نعس وإرهاق.

تثاءبت ثم نظرت إلى العفش المضبوب. وبدأتُ أستعيد حواري معه ليلةَ أمس. هل حصل ما يجعله يقرر المغادرة بهذه السرعة. لا بد أن في الأمر سراً. نظرتُ إلى ساعةِ يدي، شراايينها تنزف قريباً من السادسة والنصف، أزحت الستارة من جانبيها وعلقتهما بطرفي النافذة. امتلأتِ الغرفة بضوء النهار، وفي ذات اللحظة انشق باب الحجرة عن عملاق رودس " أحد عجائب الدنيا " هكذا خطر لي أن أسمّيه لحظة دخوله بصدره العاري يمسح وجههُ بمنشفةٍ سوداء يكادُ لونُها يضيع مع لون يديه وصدره المبلل..

صَبَّح عليَّ بحركة من رأسه، دون أن ينتبه لذهولي واستغرابي. بل أخذ يستعدُّ لدوام يومه الأوَّل سعيداً، وكأن لحافاً لم يكن أو عفشاًلم يُربط.. قال ودمدم كلمات، فهمت منها أنه كان يركض في أودية حوث، يمارس الرياضة الصباحية. وفور عودته أخذ حماماً سريعاً وسوّى لحيته بآلة كهربائية خاصة لذلك، مخففاً من كثافتها التي بدأت تضايقه فضيّق مساحة انتشارها على وجهه.... جميل هذا الكلام. الله يجعله نعيماً يا سيد. ولكن ما علاقة كل ذلك بالعفش المضبوب؟

- أستاذ سيد، هل جاء نقلكَ من حوث؟

سؤال نشب في حلقي. سألته بعصبية ظاهرة.

التفتَ إليَّ كالملسوع، رشقني ببياض عينيه من وراء قميصه الداخلي الفانيلا البيضاء، كان يلبسه فغطى نصف وجهه الأسفل ثم قال:

- يا فتاح يا رزاق!؟ فأل الله ولا فألك يا زول.

هنا أحسست أن لكلمة زول معنى آخر... قلت مشيراً بيدي:

- ما حكاية لحافك والفراش المضبوبين إذاً!

- عفواً!؟ .... رد سيد بذهول بريء.

- نعم. انظر لعفشك المهيأ للرحيل، أعطني تفسيراً لما أرى؟

وشائجُ الفرح ملأت وجههُ بعد أن رانَ عليه الفزع من سؤالي الأول، رماني بالمنشفة بكل قوته وكأنه يبعد عنه شراً مستطيراً أحاط به، ولسان حاله يقول: (أفزعتني يا شيخ.) ضحك بعدها ضحكاً ما سمعته من قبل. كان أشبه بحمحَمة حصان فرِح. ما تخيلت الأستاذ سيد بهذا القدر من الطيبة والطفولة؟! التفت إليَّ قائلاً بمرح بعد أن لبس قميصاً سماوي اللون مكوياً فوق بنطال كُحلي:

- اسمع يا السوري. معك حق تقول كدا، أصلك مانك داري بعادات الناس..

/ السوري / أظنه أراد أمراً محدداً حين ناداني بهذه الصيغة، هو يعلم أني أفتخر بإقليميتي، تحدثنا بذلك أمس بعد الغداء. ولكني لست مستعداً لمناداة أحد بهذه اللغة الضيقة ولا أرضى أن يناديني بها. فنشأتي في كنف والد ناصري يعتز بقوميته العربية جعلني أتحرّج من هذه المناداة. وكان علي أن أرد بلباقة:

- أعتقد أن لي اسماً تناديني به، أما يكفيني منك محاضرة الأمس؟ أظنه انتبه لما في لهجتي من غضبٍ وعتاب... قال معتذراً:

- عفواً حمزة. ما قصدت إزعاجك. لكن أردت تنبيهك أن لكل منا أسلوبه المميز لحياته ربما اكتسبه في العِشرة من وطنه الأم يعيشه كيفما شاء. أو ربما ورثه مع الجينات أو.. أو ربما لسبب قاهر آخر.. هذا ما أردتك أن تتذكره بمناداتي لك بالسوري. ومن ثم، تعال هنا! ماذا تقصد بمحاضرة الأمس؟ ألم تشاركني الحوار؟

- بلى.. ولكن عيار النقاش كان ثقيلاً، ومرعباً.

- كان لابد من ذلك يا أبا الحضارات، كي تدرك أن الموت صديق جميل لا يمكن الاستغناء عنه. وما أظنك إلا محاوراً من الطراز المتعب، أيها السوري الحاد الطبع.

- على كلٍّ، لا عليك أستاذ سيد، لا يهم. نادني بما شئت، السوري.. الياباني، ولكن فكّ لي أولاً أحجية عفشك المضبوب. تَراك

هبلتني..

- لا وقت لدينا. الساعة الآن السابعة ؟ وعليّ تجهيز نفسي بهندام أنيق يليق بي وبالمعهد. فاللقاء الأول مهم.

- أستاذ سيد، بقي على الدوام ساعة كاملة، أعدّ فيها الإفطار وأنا مصغٍ إليك.

كان يبتسم وهو يشد على ياقة قميصه ربطة عنق حمراء مطرزة بخط أزرق رفيع. ثم ارتدى سترة كحلية. كان طقماً أنيقاً من الجوخ الانجليزي الفاخر. وما نسي أن يتعطّر بلمسات خفيفة من عطر أخرجه من حقيبته السوداء على طرفي شاربه وأسفل عنقه، ثم فرك راحتيه ببعضهما ومدهما على صدره وظهره. تأملته ملياً. ها هو عملاق الأمس الذي طاردته الأمطار والرياح ذو العمامة المغبرّة، والجلابية المتسخة الأطراف والذي كان أقرب إلى بدوي تائه نجا لتوه من عاصفة مهلكة، قد غدا رجلاً أنيقاً وسيماً، كأنه شاب في ليلة عرسه. أخرج حذاءه الأسود من تحت السرير، نظّفه ومسحه بخرقة أعدها لذلك. ثم لمّعه ووضعه جانباً، أمال رأسه نحوي ولم ينس أني أنتظر ما يخفيه من أسرار حول هذا اللحاف. فقد أدخلني ليلة أمس في حائط فلسفته وفي حوارات متعبة. دون أن يفيدني بمعلومة واحدة تشي بسره العميق، قال وهو يقف بطوله الفارع وأناقته الملفتة أمام المرآة:

- اصطبحْ يا زول. يمين بالله إلا أفضفض لك بعد الغداء، لكن دا لحين خليني أهيئ نفسي، فالاستعداد النفسي كما قلت لك مهم في اللقاء الأول مع الطلاب. ولا بد من.. "برستيج" مناسب أحتاجه قبل الدخول...." أوكّيه " مستر حمزة؟

- "أوكّيه " مستر سيد. ألا تحتاج " ريلكس " مناسب في يومك الأول.. لا بد من مجاراتك يا أستاذ الانجليزية الأوحد في حوث...

قلت ذلك وأنا أكزّ على أسناني لبرودة دمه وأعصابه. ضحك ولم يرد..

أخرَجَ علبة تمر مميزة، من التمر العراقي الفاخر. كان قد وضعها ليلة أمس في البراد. تناول ثلاث حبات تكاد تكون سوداء وضعها في صحن أمامه، . قائلاً:

- هذه ترويقتي المستوردة من أرض الحضارات، آخذها مع الشاي الأخضر كل صباح. وهذه لك... ووضع ثلاثاً أمامي ثم انحنى وأخرج من تحت السرير علبة تناول منها ظرفين من أكياس الشاي الأخضر وضع كُل منهما في كوب. سكبت الماء المغلي فوقهما، أكلتُ التمرات الثلاث فما حوّقت ولا لوّقت. على رأي جدتي حين لا يرضيها طعام أو يقنعها مال. فأخرجت من الثلاجة صحون ترويقتي الفراتية المعتمدة. الزيتون الأخضر والأسود والجبن والزيت والزعتر واللبنة والمكدوس والبيض المسلوق. رصفت الصحون بشكل دائري فوق فرش الألمنيوم، وضعته على الطاولة أمام سيد، ابتسم واعتذرَ عن مشاركتي وليمة الإفطار لاكتفائه بما اعتاد عليه من حبات التمر الثلاث، تكفيه الجوع حتى الغداء. وضعت قليلاً من السكر في كوبي وحاولت أن أضع في كوبه.. لكنه اعترض وشكرني مازحاً وساخراً: سألقي بكلمة سُكّر في الكوب، أظنها ستطفو وتجعل الماء حلواً. فهي حلوة وشفافة.

- هكذا إذن. أنت تسخر من نظريتي وتعدها فلسفة سخيفة! لا يهم. سيثبت العلم ذلك يوماً ما.

ابتسم وهو يكرع الشاي بجرعات ثلاث أتى فيها على الكوب. خلتها ستحرق سقف حلقه. إلا أنه تلمظ مستمتعاً.. حمدَ الله وحمل حقيبته الدبلوماسية التي تحوي كتباً ومراجعَ برنامج يومه الأول. ثم استعرض أناقته أمام المرآة للمرة الأخيرة وسألني: ما رأيك؟

قلت: وهل تركت لي رأياً! أنت تصلح " مانيكان " في أفخم واجهات دور الأزياء في الشانزلزيه. شباب.. عيني عليك باردة. شباب ما شاء الله... طبعاً يا عم، ثلاثة وخمسون عاماً نزداد شباباً.

وقف بالباب أنعشه كلامي فاستنشق هواءً نقياً من الصالة ملء

رئتيه. وقبل أن يغادر غطت وجهه فجأة مسحة ألم فظيعة، ضغط على صدغيه وعض على شفته متألماً، ثم أخرج من جيبه علبة دواء صغيرة أخذ منها حبة قذفها في فمه، جئته بكأس ماء شربها.... ضرب الجدار بقبضة يده وصرخ محدثاً نفسه:

- ما كان يجب أن يعود. حكيم صنعاء طمأنني..... لكنه عاد.. آه..

ما الذي جرى، هل حسدته! أصبته بعيني اللعينة؟ لا لا فمياه عينَي عمرها ما كانت غادرة، بالتأكيد لست أنا، هناك أمر يخفيه عني هذا المارد الجميل. وما الذي عاد وماكان يجب أن يعود؟ سألته:

- ماذا هناك أستاذ سيد؟ هل تعاني من شيء؟

بالكاد سمعني فما هدأت قبضته تضرب الجدار، مرت لحظات خلتها طويلة لن تمر، لكنه استوى كسارية سفينة، لا بد من أن الحبة أخذت مفعولها، سوّى من هندامه وكأن شيئاً لم يكن، ابتسم ومد يده إلى شعري وعبث به كوالد يودع ابنه ويداعبه:

- لا تخف حمزة.. ثم أخذ نفساً عميقاً اعتقدت أنه سحب معه هواء الصالة كله وتابع: حمزة لا تدري كم أنا ممتن لوجودك إلى جانبي. أنت صديق حقيقي. أعدك في الظهيرة بحديث طويل، ستكون لنا جلسة مهمة لتفسير كل ما هو غامض..

قلت وقد انفرجت أساريري بعد أن ارتاح:

- أتمنى ذلك انتبه إلى نفسك رافقتك السلامة. وترددت قبل أن أقول: قد تكون هذه علامة؟

- العلامات دائماً تأتي أثقل وزناً، على كلٍّ، لا تهتم (عمر الشقي بقي)، سلام

- أرجو لك وقتاً ممتعاً في يومك الأول... هز رأسه ورفع كفه الممدودة حتى جبينه وحياني قائلاً:

- لقاؤنا بعد الظهر! تركتك بخير.. وخرج يسبقه سواكه بين أسنانه البيضاء المتراصة.

جلست إلى الطاولة شارد الذهن في هذا الأفريقي الغريب، تناولت فطوري شارداً وتهيأت للدوام، دوامي لهذا اليوم يبدأ من الحصة الثالثة في ذات الصف الذي ينتهي منه سيد. رتبت السرير وخرجت.

كان نواف التدمري أول من التقيت عند باب المعهد، دخلنا سوية، والأولاد يملؤون الباحة، فهي الفرصة الأولى بعد حصتين متّصلتين، توجهت إلى غرفة المدير، نقرت الباب المفتوح ودخلت. وقف الأستاذ أحمد الحوثي وراء مكتبه العريض واستقبلني ببشاشته المعهودة. ولكنها كانت هذه المرة مغلّفة بسؤال كبير سأله بعينيه ويديه، عن أحوال ضيفي الكبير وشريك غرفتي.

تحدثنا قليلاً ولم أسهب. فقد رنَّ جرس الحصة الثالثة ملازماً لدخول عبدو القليوبي إلى الإدارة. وقد استبدل رباط عينه بلاصقة صغيرة. وبدخوله خرجت فوراً وأشعرته بذلك. صعدت إلى قاعة الدرس في الطابق الثاني، لاقيت زياداً ومحمداً النبطي منتصف الدرج أشارا لي أن صاحبنا العملاق فوق، في نهاية الممر. وقبل وصولي الصف الذي خرج منه سيد اقترب مني حاتم الشيباني، وهو طالب سنة أولى في المعهد، مليح الشكل نظيف اللباس تظهر عليه أمارات الذكاء والنباهة، حياني بأدب قائلاً:

- أستاذ حمزة، أبلغك تحيات والدي، ينتظرك الليلة في بيت الأستاذ أحمد.

- أهلاً حاتم.. بلّغ والدك تحياتي. إن شاء الله أزوركم الليلة.

أراد أن يقول شيئاً آخر، لكنه تردد ثم دخل الصف. وفي نهاية الحصة أثلج صدري حديث الطلاب عن الأستاذ سيد وإعجابهم الشديد بالأسلوب المشوق الذي شرح به الدرس. قال حاتم:

- لقد تخلصنا من استغلال المدرس صلاح.

- أريدكم أن تتعاونوا جيداً مع الأستاذ سيد، أنا أثق بإمكاناتكم وذكائكم.

عند الانصراف من المعهد كنت أسير صحبة أبي طلال ومحمد النبطي، حين انضم إلينا زياد ونواف التدمري، اللذان همسا لي أن الغداء اليوم في غرفتهما. فقد أعدّا وجبة محترمة، تليق بضيفي الكبير. وهي إكراماً لي بالطبع. وضعت كفي على صدري وقلت بأدب جم:

- جهودكم مشكورة، أردّها لكم إن شاء الله بالأفراح. يا أولاد الأكابر.

هما بطبيعة الحال يعملان الغداء كل يوم. فنحن متفقون منذ بداية العام الدراسي الفائت على ذلك وأظنهما كانا يقصدان الزيادة في كمية الغذاء والمصروف.. فقد دعوت النبطي وممدوح للغداء والدكتور فيصل.. تلفتُّ حولي أبحث عن سيد، لم تتح لي رؤيته في المعهد. ردّ نواف:

- أظنه سبقنا إلى السكن. لديه فراغ في الحصة الأخيرة..

***

- 2 -

كان سيد قد بدّل ثيابه ثم توضأ وصلى الظهر وجلس إلى الطاولة الخشبية الكبيرة يكتب في دفتر يومياته..... تحررت من ثياب الدوام وأخذت حماماً سريعاً. ثم لبست دشداشة خفيفة، ولبس سيد ثوباً أبيض، ولم ينس عمامته.... ثم صعدنا إلى غرفة زياد والتدمري، لم ننتظر طويلاً، كان غداءً ممتعاً، حضره محمد النبطي مدرس الفقه الإسلامي. وممدوح أبو طلال مدرس الفلسفة. هما أيضاً يسكنان في غرفة واحدة في الطابق الأرضي.. شربنا المرطبات المثلجة وكان قد جاء بها ممدوح من براكيته التابعة أصلاً لأبنية حوث التعليمية وقد استثمرها منذ عامين بعقد أبرمه مع الأستاذ أحمد الحوثي لقاء نسبة اتفقا عليها. ونزلنا كل إلى غرفته.

بدأ سيد بفك الحزام عن الفراش واللحاف. رتبهما فوق السرير بأناقة وعناية بالغة. ولم ينس أن يداعب وجه الميدوزا المخيف فوق لحافه الرقيق. ثم قال:

- أكلهم طيب. والجلسة كانت ممتعة، مجموعة ظريفة من الأصدقاء. أبو طلال والنبطي أظنهما بدويين؟ هززت رأسي ولم أعلق على ملاحظته فما زلت أنتظر وعده لي بأن يحدثني عن حياته وعن سرّه الصغير.

تظاهرت بأني أهيئ فراشي لقيلولة بعد الغداء. وهذا ما كنت أفعله عادة كل يوم. ولكني مستعد الآن للتخلي عن هذه العادة، لقاء فضولي في كشف حياة هذا الشريك الغريب. لاحظ ترددي في الدخول إلى فراشي ومحاولاتي الفاشلة في توضيب أطراف السرير. رمى عمامته على الطاولة فتدحرجت ثم وقعت على الأرض قريباً مُن سريري، حملتها، كانت ثقيلة لكنها لا تزيد عن وزن كفن، لمحت على طرفها

الأيمن نقشاً بخيط أزرق لحرفين (س ، ع).. قلت مازحاً وقد لمحني أقرأهما:

- الحرف الأول سين وتعني سيد. والحرف الثاني عين وتعني عملاق...

- مشّا الله فالح في فك الرموز، يا أستاذ.. سين تعني سر، وعين تعني عميق.

هرشت رأسي. إذن هو يقلب الحقائق. لم ينس موعد الظهيرة ويدرك أني أنتظر سره العميق.. فتلت وجهي تجاه الباب متخذاً وضعية الغاضب، ملتزماً صمتاً مفتعلاً. وبعد لحظات من الصمت المتواطئ من طرفينا، لم أصبر كانت الكلمات في صدري كالحصى تتلاطم. قلت فجأة:

- الحرف الثاني / عين / هو رمز الحبيبة. صحيح؟ ...

- صحيح. أحسنت حمزة ..

تراءى لي أنه يضحك أو يسخر. على كلٍّ هي البداية فقط.

ألقيت بنفسي على السرير تسطحت على ظهري وشبكت أصابعي تحت رأسي مسدداً عيني إلى شقوق في السقف كنت أتابعها منذ فترة.. أشكّل منها أجساداً حيوانية لها رؤوس آدمية بشعة لزملاء في السكن لا أحبهم حتى يغلبني النعاس. هي البداية إذاً. هكذا الأمور تبدأ دائماً بالحرف الأول من اسم الحبيبة وتنتهي بمأساة.

أما الآن. قررت أن لا نعاس ولا نوم، قبل أن يتفنن سيد في سرد ذكرياته وماضيه، وشيئاً من آماله وأحلامه كما فعلت أنا بالأمس.. طال انتظاري.. بدوت مرهقاً، قليل الثرثرة على غير عادتي. رغبت سماع موسيقى، لا لم أرغب بل تظاهرت بذلك، أردت إشغال نفسي بشيء ريثما يتهيأ أو يتكرم سيد بالحديث، فمددت يدي لأضغط على زر التشغيل للمسجل.. لمحت جواره شريطي كاسيت للمطرب الشعبي الرقي حسين الحسن، الكاسيت الأول اسمه عامود البيت، والثاني رحل قلبي، قلت في نفسي هذا يفي بالغرض تماماً.

وضعت الثاني في المسجل وأدرته، كان عتابا فراتية حزينة مع الربابة كافية للقتل من الآهة الأولى وللذبح من الأوف الثانية. حزن عظيم سيغلفني بالتأكيد ريثما يحن السيد سيد ويتكرم بالحديث.. لكنه عاجلني بدفترٍ لمذكراته أخرجه من حقيبته السوداء. كان واقفاً، مدّه نحوي ثم وضعه على الطاولة قائلاً:

- حمزة تلاقيني في هذا الدفتر، ذاكرتي وحياتي وأمانيَّ وأحلامي.

- رائع. ولكني أرغب سماعك تحدثني وجهاً لوجه. بروحك ونفسك كما فعلتُ أنا بالأمس، لا بدفترك.. دعني أرى ملامحك تتنقل بين الفرح والحزن والألم واللامبالاة أراها في حالات المد والجزر... هكذا ترتسم الصورة بذهني أكثر.

- كما تشاء حمزة أفندي. غالي والطلب رخيص. ولكني لا أضمن لك ذاكرتي. فقد بدأتْ تخذلني في الآونة الأخيرة، لذا عليك الاستعانة بالدفتر الأسود.. ثم وضع يده على رأسه وكأن ألماً ألمَّ به.

- أستاذ سيد، لم كل هذا الاحتفاء باللحاف؟ كأني بك تهيؤه لامرأة قادمة! .. سألته راغباً في جرّه للحديث عن نفسه وكأني لم أستمع لتبريره

- بدأت المقصلة. نعم يا صاحبي أهيؤه لامرأة قادمة.

- وهل صاحبته، ذات الرمز عين؟

- نعم هي... حضرة المحقق.

- أنا آسف، ولكنك ضنين بحديثك عن نفسك، تجعلني اسحب الكلام منك سحباً.

- حسناً.... نعم.. هي صاحبة الحرف/ ع / واسمها عائشة.

- هل ستحدثني بالألغاز هكذا؟

- أنا أكره الألغاز.

- أشك في ذلك. واسمح لي بهذا التخمين، أراك تراها في لحافك،

أقصد تتخيله امرأة تدللها كل ليلة قبل أن تنيمه أو تنيمها فوقك باعتبارها لحاف.

ابتسم وأخذ يتمعن باللحاف أكثر.. خشيت أنني اقتربت من خطوط حمراء وضعها سيد في حواره معي. إلا أنه شبك أصابعه في حجره وهو جالس على سريره. وقال:

- ألا ترى معي يا حمزة أن للحاف خصوصية تميزه عن باقي الأشياء. أقصد أنه أقرب للإلتصاق بالجسد، في ما يشبه خصوصية المعاشرة مع المرأة.

فاجأني الرد، بل أدهشني. كيف يكون اللحاف كما المرأة، لو قال الوسادة، لكان ذلك ألطف وأنسب.... أردت أن أفلت زمام الشك والتساؤل في نفسي، فنظرت إلى وجه الميدوزا على لحافه ومططت شفتيّ، موحياً إليه أنها هي من تستحوذ عليه بهذه الأفكار الشريرة؛ وهي من تمنحه كل هذا الإحساس وليس امرأة أخرى. مادامت تحتل المساحة الأكبر من وجه لحافه. ثم قلت:

- المسألة نسبية يا صديقي، فالوسادة قد يكون لها خصوصية المعاشرة أكثر، فهي أقرب إلى حالة العناق والضم، والمعاشرة أيضاً. وتذكُر الوسادة الخالية لإحسان عبد القدوس..

قاطعني محاولاً توضيح فكرته:

- طيب، طيب. اسمح لي بسؤال. لو تبادلنا الأماكن أنام أنا تحت لحافك وتنام أنت تحت لحافي. ودعني أسألك بعدها: هل استطعت النوم بذات العمق.... وراودتك ذات الأحلام... واستطعت أن تلف من تحب بذات الحميمية التي كنت؟.

- لا أستطيع الجزم، لم أجرب. وربما أقول لا؟ لأننا ما تبادلنا اللحافين فقط! بل الفراش والوسادة والملاية وحتى السرير؟

- حمزة؟!. لا تعقّد الأمور أنت مدرك أن للّحاف خصوصية تتعلق باقترابه الحميم والمباشر من أحلامنا والتصاقه الدائم خلال النوم بأجسادنا أكثر ما تلتصق بها أجساد نسائنا حتى؟

- في هذه، معك حق... نعم ... ولكن الأمر برمته لا يتعدى الالتصاق. ولا يحتاج منك كل هذا القلق والاهتمام. ولا أظنه يحتمل فلسفة خاصة؟!

- كيف لا يتعدى الالتصاق؟ ألم تختبىء تحته يوماً خوفاً من أمك وأنت صغير؟ أولم تحتضنه هرباً من حلم أفزعك، أو تشده إليك خجلاً من ضوءٍ كشفَ سوءتك.. ألا تشعر بالأمان وهو فوقك، وأنت تشمُّ رائحة عطرك ممزوجاً برائحة عرقكَ فيجعلك تستلقي على ظهرك مبتسماً، تشبُكُ يديك تحت رأسك؟ ألا يمنحك الدفء في ليالي الشتاء القاسية والزمهرير وغضب الطبيعة، ألا ترى أنه يغطي كل النساء اللواتي يختبئن معك ويعبثن بدماغك وبأحلامك غير المباحة. هزائمك وانتصاراتك؟ على كلٍ.. هذه قناعتي ولن تتغير أياً كان رأيك! وسيلازمك منظر التحزيم هذا حتى يوم الحصاد!..

- الحصاد! ما بالك؟ لم يبق جدار في هذه الغرفة لم أدخله بعد! أي حصاد؟

- نعم، حصاد الروح. ألم يزرعنا الله في هذه الأرض. إذن لا بد من يوم يحصدنا فيه واحداً، واحداً وليس هناك سرّ أخفيه أو أخشاه، كلُّ ما في الأمر أني أختار موتي على طريقتي، أو أتهيَّأُ لموتي كما أشاء.

- يارب الأرباب! ألم نكن في اللحاف والمرأة والمعاشرة والأحلام، ما دخل الموت بذلك؟ تكلم عن الحب، عن الحياة.... الحياة ليست ماءًا راكداً. هي نهر متدفق الجريان، والسعيد السعيد الذي يجتازه حتى الضفة الأخرى. اغرف منه وحدثني

- لم لا تقول أن اليابسة هي الحياة، والنهر المتدفق هو الموت. وعليك مواجهته والفائز الفائز من يعبره إلى طرف الحياة الآخر. حمزة، أنا عشت في بيئة قدرية. حين أحزم لحافي، أكون قد حزمتُ أمري لملاقاة قدري. وما رسمه لي لهذا اليوم، هكذا عندي الحياة..

- تقصد، بمجرد خروجك تتوقع أن تحصل لك مصيبة، أو يغتالك شخصٌ ما؟

- هو ذاك.

- هو.. ذاك! وكأني بك تبحث عمَّن يغتال من روحك الجسد..! أستغرب منك هذا الكلام! ولا أظنه يصدر عن مثقف مثلك. عذراً، ولكني أخمّن أن في الأمر سراً وأنت تدور حوله. وتحضُرني الآن كلماتٍ قالها سانشو لدون كيشوت وهو على فراش الموت، وكأني بك تتبناها فلسفة لك، يقول: " إن أكبر جنون يمكن أن يرتكبه الإنسان هو أن يدع نفسه يموت دون أن يقتله أحد، ودون أن يجهز عليه شيء من الحزن. " هل الأمر على هذا النحو؟

- هو ذاك.

- مرة أخرى هو ذاك! أراك تبحث عن مبررات كي تتلقى الموت اغتيالاً.. أمرك عجيب واللهِ.... طَيِّب.. على فرض أنك ما حزمت لحافك يوماً ما. نسيت وخرجت و.. قاطعني بشدة:

- لا تُكمل، مستحيل.. فما نسيت مرة منذ وفاة أبي أن أحزم فراشي واللحاف. أي منذ سبعة عشر عاماً. فقد أوصاني بألاّ أسمح للموت أن يأخذني على حين غرة، وعليّ أن أُهيئ روحي للقائه كل حين، وأعطاني لحافه هذا، كي لا أنسى وصيته.

- هذا اللحاف كان لأبيك؟

- نعم كان لأبي. كنت فتياً حين أعطاه إياه خبير يوناني، كان يعمل معه في الوزارة.

- تعني أن اللحاف يوناني الأصل؟ كالميدوزا

- نعم، وماذا في ذلك، هل ستطرح ثانية موضوع الحضارة الإقليمية، وأن حضارتنا تحتوي ألحفة أجمل وأدهى ومعبرة عن الموت أكثر ..

- لا لا. لن أقول شيئاً من ذلك... ولكن أقول على فرض أنك نسيت، خذني على قد عقلي أرجوك نسيتَ وخرجت .. أقصد خرجت دون أن تربط لحافك والفراش! أفلا تتوقع أن يغتالك الموت؟.. حادث

مرور مثلاً سكتة قلبية، حوار مع الشيخ عبدو.. احتمال رصاصة طائشة على حين غرة، كما تقول. أو..؟

- احتمالات كلها تأخذ درجة زيرو.. لقد عقدتُ اتفاقاً ودياً مع الموت. أو سمّه عقدَ مصالحة.. أول بنوده: ألاّ يأتي فجأة.. بل بإنذار مُسبق. إشارة.. كسر يد، قدم. إصابة تؤدي إلى إعاقة دائمة.. جلطة خفيفة في القلب.... ورم صغير في الدماغ.. أي لا بد من علامة حتى لو كانت رسمة على جدار..

- أرى أحجارك بدأت تتساقط علي؟

- لم تأت الأحجار بعد..

- ماذا؟!

- هذا أولاً.. أما ثانياً: على الموت أن يختار لحظة القبض. على أن تكون وأنا في كامل نقائي الروحي. أي في حالة وضوء، صلاة، تلاوة، ...هيام..

- هل من المعقول أن يتجرأ عليك الموت وأنت في حالاتك تلك؟

- طبعاً يتجرأ إن لم يكن هناك اتفاق مسبق. فما زلتُ أذكر كلماتٍ لأبي: لا تخف من الموت. هادنه إن لزم الأمر، ولكن لا تخف منه. لا تركض أمامه سيلحق بك... واجهه، اعقد معه صلحاً إن تطلّب الأمر، ولو إلى حين. المهم أن تتحكم به وليس العكس. اتل صلاتك الأخيرة بعد كل فرض، نم، واجعل موتك في لحافك قريباً من جسدك الفاني... ولا تنس أن عمامة السوداني كفنه.

- عفواً ... كيف مات والدك؟

- والدي كان رجلاً جاداً أكثر من اللازم. والجدية برأيي شكل من أشكال الحزن. والحزن أولى درجات الموت... أبي ينطوي على بحيرة من الأحزان. وما فتك به سوى حزنه الكبير على فراق والدتي، هو لا يختلف كثيراً في حزنه وموته عن صديقك الفنان ياسين..... لذا يا حمزة أرحني من الكلام واقرأ الدفتر وكما قلت لك لا أثق بذاكرتي كثيراً.

بريق ما التمع في سماء عينيه. أظنهما دمعتين عيتا النزول، غطى جبينه براحتي يديه، ثم استدار وكجبل من ثلج تململ في مكانه، مسح عن ذقنه الخشنة رماد السنين ثم مرر السبابة والإبهام على زاويتي فمه كأنه يهيؤ لحديث طويل...

- أستاذ سيد هل تعاني مرضاً ما في رأسك؟

- أقول لك لا أثق بذاكرتي. فتسألني عن مرض في رأسي!

- ما سبب الآلام التي عانيتها في الصباح؟

- أنت لحوح يا حمزة ... أنا أحترم قلقك عليّ وسؤالك عن صحتي. ولكني.. لا أشكو من شيء.

- بل تشكو... أنت تخفي عني أمراً!؟

- حمزة.. أنت تسأل مباشرة.. طبعك حاد.. أنا ....أنا لا أخفي.... دعني أرجوك

- أنت لا تثق بي... نظر إلى الباب وتأكد من إغلاقه وقال:

- حمزة. أنا أعاني من ورم في دماغي، ارتحت؟

وكأنه رفع قدمه عن لغم أرضي كان يقف عليه طوال الوقت... صرخت به:

- ماذا؟! ماذا تعني بورم؟

أول الأمر لم أستوعب كلمة ورم. أو بالأحرى أبعدت معناها الآخر عن ذهني، ولم تعن لي أكثر من ألم قوي كالصداع النصفي أو الشقيقة. بلعت ريقي وقلت بتردد:

- أنت لا تعني الذي.. أخشاه؟

- بلى أعنيه.. هو.. هو الذي تخشاه.. بعينه، ورم خبيث.. سرطان. أنت تخشاه، أما أنا فلا أخشاه. هل فهمت ما أعني يا صديقي الطيب. هل أدركتَ لمَ أهادن الموت وأعقد الصفقات معه. أستمهله قليلاً ريثما أجد المرفأ المناسب لألقي سفينتي المتعبة عليه.

يا إلهي. ماالذي يجري؟ أي لعنة أحملها لمن أحبهم. لمن أرسمهم على

ورق من ضباب الذاكرة.

بالأمس القريب فقدت أخي عبد الناصر. ولطالما كنت أرسم وجهه الأشقر الجميل يعتلي قامته المديدة. وما زال رسمه بالفحم مؤطراً ومعلقاً على أحد جدران بيته.. كنت أداري نزقه الأبيض وحماقاته البيضاء البريئة في ثنايا روحي كما أداري الياسمين في أغصان الصباح، وأرسم على روحي ضحكته الطفولية الندية كالمزنة أودعها بين أوراق الذاكرة، ناصر كان أصغر من مروان واسطة العقد بيننا نحن أخوته الخمسة، ناصر كان رحمه الله أجملنا شكلاً وأحلانا روحاً. أقربنا إلى أبينا وأحبنا إلى أمنا. غادرنا بمرض خبيث. فاجأه سرطان المعدة.. أمهله شهراً واحداً من العذاب القاتل والانتشار السريع في ضفاف رئتيه وكبده وكليتيه وكل خلايا جسده ثم تركه عينين غائرتين زائغتين وهيكلاً بلا حول ولا قوة. لكنه استطاع في غيبوبته ولحظاته الأخيرة أن يرفع سبابته اليمنى، تمتم معها بالشهادتين وأغمض جفنيه للأبد. وكان يوم جمعة حزين اكتظت فيه الرقة بجنازة مهيبة لرجل مجبول بعطر ونور..

وقبله بعام أو أكثر كان رحيل ياسين صديقي الفنان الذي كان يجالسني لساعات طويلة حين يزورني في مرسمي. كنت أرسمه دون أن ينتبه وهو يقرأ في مجلة أو حين يبحث عن كتاب في المكتبة. كان ياسين يتميز ببروفيل جانبي جميل لرأسه يغري بالرسم، أخط له كروكيات سريعة. منها بقلم رصاص على هامش صفحات كتاب أقرأ فيه.. أو بأصبعي على غبار بلّور الطاولة أو باللون الأبيض على صفحة من الكانسون الأسود.

مازالت الرسومات محفوظة في أرشيفي وفي أوراق من ضباب الذاكرة.

جلس سيد وأظنه ندم لتسرعه في إخباري عن ورمه الخبيث حين لاحظ حجم الألم الذي تركه في نفسي.. تناولت كأساً ملأتها ماء وقد امتلأت عيناي برذاذ حارق، تراجف الدمع فيهما. قذفت الماء في جوفي

لعلي أطفئ النار التي استعرت في دمي. قلت له وأنا أتخيل نفسي كيف سأرافق ساعاته الأخيرة في هذه الغرفة:

- قلت لي أنك تبحث عن مرفأ يليق بأيامك الأخيرة! ومن دون مرافئ رب العالمين اخترت غرفتي أنا مرفأً لتحط سفينتك فيه؟ كم أنا محظوظ بك يا أخي!.. لمَ يا صديقي. لمَ أنا بالذات معنيّ برحيل من تآخيهم روحي؟ عذراً.. ليس من حقي أن ألومك، فأنت لم تختر المرفأ. أنا صاحب القرار في اختيار مرساك. أنا من قرر في اجتماع الأربعاء أن السماء لايضيرها كثرة الغيم. وأن البحر لا تعنيه كثرة السفن.. أواه يا بحر كم غرقت وتغرق فيك سفن..

- حمزة لا تلم نفسك، مازلنا على الشاطئ. دعك من تأنيب الروح، سأبحث عن مرفأ آخر...

- أنت لم تفهم ما أعني، عفواً.. أنا أفكر بصوت مرتفع.. عم سيد، بي رغبة قوية للبكاء.. ليس على أحد، بل على نفسي.. لن تغادر المكان.. الأمر خرج من أيدينا. ألم تقل أننا أناس قدريون. هوذاك.. هوَ ذاآآك.. القدر. ليكن فليأت بخيره وشره.. ولكن هذا لن يعفيك من الحديث عما نويت أن تحدثني به.. أخبرني كيف عرفت بهذا الورم اللعين؟.

- خلال وجودي في صنعاء جاءتني نوبة ألم فظيعة في رأسي، كنت أقيم عند صديق سوداني اسمه آدم، بلدياتي من أم درمان، أصر على أخذي لمشفى الأمير زايد، وهو من المشافي الحديثة والمجهزة بأحدث التقنيات الطبية في صنعاء. وهناك أجروا لي تصويراً بجهاز الطبقي المحوري... شك صديقي بالنتيجة فطلب إعادة الفحص.. وكانت المحاولة الثانية مؤكدة للأولى وهي الفصل..

أخبرني حينئذ أن ورماً من الدرجة الرابعة يسكن تلافيف مخي، لا يمكن إزالته إلا بعمل جراحي. خاف عليّ آدم من الغفلة القاتلة في هذه الغربة اللعينة لذلك أخبرني.. أحالوني إلى مشفى الطب النووي، وهناك أخبر الطبيب المختص صديقي آدم أن حياتي قاب قوسين أو أدنى من

أربعة إلى ستة أشهر. أخذت الجرعة الأولى من العلاج الكيماوي.. والسبت القادم موعد الجرعة الثانية، فهي تؤخذ كل ثلاثين يوماً....

كان سيد هادئاً، هدوء بحار يتخذ قراراً بمواجهة إعصار يحيط بسفينته. هو ذاك. بدا وكأنه يتحدث عن شخص التقاه مصادفة في صنعاء. عن رجل من كوكب آخر أصابه ورم من الدرجة الرابعة أو السابعة وكأن الأمر لا يعنيه...

أي شجاعة تمتلك أيها الأفريقي المثقل بالموت والماء والرمل وأشرعة سفن لا تعرف الرسو في مكان لأكثر من زمنِ نزف جرح في خاصرة قلب.... نبَّهني سيد منادياً بمرح:

- هيه يا أخينا.. إلى أين رحلت مراكبك.. حمداني يا طيب، ما أرضى تحزن بسببي. ولا أرضى أن تشفق علي.. قلنا لك إن الحزن أول درجات الموت. وأنا أجّلت موتي باتفاق بسيط مع صديقي اللدود الموت. من يدري ربما عام، عامان. أو حتى عشرة علمها عند رب العباد. "وهل تدري نفس بأي أرض تموت "

ما زلت مأخوذاً بكلامه وبرودة أعصابه. أنا أعلم أن هذا المرض لا شفاء منه. وأن الاستسلام له يسرّع الفتك بالجسد وقتل الخلايا، وما يؤخّره إلا الإيمان والصبر وقوة الإرادة، وما غاب عن خاطري نوبات الألم التي كانت تنتاب أخي ناصر بعد أخذه الجرعة الأولى. ونبهنا طبيبه "نوفل" الجشع الذي ما أخبرنا عن مرضه إلا بعد أن استنزف وقتنا ومالنا، كان يعلم منذ البداية أن معه ورماً خبيثاً في معدته إلا أنه لا بد من أن يمر المريض على أجهزته الحديثة واحداً واحداً، ومع كل مرور هناك رحلة من الآلام وإدخال الأنابيب والتنظير والتصوير إلى أن اقتص له الورم من معدته وهذا ما جعل المرض الخبيث ينتشر بسرعة كبيرة في أحشائه. فقط ليبتز المال بحجة الكشف والتأكد. وبعد رحلته المريرة في عيادة نوفل اللعين أحاله في يومه العاشر لمشفى الطب النووي، وأنبنا الطبيب هناك على أننا تأخرنا كثيراً وأننا كنا ضحية سفّاح لا يخاف الله استغل جهلنا في أمور هذا المرض.

وبعد الفحوصات أخبرنا الطبيب النووي أن مريضنا بقي له من العمر ثلاثة أشهر تزيد أسبوعاً أو تنقص. ربما أراد أن يعطينا جرعة من الحياة في إبرة الوريد التي زرقها في ذراعه حين حملّها ترياق الأمل الكاذب.. فلقد " كذَبَ الأطباء ولو صدقوا ". ما كنت أكره في حياتي شريحة جشعة مثل هذه الشريحة.. فما أكمل ناصر أسبوعاً بعد الشهر حتى فارقنا.... تساقط شعره، وتساقطت نتف قليلة من لحيته الخفيفة الجميلة التي كانت تزين وجهه الوسيم، خشيت أن يراها أو يرى مكانها أبيض حين تعكس المرآة ماتبقى من ملامحه، فجئت بالمزيّن أراحه منها ومن شعر رأسه. وكان ناصر رحمه الله يعلم بمرضه ودنو أجله، منذ أحاله نوفل اللعين إلى الطب النووي.. وما كان يطلب من الله إلا أن لا يطول عذابه ويكون موته صباح يوم جمعة.. ليكسب جنازة عظيمة يخرج بها كافة المصلين يدعون له بالرحمة والمغفرة.. واستجاب الله لرغبته..

ما كنت قبل فراقه أعرف أن الجرعات هي التي تقتل خلايا الشعر فتجعله يتساقط، كنت أحسب التساقط من أعراض المرض الخبيث. حك سيد أرنبة أنفه حين لاحظ شرودي وسأل:

- بماذا يفكر الحمداني؟ ...

ما حدثته عن أخي ووفاته، فليس من اللائق ذلك.. وهو يحمل ذات المرض.. بل فتحت عيني على وسعهما وتنفست بصعوبة وكأني نسيت طوال هذا الوقت أن أتنفس. ثم تأملته وكأني أراه لأول مرة. لا بل كنت أتملى وجهه أكثر، أختزن تفاصيله في الذاكرة أكثر... عيناه واخضرار الزيتون فيهما، أنفه واستقامته المذهلة. لحيته البيضاء التي ضيّق مساحتها وشذب اليابس منها. دعجات الحزن تحت عينيه وعلى جانبيهما...سماره الغامق وبياض عمامته بحرفيها الأزرقين.و..

أمسك سيد بيدي وضغط عليها كأنه يصحبني من غفلتي إلى صحو يريدني أن أستمع فيه بكل جوارحي إليه... عبث بشعري كوالد يطيّب خاطر ولده الغاضب:

- اصح ودعني أسترسل.. أنا بحاجة للكلام عن كل شيء.. طفولتي ودراستي وغربتي وزوجتي وعن أبي وأخوتي. حمزة أنت حدثتني في تفاصيل لا تهمني ولكنها أمتعتني وجعلتك قريباً أكثر مني.. وأريدني أن أكون قريباً أيضاً أكثر، منك.

ثم شرع يهدر من خزائن أنهاره، شلالاً قلقاً تحت سماوات صامتة وبأريحية رجل شجاع لا يهاب الموت: حمزة، وحق من خلق الخلق، وجمعنا من غير ميعاد. يراودني إحساس أن تشخيص صنعاء باطل بالنسبة ليا، دا إحساسي... الزول منّا هوّا اللي يشخص روحه، أمَا يقال قلب المؤمن دليله.. أنا أعرف ناس عاشوا عشرين سنة ومعهم المرض الخبيث.. وناس عرّسوا بأحسن بنات وهم يحملون المرض الملعون بدمهم.. وناس يعيشون بنصف معدة، وبكلية واحدة، ورئة واحدة.. حمزة دا حين أحدثك وأنا مرتاح. وانس موضوع الورم وكلام الأطباء.

- أستاذ سيد. يومك كان حافلاً، أنا أحلّك من وعدك لي بالحديث عن حياتك.

وكأني رميته بماء النار.. انتفض غاضباً وأمسك بتلابيب صدري وجرّني إليه وزمجر بوجهي:

- حمزة هل تعطف علي؟ أنا أكره الشفقة والعطف أنا لست مريضاً.. وإذا كنت ستعاملني على هذا الأساس فليس لي وجود معك! هل تسمع يا حمداني.. أكره أن تشفق علي. أكره....؟!

ماذا فعلت حتى غضب كل هذا الغضب.. انتبهت إليه كان يعتصر ألماً رهيباً في رأسه. رمى العمامة على السرير وأخذ يضغط رأسه بكلتي يديه ، ثم انحنى ليتناول حقيبته السوداء ليخرج منها الدواء وكاد أن يقع حين اختل توازنه لكنه استند إلى طرف السرير ثم جلس عليه وتناول حبة وناولته بسرعة كأس ماء. مرت دقائق كالتي مرت في الصباح وخلتها لن تمر أيضاً.. يبدو أن الألم كان مريعاً وفظيعاً، فقد كان يلوّح ذراعيه في فضاء المكان مجاديفاً من غضب ونار..

عضَّ على شفته السفلى حابساً صراخاً يخجل من إفلاته أمام غريب

أبيض اللون يصغره بثلاثة وعشرين عاماً.. أدمى شفتيه ودمعت عيناه ثم تمدد على ظهره وأخذ نفساً عميقاً.. هدأ الألم، ونظر إليّ ثم ابتسم وقال بمودة وحب:

- لقد أخفتك.. اعذرني حمزة.. أنا أكره أن أُعامل مثل معاق لا يقدر على خدمة نفسه.. تأكد حمزة أنا مثل النخيل لا أموت إلا واقفاً. فلتتساقط أوراقي كيفما شاءت ولتتقصف أغصاني مثلما تريد.. فلن أموت إلا شامخاً.. وبالطريقة التي أختارها.. سأمضي طواعية إلى حتفي..

حمزة إما أن تعاملني كإنسان كامل غير منقوص وإلا فلا.. هل تدرك ما أعني.؟ حصارك واهتمامك بي يجعلان حريتي أقل. يقول همنغواي " كلما كانت الحرية أقل كان الإنسان أقل " وأنت لا تريدني بنظرك إنسان أقل؟ حمداني أبو تغلب، أنا بحاجة لأن أغفو قليلاً، فهذا الدواء يرخي الأعصاب ويجلب النعاس. قلت مشدوهاً دون تفكير: كما تشاء.

تركته يغفو فوق الميدوزا.. غطيته بلحافٍ ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بهدوء.. لفحني هواء الصالة البارد، تابعت المشي حتى تجاوزت حرم السكن وما أحسست نفسي إلا وأنا أمام براكية أبي طلال. استقبلني بوجه بشوش، لاحظ أني متكدر. قدّم لي زجاجة عصير وقال:

- روّق. ترى الدنيا ما تسوى زعل. على رأي ياس خضر... ماهي أخبار ضيفنا العزيز الأستاذ سيد؟.

- تركته نائماً.

- تراه تعبان من دروس اليوم، الله يكون بعونه. قلت في نفسي: اليدري يدري والما يدري يقول تعبان. كانت كراسي القش الصغيرة أمام البراكية موجودة بشكل دائم ، جلست على واحد منها.

ما طقت البقاء أمام البراكية، رغم احتفاء ممدوح بي.. فكرت أن أجلس قليلاً لياقة مني وأسأله عن أحواله.. لم أستطع.. فالزبائن لم يتركوه لحظة يتفرغ فيها لي..

كنت أتساءل فيما حصل لسيد، ولم أحسب له حساباً بعد.. فكيف سأتعامل مع شريك غرفتي المصاب بمرض خبيث؟ أولاً السؤال المُلح لماذا يخفي الأمر! وطلب مني ألا أخبر أحداً بذلك. وثانياً هل يعلم الأستاذ أحمد الحوثي بالأمر؟ لا أظنه يعلم. وإلا لما قبله مدرّساً في حوث. هناك حلقة مفرغة لابد من ملئها. لوّحت لممدوح وغادرت المكان دون أن أسأله عن شيء.. توجهت عائداً إلى السكن.. وما إن اقتربت من الرابية الوطيئة التي تفصل بين المسجد وبراكية ممدوح حتى لمحت طيف الآنسة غزالة.. مدرِّسة اللغة الانكليزية في مدرسة البنات، قادمة باتجاه البراكية تعبر الطريق من جوارها إلى بيت الحوثي.. عرفتها من قوامها الرشيق ومن مشيتها المميزة التي لا تكاد فيها أن تلامس الأرض. وتختلف عن باقي النساء اللواتي يمشين كتلاً سوداء واحدة كيلا ينتشر السواد وضح النهار ويخلق فتنة بين الخلائق. وما كنت أعرف أحياناً إن كن مقبلات أم مدبرات. وغزالة رغم أنها ترتدي عباءة سوداء تلفها على جسدها إلا أنها مختلفة.. فهن لا يتركن سوى مساحة أفقية مستطيلة في الوجه بحجم قلم رصاص تسمح لهن بالنظر منها بعينين قلقتين. وحتى هذه المساحة الضيقة غالباً ماينسدل عليها رداء أسود. عدا غزالة الفتاة الحضرمية التي رضيت التدريس في منطقة نائية نصيبها من الحضارة نصيب الشرق الأوسط من السلام والديمقراطية.

كباقي الحضرميات.. غزالة ما كانت تتقيد بمساحة قلم الرصاص فضاءًا لعينيها وأنفها وفمها بل كانت تُبدي كامل وجهها. تكتفي بحجاب للرأس فحاجباها المشوقان كسيفين متعاكسين فوق عينين جميلتين وسط بياض وجه مدور كالبدر كان يلفت الانتباه بالتأكيد وسط هذا السواد المعتم من السواد الأعظم في الملافع والملاءات والبراقع. اقتربت غزالة مني، ارتبكتُ قليلاً فما زلت قريباً من براكية أبي طلال، وليس من السهل أن تقف مع فتاة يمنية لا تخصك وليست قريبة لك! لو كنا في صنعاء لكان الأمر مختلف. تلفتُّ حولي، لا أحد يرقب أو يتلصص أو يضع يده فوق مقبض خنجره تحسباً لأي

طارئ، كان الوقت قبيل صلاة العصر، والناس في بيوتهم يقيلون أويقوّتون. رغم ذلك الأمن والأمان كان إحساسي بالخوف وأنني مراقب جداً، بل أحسست أن حوث كلها تراقبني.. حيّتني المخلوقة بصوت عذب أيقظني من إحساسي وشرودي:

- السلام عليكم أستاذ حمزة. وقفت قبالتي ناهدة شامخة. نظرتُ في عينيها انحبست الكلمات في حلقي ثم قلت: أهلاً بالفارعة.

- أيهما تقصد بالفارعة؟ غزالة التي تكشف وجهها في حوث؟ أم الشاعرة التغلبية التي....

- تعرفين تماماً أقصدك أنت.. ظننتك في صنعاء؟ ابتسمت وقالت:

- ذهبت أول أمس وعدت صباح اليوم مع أبي... اليوم تجيء بيت الأستاذ أحمد آ، والدي أحضر لك اللون الذي طلبته... ننتظرك الليلة.؟ .

- خليها بُكره. الليلة عندي ضيف.

- تقصد الأستاذ سيد.. ما عاد ضيفاً مادام قد شاطرك الغرفة.

- ألا يخفى شيء في هذا البلد!

- روى لنا الأستاذ أحمد زوج عمتي موقفك النبيل أنت و زياد. وحكى لنا عن المشكلة التي أثارها زياد في اجتماع الأربعاء. الرجل مبسوط منكما ويمدح فيكما دائماً.

- آنسة غزالة، أصدّق بعدين.

- صدّق، أنت تستأهل كل خير، أستاذ حمزة.

- ربنا يخليك... في الغد لنا لقاء - انشاء الله - في بيت الأستاذ أحمد..

- لم ليس اليوم؟ فأجازة والدي محدودة.. يومان فقط، لديه عمل في الجريدة.

- آنسة غزالة.. أنا..

- ألم نتفق بدون آنسة!

- كما تشائين آنسة غزالة.. أقصد غزالة حاف.. ما أريد قوله أنا

بحاجة لضوء النهار من أجل الرسم ووضوح الألوان، أما في المساء فضوء المصباح الأصفر يمتص الألوان ويتغير قوامها وتختلف الرؤية، هذا سبب عدم مجيئي الليلة. هل تكونين هناك؟

- وأين تريدني أكون في هذا المعتقل الكبير؟ وكيف لا أكون وأنت قادم.. حمزة نحن بانتظارك الليلة.

- لحظة قبل أن أنسى. رآني اليوم حاتم وبلّغني رسالة الوالد لكنه امتنع عن قول شيء لمحته في عينيه.

- حمزة، يا حمداني. خف شويه عن الولد..

- عن الولد بس؟ انظري بعيني.. احمرّت من الخجل، أدركتُ أنني ما كان يجب أن أقول ما قلت.. ارتبكت وأنهيت الحديث قائلاً:

- أراك بخير. سلّمي على الوالد والأستاذ أحمد..

- الله يسلمك، حاول أن تأتي الليلة.. ننتظرك..... وانسربَت مثل زورق يتهادى فوق اليم.

كان أبو طلال يرقب المشهد من فوق رؤوس الزبائن. كنت قد حدثته عن معرفتي بغزالة الشيباني وكيف تم ذلك. ويعرف تماماً أنها ليست أكثر من صديقة. كان يوليها اهتماماً كبيراً حين تأتيه لشراء حاجة أو للسؤال عني. تابعتُ السير تجاه السكن وقد صدح المؤذن معلناً صلاة العصر.

***

- 4 -

معرفتي بغزالة الشيباني بدأت في مديرية التربية بصنعاء، كانت رفقة والدها. جاءت تأخذ أمر تكليفها ومباشرتها كمدرِّسة وكيلة في حوث.. طلب موظف الاستمارات منها أن تملأ بياناً، بحثتْ عن قلم في حقيبتها فلم تجد، كنت أقف في بهو المديرية مستنداً إلى طاولة أملأ بياناً يشابه الذي بيدها، انتظرتْني حتى أنهيته. ثم سألتني بصوت عذب:

- لو سمحت، ممكن القلم ثواني.

- ولو.. تفضلي..

أعطيتها القلم وأنا أتأمل وجهها الصبوح الجميل والمفارقة الجميلة التي حصلت. أن القلم لم يكتب معها.

- عفواً آنسة، لو سمحتِ.. رجوتها بلطف وتناولت منها القلم والإستمارة.

- ملّيني... الاسم والشهرة.

- وهل سيكتب معك؟...

- له طريقة في الكتابة.. ومن ثم أنا صاحبه، لم يخذلني أبداً، جربي.

قالت ضاحكة، وقد اقترب والدها:

- اكتب.. الأسم والشهرة: غزالة الشيباني.... اسم الوالد:.

كتبتُ اسمها بكل ما أوتيت من عزم ومعرفة في أصول الخط وجمالياته. بهرها الخط، ضجت فرحة:

- أبي انظر ما أجمل خطّه!

رفعت رأسي، مدَّ والدها يده مصافحاً:

- حمزة الشيباني، صحفي، حضرمي، مقيم حالياً في صنعاء.

- حمزة الحمداني، تشكيلي، سوري، مقيم حالياً في صنعاء .

ضحكنا وضحكت غزالة فرحة بهذه المصادفة الجميلة بتطابق الاسم الأول وتقارب اللقب والنسب.. وطريقة التقديم المرحة.. قال والدها:

- بنو شيبان تغالبة والحمدانيون كذلك، هل أنا مصيب؟

- بالتأكيد أنت مصيب. جدّنا واحد.

- لا بد أنك سمعت بالشاعرة العربية الفارعة بنت طريف الصلت التغلبية الشيبانية.؟

- وكيف لم أسمع بها.. أليست هي القائلة:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

انفرجت أسارير حمزة الشيباني ووضع يده اليمنى على كتفي ويده الأخرى على كتف ابنته غزالة قائلاً:

- عافاك يا حمزة، لا بد أنك تعلم اسم الفارعة الأصلي؟

- أظنه غزالة، والفارعة لقب لطولها الفارع أو لأنها لا تضع خماراً كباقي النساء، فقد كانت فارسة لا يشق لها غبار...

- هذا البيت قالته الفارعة في أول القصيدة التي ترثي فيها أخاها الوليد.. كانت تقاتل معه ملثمة في ذات المعركة التي قتل فيها.. أنا سعيد بالتعرف إليك.. أستاذ حمداني ما تفعل في المديرية؟

- آخذ مباشرتي للدوام، هذا عامي الثاني في التعاقد مع وزارة التربية.

- ابنتي غزالة سنة أخيرة أدب انكليزي، بجامعة صنعاء. أمّنت لها " وكالة " في اعدادية البنات في حوث

- في حوث! أنا أدرّس هناك في المعهد منذ العام الفائت. وكالة في

أي مادة آنسة غزالة؟..سألتها

- مادة اللغة الانكليزية طبعاً...

يالغبائي ألم يقل الرجل أن ابنته سنة أخيرة أدب عفاريت.. لحووووه..... آثرت الصمت... أكره ألا أبدو نبيهاً أمام فتاة جميلة ذكية ومثقفة... سوّيت من ملامحي! لا أدري كيف؟ خشيت إن كان مظهري يوحي بالغباء.. قال الشيباني لابنته:

- هل أنهيت الاستمارة يا غزالة؟ نظرت إليّ والقلم مازال بيدي. قالت: هل نتابع؟

- طبعاً يا ابنة العم. ضحك الشيباني. وقال:

- أتعبناك معنا.... ثم وقف يقرأ بعض الإعلانات على الجدار.. انحنيت على الطاولة سعيداً بابنة عم جديدة مع أن لي ثمان بنات عم جميلات من عمٍ واحد وامرأة واحدة رحمهما الله. أكملت لها الاستمارة بخط بديع، وعرفت من البيانات أنها تصغرني بسبع سنوات.. سلّم والدها الأوراق للموظف المختص، وفعلت مثله.. وأخذنا ورقتي المباشرة بالدوام والالتحاق خلال فترة ثلاثة أيام على الأكثر..

أمام المديرية أصر والد غزالة أن يدعوني إلى بيته في صنعاء، فالإنسان لا يجد كل يوم ابن عم له في زحمة الحياة وضياع الأصول بين القبائل والأفخاذ.. وتحت إلحاحه وإصرار الآنسة غزالة.. وافقتُ على الذهاب إلى بيتهم. حدّثني ونحن في الطريق أن ليس له أخوة. فقط له أخت وحيدة متزوجة في حوث من رجل محترم هناك هو الأستاذ أحمد الحوثي. مدير المعهد.

- ما أضيق الدنيا يا صاحبي، فالأستاذ أحمد الحوثي من أعز الأصدقاء.. ولكن هل ستقيم غزالة وحدها هناك ؟ أقصد.... نط أناي: (إش تقصد وانت مال أهلك إن كانت وحدها أم مع العشيرة كلها. سؤال سخيف ليس بمحله.).... ردَّ أبوها:

- لا. معها أخوها حاتم، سيلتحق في معهد المعلمين هناك، يقيمان عند عمتهما وزوجها، فابنتهما الكبيرة سبأ من جيل غزالة معلمة في مدرسة نشوان الابتدائية..)

وصلنا بيتهم كان في منتصف شارع حدّة، قريباً من السفارة السورية، نزلنا من سيارته، وقفت مندهشاً لجمال واجهته. كان أقرب إلى فيلا صغيرة، بديعة التكوين، مدخلها مليء بالياسمين والقرنفل وأنواع الزهور.

بوابة البيت على شكل قوس ضخم عال تلفه لبلابة خضراء كثيفة وعلى جانبيه إناءين من الحجر الفيروزي يمتلآن بالزهور.. استقبلتنا السيدة أم حاتم بجلابية مزينة بالزخارف اليمنية القديمة وشال سماوي خفيف من الحرير يسوّر وجهها الوقور الوسيم، وبجوارها شاب لا يقل عن أمه وسامة، تبدو عليه علامات التساؤل عن الغريب الذي يرافق والده وأخته.

قدّمني حمزة لهما وما زلنا في بهو المدخل:

- حمزة الحمداني ابن عمنا من تغالبة سورية، فنان تشكيلي.. زوجتي أروى الشيباني ابنة عمي، حاتم ولدي الوحيد.

- أهلاً بكم، تشرفت بمعرفتكم. ما شاء الله عائلة نموذجية. خير الأولاد ما قل ودل..

قالت السيدة أروى: أهلاً بك أستاذ حمزة، تفضل.. تفضل.

دخلت بيتهم الجميل. لمست إحساساً بالفن والجمال وأناقة الديكور منذ اللحظة الأولى لدخولي الصالة الكبيرة. الجدران مزينة باللوحات الزيتية والرسوم ورفوف الكتب والورود. قلت من قبيل المجاملة واللطف:

ـ لا بد أنك فنانة مبدعة يا سيدة أروى حتى يبدو بيتك بهذا الرونق والجمال. لمساتك واضحة.

تدخّل حاتم موضحاً: أمي بكالوريوس فنون جميلة من القاهرة.

اختصاص ديكور. تصميم البيت كله من إبداعها. تدير مكتباً هندسياً في عدن وآخر في صنعاء. وهي الآن مكلّفة بتصمم استراحة خاصة للرئيس في تعز..

أسقط في يدي وأنا الذي اعتقدتها ربة منزل فحسب... أردت مجاملتها بمنحها لقب فنانة. فإذا هي أستاذة أكاديمية في هذا المجال.. ..عليَّ أن أنتبه لمجاملاتي منذ الآن. يكفيني أخطاء لهذا اليوم..

قدَّمت لنا السيدة أروى على الغداء أصنافاً طيبة ولذيذة من الأكل والتحلية لم أسمع بها ولم أذقها بحياتي.. تحدّثنا خلال ذلك عن الفن والديكور والصحافة، وهي التي عاشت مع زوجها في القاهرة خمس سنين.. وأربعاً أخرى تنقلت فيها بين تونس ولبنان وقبرص، وتخلل ذلك أجازات سنوية لا تقل عن شهر كامل يقضونه كل عام في دولة أوربية مختلفة...

خلال الشاي طرحت السيدة أروى موضوع البورتريه وإمكانيتي في رسمه. أبديت لها استعدادي لما ترغب. قالت:

- لدينا لوحة زيتية تمثل زوجي، لكنها لا تعجبني كثيراً رسمها له أحد الفنانين بجلسة واحدة ونحن في باريس، الشبه فيها جيد لكنها لا تعبر عن جوانية وروح حمزة الذي أحبه وأعرفه جيداً، أحس أن اللوحة باردة تنقصها حيوية الشيباني الصحفي النشط الذي يشع وجهه بالذكاء. وعينيه بالألق. لذا. أرغب تقديمها له في ميلاده الثالث والخمسين..

- عفواً على المقاطعة. ولكن لم لا ترسميه أنت، سيكون إحساسك بزوجك أصدق وأجمل من أي لوحة يرسمها فنان آخر.

- أظنها لن تنتهي معي، ستكون شهادتي مجروحة. أحب أن أراه بعيون الآخرين ..

ضحكت غزالة، وقالت:

- أمي تحتفظ بدوسيه كامل لرسومات فنانين عرب وأجانب تمثل أبي خلال عشرين عاماً تقريباً بالرصاص والفحم والمائي وحتى بالزيتي على الكانسون.. قلت لأبي حاتم، وكان يجلس بجواري:

- نيالك يا عم.. الله يديم المحبة والصحة.... تأمل زوجته وكأنه يراها لأول مرة، تنهد وقال:

- ما أريده يا حمزة.. هو أن أرد ولو واحد بالمائة مما تفعله هذه الإنسانة العظيمة لي.

- وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة.. مارأيك ببورتريه لها تقدمه في أقرب مناسبة لكما.

في أثناء ذلك كانت السيدة أروى تحدث ابنتها في أمر ما، فلم تسمع اقتراحي. بل انتبهت لزوجها ينتفض واقفاً ويقول فرحاً على طريقة نيوتن:

- وجدتها يا أروى وجدتها.

- من التي وجدتها ياحبيبي؟ هل من امرأة غيري تجدها!

ضحكنا جميعاً لتعليقها الساخر. أجابها بعد أن همس بأذني أن أكتم السر عنها:

- ستعرفين يا أم حاتم، ستعرفين.. كل شيء بوقته حلو.. قم حمزة دعنا نشرب القهوة في الحديقة. اعملوا لنا فنجانين سادة..

ما كنت أملك سوى النهوض والانصياع لرغبته وسط ذهول السيدة أروى أن هناك سراً نخفيه عنها، وفرحها بذات الوقت لفرح زوجها باكتساب صديق جديد يشغل حياته بعد أن ترك معظم أصدقاءه في عدن..

انتهت زيارتي لآل الشيباني.. ودَّعتهم على أمل اللقاء بهم في حوث، قالت السيدة أروى ونحن بالباب: - سنأتي إنشاء الله مع حاتم وغزالة، سنلتقي في بيت الأستاذ أحمد. أليس كذلك حمزة؟ ولكزت زوجها

الذي كان شارداً في اللوحة التي اتفقنا على مقاسها خلال تناول القهوة. هزته من يده.. انتبه وقال فوراً: طبعاً طبعاً ؟ ضحكنا لما جرى لأبي حاتم.. وقبل أن أمشي.. سألتني الفارعة:

- أستاذ حمزة هل مدرسة البنات بعيدة عن المعهد في حوث؟.

- هي في الطرف الآخر من المعهد، لها باب مستقل يفصل بيننا جدار عال، لا يسمح بالرؤية ورمي الرسائل. ردت غزالة بأسف:

- يا خسارة، كنت أرغب برؤية حاتم في الطابور الصباحي يؤنبه زوج عمتي المدير على تأخيره..

قلت مازحاً: ما عندنا بنات تغلبيات يبصبصن عالشباب، احتشمي يا بت.

وضحكنا لهذه المحاورة التي استمرت حتى البوابة الخارجية.. قالت السيدة أروى:

- منذ اليوم لك بيت أخ في صنعاء، تزوره متى تشاء.

ودعتهم وشكرتهم على هذه الدعوة اللطيفة... سعدت كثيراً بالتعرف إلى هذه الأسرة المثالية.. كنت أسير على الرصيف الموازي لمبنى السفارة السورية وكان لابد أن أدخلها. فلي فيها صديق من الرقة يعمل ويقيم، اسمه عبد القادر، وجدته يشرب الشاي مع صديق له من درعا اسمه فهد شاركتهم الجلسة وشرب الشاي، ثم غادرت إلى البيت حيث ينتظرني زياد منذ الصباح.

***

- 5 -

انتبهت من شرودي. كنت أجلس على سريري قبالة سيد النائم فوق الميدوزا بعمق واستغراق. تساءلت إن كان من الضروري أن أوقظه ليجدد وضوءه للصلاة أم أدعه.. تركته وتمددت على ظهري مسترسلاً بذكرياتي القريبة عن الفارعة وأسرتها الرائعة..

تساءلت.. لمَ أجّلت الزيارة للغد. فوالدها كما تقول أخذ إجازة من الصحيفة ليومين فقط. ومشروعنا السري في رسم لوحة زيتية للسيدة أروى.. قد بدأ العمل به في بيت الأستاذ أحمد منذ الأسبوع الفائت. فقد جاء بالصور اللازمة وأصر أن يأتي بالألوان والفراشي وإطار مشدود بقماش من نوع (الكانفاس) المهيأ سلفاً للرسم دون أن نضطر لتأسيس اللوحة، وباليت نظيف لمزج الألوان، ومريول أبيض جديد كي لا تتسخ ثيابي بالزيت والألوان وإضافة إلى خدمة عالية يتسابق فيها كلٌّ من سبأ وغزالة وحاتم وبدأت أشعر بالحرج من كل هذا الاحتفاء والاهتمام..

كنت وما زلت أشد لوحتي بيدي وأطليها بمزيج من السبيداج والغراء وقليلاً من الزنك لأحصل على ملمس أرضى عنه لوجه اللوحة.. فبمجرد أن تلامسه أصابعي أتخيل اللوحة كيف ستكون وأي الألوان والسماكات سترتدي. في بداية الأمر شعرت بالارتباك أمام لوحة الكانفاس الباردة والمعدة سلفاً لمليون احتمال واحتمال.. كانت الصورة للسيدة أروى واضحة وصريحة.. يوم رسمتها لأول مرة بالرصاص في الأسبوع الفائت قالت وقتها غزالة وهي تتأمل الصورة:

- هل أحملها لك وأنت ترسم؟..

قلت بمرح راغباً في كسر التوتر والقلق اللذين أوجدتهما العيون

التي ترقبني:

- أخشى أن تظهري في الصورة... تدخلت عمتها أم سبأ زوجة الأستاذ أحمد قائلة:

- أظن غزالة تستحق منك لوحة وحدها، آ أستاذ حمزة ؟

أجبتها وأنا أحدد بقلم الرصاص حجم البورتريه على القماش:

- ومن قال غير ذلك ولو، طبعاً تستحق.. طبعاً.. هي والعائلة كاملة.. وأنسباؤهم بعد. ضحكنا جميعاً.. وخف التوتر في أصابعي ونبض كرياتي البيض.. وبدأت تدريجياً ألغي العيون والشخوص من حولي.. وسط صمت مهيب أوجدوه باحترام متفق عليه بينهم.. هم يدركون بالتأكيد أن لحظة الإبداع لا تقل رهبة عن لحظات الخشوع والعبادة.. هذه العائلة الفريدة وعائلة العمة أوجدت في روحي صمتاً صاخباً من الوقار. احترموا جميعاً فيه لحظة الخلق الجميل على فضاء أبيض يستفز الفنان ليسكب رماد روحه المتعطشة لرائحة اللون وانكسارات الخطوط والظلال..

حتى صوت الموسيقى الذي كان يسترسل من المسجل في ديوانية الأستاذ أحمد أخفتوا صوته ليتركوا لي موسيقاي الداخلية أدوزنها في دماغي وأناغمها مع إيقاع يدي ومشاعري..

أنهيت الرسم بالرصاص، ابتعدت عن اللوحة قليلاً لأرى مدى التشابه بين الرسم والصورة التي كانت ممسكة بها غزالة طوال الوقت دون حراك.. وحضورها حقيقةً هو الذي منحني متعة الرسم، فما أروع أن ترسم في حضرة الجمال.. تناولت الصورة بلطف من يدها..وقلت:

- ارتاحي قليلاً.. شكراً لقد أتعبتك.

- لا أبداً كنت سعيدة وأنا أراك كيف ترسم، وما كنت تشعر بوجود أحد من حولك.. ألهذه الدرجة تنسجم في اللوحة أثناء الرسم؟!

- ليس دائماً.. إلا في حضور الجمال نهيم في الأثنين معاً.

خجلت غزالة من كلامي واعتبرته غزلاً صريحاً بحضور أهلها فاعتذرت قائلة:

- مارأيكم بالشاي مع الحليب. بمناسبة انتهاء المرحلة الأولى من اللوحة...

تحركت الحناجر مشجعة.. مالئة وعاء الصمت الجميل بعبارات الثناء لاقتراح غزالة وعبارات التقدير لي لسرعتي في انجاز رسم الخطوط وإظهار الشبه بنسبة عالية.. كنت أدرك دائماً أن ما يهم المتلقي العادي في البورتريه هو الشبه الكبير بين اللوحة والأصل دون اهتمام بحركة الخط وانطباع اللون والبصمة المميزة للفنان..... علّق الشيباني:

- هذه هي أروى الشيباني. سلمت يداك يا حمداني. أظن بقيت المرحلة الأصعب؟ اللون الزيتي. آ حمزة؟

- على العكس.. الأصعب هو الرسم بالرصاص.. من امتلكه بجدارة امتلك الفن كله..

تململ سيد في رقدته، فتح عينيه للحظات ثم أغمضهما، أظنه كان في حلم أو ما شابه.. أعاد حركته الأولى ثانية.. ثم تثاءب واستدار نحوي..

- ياه... كان حلماً مزعجاً. هل سمعتني أصرخ؟

- لا أبداً.. كنت تنام بعمق، كعروس في يومها الثاني..

- شكراً للتشبيه.. حمداني؟

قال كلمة حمداني بما يشبه التحذير أو التهديد بأن أمتنع عن مثل هذه التشبيهات.. وصلتني رسالته.. وما زلت غاضباً من الطريقة التي شدني فيها من صدري وزعق بوجهي.. تناولت علبة التبغ من فوق الطاولة.. سألني وهو ينظر إلى ساعة يده:

- هل فاتني وقت صلاة العصر.. أُووه.. يدوب ألحق.. سأجدد وضوئي...

واتجهَ إلى الحمّام... راجعت نفسي وأنا أتأمل وجه الميدوزا اللعين فوق اللحاف.. ما كان يجب أن أغضب أو ما كان من الضروري أن أذكّره بموضوع مرضه ثانية. أشعلت اللفافة وتناولت رواية مدن الملح / التيه / من المكتبة وفتحتها ورفعت الورقة الصغيرة التي أضعها علامة في الكتاب حين أغلقه.

عاد سيد وقد أغرق نفسه بالماء وبلل ثيابه خلال الوضوء.. ثبّت العمامة على رأسه وهو ينظرني عبر المرآة الملتصقة بالجدار.. سألني:

- هل ما زلت غاضباً حمزة؟.

أغلقت مدن الملح وأعدتها إلى مكانها، وقلت:

- مثلي لا يحق له أن يغضب.. فما زلت أتلقى الدروس. فكل ما يجري معي هو اختبار لي...

اقترب مني سيد وبحنو الأب لفني بذراعيه وقبّل رأسي:

- أصبت يا حمزة فكل ما يجري هو اختبار لنا.. الحياة كلها اختبار.. هيا لا تحول المشهد إلى ميلودراما مفجعة.. أين مرحك وحيويتك.. حمداني اضحك ولا تبتئس.. الحزن لا يليق بك. خليني أحس إني أجالس رجلاً مَهيباً ملء هدومه لا يهاب الموت، رجل من بلاد الشام كما نقرأ عنكم في كتب التاريخ... حمزة.. بدون ضغائن.. صافي يا لبن؟

ضحكت وقلت مراوغاً بود:

- حليب يا قشطة.

- هذا هو حمزة الذي أعرف.. سلام..

وخرج للصلاة فرحاً بعد أن رأى حالتي النفسية قد عادت إلى الارتياح..

بعد خروجه بقليل.. دخل زياد.. وبالصوت العالي طلع:

- شو يا!!! ! من لقى أحبابه نسي أصحابه.

- هذا الكلام لا يقال لي يا زياد! ..

- ينقال ونص... انس.. وين الأستاذ سيد؟ ..

- في الصلاة .

سألني بلؤم: ها.. عندك اليوم روحة لبيت الأستاذ أحمد؟ لمحتك الصبح واقف مع حاتم..

- احتمال لا.. رأيت الفارعة قبل صلاة العصر وأخبرتها احتمال أن الموعد تأجل للغد..

- من قدك يا عم. تضرب مواعيد وتقابل الأوانس بنص حوث. ومانك خايف على روحك.. طبعاً.. من يجاور البطل يصير بطل مثله..

- زياد! انتبه، فيه خطوط حمراء لازم ما نتجاوزها.. البنت محترمة وبنت ناس محترمين. والأمر لا يتعدى الزمالة.. أنت تعرف ذلك تماماً.

- أعرف، وحق النباية أعرف.. نعتذر أستاذ حمزة المفتري. آسفين. نسيت أنكم ولد عم، تغالبة بين بعضكم، على كل حال مريت عليك قبل ما أروح السوق، قلت أخاف بدك شي؟

- لأ.. صاحب واجب، مشكور أبو علي..

- أقول حمزة.. ليش ما تروح الليلة وتخلص من اللوحة، وإذا حبيت آجي أركّز معاك المواديل، أو أعصر لك الألوان.. ما عندي مشكلة.. ماني أخوك وصديقك.. أجْلي عيوني شوي، ها حموز..

- زياد.. نقطة انتهى..

- حمزة. أدري. نقطة السلام عليكم.. ألله يا ها الوطن شمسوي بيا ألله.. وينك يا حسنا!! تشوفي ظلم الحمداني على شيخ بني رباح... وخرج بحركة مسرحية مرحة أضحكتني. لله درك يا زياد ما أروعك..

عاد سيد من الصلاة.. وجدني أهيئ القهوة.. سأل:

- كأنّ زياداً كان هنا؟ ..

- ما طوّل.. تعرف... مشاكسة سريعة، وخرج..

- لازم وإلا فليس بزياد.. حمزة ما رأيك بمشوار تمشاية بين وهاد وتلال حوث. الجو لطيف ويشجع على المشي. آ بعد القهوة؟.

- بعد القهوة..

ما كان الأمر يحتاج لأكثر من ثلاث دقائق، كي يتجاوز المرء حوث إلى روابيها الجميلة وأحراشها المكتظة بالأعشاب الطويلة... قال سيد وقد أصبحنا خارج حوث:

- لطالما كنت أود محادثة نفسي في مكان كهذا المكان مع الطير والشجر وسماء ملبدة بالغيوم، منظر السماء يستفزني ويغريني بالحديث. حمزة خليني داير أتحدث كيف ما شئت، المهم ألا تقاطعني.. ولّع لي.

أشعلت له اللفافة بحركة ذاهلة لا إرادية.... يا جبروتك يا أخي! أيامك معدودة وسنوات عمرك رميتها على باب غرفتي وجئت تولع آخر أيامك عندي. لم لا تذهب إلى أهلك! لمَ لم تختر عملاقاً من بلدياتك يستوعب موتك.. لم لا تـ..(ما هذا الكلام يا حمزة؟ الرجل في ضيافتك. هل تطرده؟) قرّعني أناي وأنا أهاجس بأمر هذا الغريب العجيب! أنقذني من شرودي أن سيد بدأ فعلاً يتحدث.... حدّثني عن دراسته في إنكلترا وعن فشله في سنته الأخيرة لإكمال الدراسة، لولا توسلات أمه ورضوخه لمشيئة والده في المتابعة حتى التخرج..

كل ذلك كان بسبب قلة المال.. وأسباب أخرى كانت من صنع يديه.. فما أراد إرهاق أهله والإجهاز على أبيه الطاعن في الحزن والكبرياء. كان أبوه يريده وزيراً للزراعة أو للري. كي ينتفع به أهل البلد.. كان يضحك من رغبة أبيه الذي ما كان أصلاً يمتلك أرضاً زراعية؟ وما اهتم يوماً بالزراعة أو المياه، بالرغم من دوحة صغيرة أنشأها جده الغانم الكبير، فيها بضع نخلات وشجرتين أو ثلاث سنط، وشتلات من الطماطم والبصل والفجل والكرات والنعناع البري...

جل اهتمام والده كان بوظيفته التي تعيّن فيها على أساس الشهادة

الثانوية، وكانت لها أهميتها العظيمة تلك الأيام، كان أبوه أحد ثلاثة أو أربعة حصلوا عليها في البندر كله، وتدرّج في سلم الوظيفة لمنصب رئيس ديوان وزارة الخارجية. فما كان يُسمحُ لمعاملة أن تخرج من الوزارة أو تدخل إليها إلا عن طريق الأفندي عثمان الغانم؟. كان قاسياً صلباً متمسكاً بالقوانين والأنظمة لكنه كان يطوعها غالباً لمصلحة المواطن. وله سمعة طيبة في البلد لمساعداته الكثيرة لبعض المحتاجين، وما كان يتردد في عرقلة أمور المخالفين من الملاكين الكبار والأفندية والبهوات.

كان عزيز النفس لا يمد يده لأحد، لا يرتشي، لا يهادن في الحق. وهذه الميزات كانت مصدر قوته في البلد. والوزير يعلم ذلك جيداً ويحترمه، وقرّبه كثيراً منه. ولذلك أبقى عليه حين آن تقاعده وأوصى من جاء بعده الاحتفاظ به. وبالرغم من ضيق ذات اليد لدى أبي سيد، وليس من معاش إلا معاش الوظيفة، فما أجبرته قسوة الظروف والحياة ذل السؤال ولو للوزير نفسه. فقد اضطر للعمل كسائقٍ ليلي، في أحد الفنادق الفخمة في العاصمة، ليرسل لسيد أقساط جامعته في لندن. يقول سيد:

- التأم شمل الأهل والأقارب لوداعي، كنت في العشرين من عمري، فتىً سودانياً خجولاً متحمساً، أفوقُ أترابي طولاً وضخامة، وما كان يقاربني في الطول تقريباً سوى شقيقتي سمية وابن عمي الزير سالم الذي عقد قرانه عليها وأنا في الغربة. كان يكبرها بعام واحد فقط، بينما أكبره أنا بثلاثة أعوام. ما كان اسمه الزير ولكنه لقب ألصقناه باسمه الأول "سالم" منذ يفاعته، لشقاوته مع البنات ورغبته الزائدة في الطيش والسهر حتى الفجر أحياناً مع أولاد أونطجية من البندر. يترددون على الغويات المقيمات في خيام على ضفاف النيل شمال السودان للمتعة والتسلية، والزير معروف بنكاته البايخة التي لا تضحك أحداً حتى بنات عمه عثمان، أخواتي سمية، وأسمى، ونجلا، ونال هذا اللقب أيضاً لرغبته المستمرة في ركوب الحمير أمامهن، يكر ويفر

بعنجهية الفرسان واضعاً ثوبه بين أسنانه شاهراً عصاه الغليظة بوجه الدواب متخيلاً إياهن أعداء القبيلة معلناً أن حرب البسوس لم تنته بعد، وأن دم كليب لم ولن يذهب هدراً... أسميناه حينها الزير سالم. وما أصبح يُعرف إلا به، حتى في المدرسة والمخفر والبندر، وكان يغضب ممن يناديه سالم فقط مجرداً من لقبه، كأنه بذلك يحرمه حقاً اكتسبه أباً عن جد عن الزير الحقيقي.. لم تدرك أمه تسميته بالزير فقد توفيت حين زلت قدمها في النهر وغرقت وكذلك عمي الذي جاء لينقذها فتشبثت به وغرق معها. وقتذاك كان عمُر سالم عشر سنين تقريباً. أما سمية أختي التي تصغرني بأربعة أعوام، كان عمرها آنذاك تسع سنوات.. وقد شبت فجأة كما النخلة بين ليلة وضحاها وأضحت تجاريني في الطول وهي في السادسة عشرة وأنا في العشرين...

رحم الله جدي غانم كان له قول مأثور في هذا الأمر: (البت زي المزبلة مَسرع ما تكبر... عرّسوها قبل ما توخم البيت..) سمية لا يعجبها بالطبع هذا الكلام ولا تاخد ولا تدي فيه. وما كانت تعجبها آراء جدي في المرأة، أو غير المرأة... كنت أنا من تعتد بآرائه وتعتبرني منفتحاً على الدنيا وقدوتها في الحياة.. كنت بين أخوتي الذكور الثلاثة صديقها الوحيد الذي تكتم أسراره، وبدوري كنت أعرف كل ما عندها من أفكار وأخبار غير مسموح نشرها في الوسط العائلي، خوفاً من ثورة أبويا عثمان الجبار المتزمت الذي ما كان يرضى بأي فلَتان في الأسرة من ولد أو بنت. أو خوفاً من زعل أم سيد الحنون، المسكينة التي تغطي وترقّع أخطاءنا وتبررها أمام أبي، في حال درى بها. وأسرار سمية البسيطة التي تفشيها لي وحدي، تظل حبيسة صدري لا أحكيها لأحد، كضبطها لأخي رحيّم مع رقية بت جارنا خميس البديري في الدوحة المجاورة لبيتهم في وضع يعدُّ رومانسيا ومحرماً في تلك الفترة، منتصف الخمسينيات، وخارج نطاق الأدب والحشمة، كان يضع يدها بين يديه ويكذب عليها من خرابيط مخه. أو كان يلامس شعرها اليابس

المسترسل أفقياً في الاتجاهات الأربع، ويتغزل به ويراه كالحرير يهفهف.. ومع النسيم يطير..

كان لا بد أن تضع سمية رأيها وتعليقاتها فيما ترويه وتجعلني أضحك طوال استماعي إليها. وأفشت لي مرة سراً يتعلق بعائشة بنت عمي أبو سالم، التي تعيش بيننا منذ غرق والديها في النهر، عائشة أخت الزير وحيدة على أربعة ذكور. طلبت أمي وقتها من الزير بعد غرق عمي وامرأته. أن يأتي بأخته " عَيشة " لتعيش مع أخواتي البنات في دارنا.. وما كان سالم قد تجاوز العاشرة من عمره بعد، الزير كان أكبر أخوته لم يتردد في جلبها. (هم أربعة ذكور وغير قادرين على تربية أنفسهم. فكيف على تربية أختهم المتمردة. وعلى فهم متطلباتها وتلبية حاجاتها التي لا تنتهي.) هذا كان كلام نجلاء التي هي أصغر من سمية بعامين خلال حديثهم عن الموضوع.. وكان من الصواب فعلاً، أن تتربى في بيت عمها عثمان وسط البنات، تقول سمية عن سر عائشة: (أمسكت بيدها رسالة غرامية!) تتابع وفي صوتها رنة مرح: (تصور سيد! البت المفعوصة عيشة التي ما زلت أجلسها على حِجري وما زالت في الصف الرابع، تكتب رسائل غرام؟! وليمن حزرك؟)... قلت: (لمن يعني؟ لواد جربوع معها في المدرسة) تضحك سمية لكلمة جربوع، ثم تمسك يدي وتقول بحنّية أخت تحب أخاها وتخاف عليه مثل عينيها: (محشوم يا سيد يا خويا، يا زين الرجال.) أرد عليها بذهول: (آ سمية.. محشوم ليش؟ أنا إيش دخلي بالموضوع!) تخفي سمية ضحكة وراء أسنانها الحلوة وتقول بتردد: (الواد اللي تكتب له عايشة.... هوه.. أنت.) صعقت من كلام سمية وصرخت بها: (ماذا قلتِ سمية؟). تكوّر سمية يديها على شكل بوق وتزعق في أذني: (قلت البت عيشة تكتب لك رسايل .. وبتحباااك.).. (إيش هذا الكلام؟.. عايشة اللي ما فقست من البيضة بعد، دايرة تحب وتكتب رسائل غرام! وليمن؟ ليّا أنا!.. دا حين أروّيها كيف الأدب. ودّي أحش رأسها و..) تضع سمية راحة يدها على

فمي تمنعني من المتابعة. ثم توقفني جوار البئر في دومة جدي غانم، وتريح يدي بين كفيها ثم تقبلها بحنانٍ كادت تدمع عيناي له: (لا يا سيد يا خوي، روّق بالك. لا تحش رأسها ولا شي، البت صغيرة ومش فاهمة حاجة. شايفاك فارس أحلامها.. وبعدين بتحبك. وين المشكلة!) أسأل سمية بقلق: (إش فهّمها بالحب وخرابيطه. هي كم عمرها اليوم؟) تقول سمية وفي صوتها الحنون رنة فرح وقد ارتاحت لسؤالي: (أظنها تجاوزت التسع لأ، أظنها عشر سنوات، ليه تسأل؟)

كنت أشم رائحة لؤم وخباثة نسوان في كلامها، فتلت راسي عنها بغضب حيث مقبرة البلدة البعيدة، فتراءت لي كأنها أحجار بيضاء صغيرة مهملة متناثرة في الأفق وأجبتها: (أقلك حاجة يا بنت أمي وأبوي، شيلي من راسك الخرابيط الفاضية وتعقلي. أنا فاهم عليك ايش تدورين، أنا باكر قدامي سفر طويل وبعيد. وماني داري إيش يصير معي، أموت، أطيب، لا تربطي البت بيا. انتبهي يا سمية، عيشة حلوة.. آه، لكين تدوّر تعرس من ذا لحين، هذا ما يحصل عند أولاد الناس المحترمين. إيش أبوكِ يقول لو درى. البت ما لقت حد يربيها وفلتت. لا يا خيّه سمية... عيشة عَمّال تكبر بسرعة ومتربية معانا زيك وزي أسما ونجلا، وإحنا مسؤولين منها. سمية إنت الكبيرة وهي تحبك كثير، ديري بالك عليها..)

وكأنها لم تصدق سماع هذه الجملة مني حتى كرَّ لسانها مثل حبات المسبحة: (أبشر ياخوي، رَح أدير بالي عليها كما عيوني، كرمى لعيونك الغالية.... كيف ما أدير بالي عليها! هادي عيشة بت عمنا الله يرحمه ويرحم أمها!... الملعونة ما عادت طفلة، أصبحت تفتل عقول الأولاد حتى تمر أمامهم. آ سيد. لو بغيت يعني. أقصد. لو..) (سمية غلّقي الموضوع الله لا يغلق عنك رحمته، وصكي أسنانك عليه. وإلاّ، ورحمة عمي ومراته. لأ بلاش الحلفان دا.. أقسم بالله العظيم أسافر وما أعاود البلد واصل.. وإذا كنتِ خايفة من جمال عيشة يفتن العيال،

عـوّديها علـى شـغل البـيت والطـبخ، وحـشّميها في الطلعـة. ولـلا أقلـك، قعـديها بالبيت وبلاش تروح مدارس.) تغضب سمية من طلبي الأخير وهي عارفة ضمنياً أني لا أعنيه تماماً: (كيف ما تكمّل يا سيد. والله أبوك يقلب الدنيا على رؤوسنا عنده عيشة بالدنيا كلها. وأمي دَايماً تقول انتم بكفة يا بنات وعيشة لوحدها بكفة.) لمحت الزير قادماً من بعيد. فنبهت سمية بعيني وحاجبي إليه وقلت: (سمية مرّقي الموضوع على خير، وما أريد ابن مرة يدرى فيه، وخصوصاً الزير. مفهوم يا بت أبوي؟) ترفع كفها إلى صدغها وتضرب الأرض بقدمها: (تمام يا فندم)

***

- 6 -

ما زلنا نمشي وقد ابتعدنا في شعاب حوث.. والشمس تعلن الغياب..

تجاوزنا الوادي الكبير.. لا بد من العودة.. ضواحي حوث في هذا الوقت غير آمنة.. كان بصر سيد مشرعاً عبر الضباب الذي بدأ يدب فوق الأشجار وينزل ببطء فوق الحشائش الطويلة.. يرافقه رذاذ من مطر خفيف آت من سماء ملبدة بغيوم سوداء. قلت:

- أرى المطر يشبه الحب.. على رأي وليد معماري يجافي الحقول زمناً ثم ينهمر دون موعد... ثم يغيب... ويغيب معانداً كل أوراق التقويم.... مخيباً كل توقعات الأرصاد، ما عدا العاشقين.

ردّ سيد مبتسماً بعد أن انتزع غليونه من فمه ونفث دخانه:

- صاحبك وليد يتحدث عن المطر في السودان بالتأكيد.. فالمطر عندكم لا يفاجئكم في الصيف أو دون مواعيد كعندنا، أذكر يوم نجاحي في الثانوية كان الجو مشابهاً تماماً لهذا الجو الجميل، رغم أننا كنا في تموز.. وكان عرساً حقيقياً وفرحة كبيرة لأهلي.. جاء الناس للتهنئة من قِبلي ومن بحري.... يومذاك ولأول مرة أتلقى الهدايا من كل حدب وصوب، والدي الحاج عثمان عليه رحمة الله اشترى لي طقماً جديداً من أرقى محلات العاصمة. ما كنت أعي وقتها عدم التناسق بين جسدي الضخم وبين الطقم الجديد.. البنطال كان قصيراً بعض الشيء يكشف خيوط الحذاء، والسترة ضيقة تكاد تنفزر من تحت إبطَي، وحين سألني والدي إن كانت البذلة مناسبة قلت له: (مناسبة تماماً.. شكراً بابا) وقبّلت يده ورأسه. خشيت إن قلت له أنها صغيرة أو ضيقة ياخد على خاطره ويعيدها، وأضيّع عليّ فرصة ارتدائي لطقم أتباهى به لأول مرة في حياتي بين أقراني. ظننت أول الأمر أن الطقم هدية نجاحي

في الثانوية كباقي الهدايا، لكن أخي عبد الرحيم توأم سمية اللدود وعاشق عثمانة بت خميس البديري. قال لي يومها: (أبوك مخبيلك مفاجأة أكبر من الطقم. سمعته يكلّم أمي عنك) لم يكذب رحيّم.. فعلاً كان أبي يبيّت لي أمراً..

بعد أسبوع كنت وإياه عائدين من المسجد والوقت عشاء، أوقفني عند دومة جدي غانم وأحاطني بذراعه الحنون، وكنت أجاري أبي في الطول.. قال: (سيد أصبحت رجلاً أفتخر به وأعتز، أمنيتي بالدنيا أشوفك وزير، والوزير زي ما أنت عارف حاجة كبيرة.. بجرة قلم يعمّر الدنيا، وبجرة ثانية يهدها.. وعشان يعمل كده لازم يكون معاه شهادة كبيرة. وان كانت من بلاد بره يكون أتمّ وأحسن، عشان يقدّره الناس ويُحترم أكثر... سنوّ بلدنا كدا.. سيد يا ولدي، لا تفهم كلامي غلط، أنا أحب بلدنا. ولكن التعليم فيه مش ولابد زي ما أنت شايف. والشهادة من برّه لا تعني أن تنسلخ عن جسد بلدك وتنساق ورا المدنية الفارغة، وتخليك تخجل من ماضيك وحاضرك. لا يا ولدي.... لقد راسلت جامعة بانكلترا لأحجز لك مقعداً في أحد كلياتها، وقد توسط لك بذلك السيد الوزير شخصياً، ستأتي غداً وتشكره بنفسك. والطقم الذي لبسته بالأمس عليك أن ترفعه ليوم سفرك بالطائرة.)

تململت في وقفتي مع أبي، كان حديثه كبيراً وعميقاً. يتطلب مني عقلاً يقظاً، بينما النعاس قد سيطر على عيني، وقبل أن نمشي، ألقى مفاجأته التي لم يتبينها رحيّم: (لازم تعرس قبل سفرك، هَذي رغبة أمك. أو على الأقل تخطب وتسافر.) ما كنت أجادل أبي في كلامه..

لم أنم تلك الليلة، وفي الصباح رحت مع والدي إلى الوزارة وشكرت الوزير الذي حمّلني كتاب توصية إلى سفير السودان في لندن.. أما موضوع إني أعرس أو أخطب زي ما تحدث بيه والدي. أقمت الدنيا ولم أقعدها على رأس أمي وأخواتي، وحلفت بأعظم الأيمان إذا أصر أبي على هذا الأمر. عليهم أن ينسوا موضوع السفر والدراسة. وغبت يومين أو

ثلاثة في البندر وسويت كيف ما يسوي الزير اللعين.. تندمت ورجعت. لقيت سمية وقالت لي:

- (ما تزعّل روحك.. لقد تم صرف النظر عن الموضوع يا عريس، الفكرة أصلاً كانت لأمي، وما رأي أبي بالموافقة إلا إرضاء لها. وما دامت هذي رغبتك فلا مانع من سفرك دون زواج يا سيد يخويا).

أخذ ضغط الهواء في وديان حوث يزداد والغيوم بدأت تتكاثف بشدة. قلت لسيد:

- سنعود.. قبل أن تعتم الدنيا.. وتمطر علينا.

عدنا من طريق صخرية مختصرة غير موحلة.. يتابع سيد حديثه:

- في صالة المطار كنت مرتبكاً في بذلتي الضيقة، حتى أنها سببت لي حرجاً في الطائرة أثناء دخولي بين المقاعد وأثناء جلوسي، الحذاء الذي قدَّمه لي الزير ابن عمي هدية يوم نجاحي، وحصّل ثمنه من حواش التمر. كان ضيقاً على قدمي. قال الزير وقتذاك ونحن في البيت حين لبسته بالعافية: (الحذوة دي جبتها لك من حش التمر، يعني بعرق جبيني، وأنا داري أنها ضيقة عليك مع أنها نمرة خمسين.) نقرته على رأسه ونهرته: (تأدب يا ولد، ضيّقة على رجلي! مش عليا.) ضحك الزير وقتها وقال: (مكصدش يا سيد، انت ابن عمي وحبيبي، لكين صدّق أنها أكبر نمرة في أم درمان كلها، وجلدها جلد إيطالي أصلي. ولكن المشكلة ما هي بالحذاء، المشكلة بيك يا ود عمي). صفعته ووبخته : (كصدك المشكلة برجلي يا بهيم.).. رد الزير وهو يتحسس مكان الصفعة على رقبته: (داري والله داري، لكين جسمك يا ود عمي تعوّد عالبراح والتمدد، وما يطيق كل ما يحدّ من حريته، ورجليك طول عمرها حفيانة.. كيف ما تريدها تصير كد الكبر)!.

أنّبته على جسارته: (تحشّم يا ولد.. القبور ليها حرمة، أنت ناسي إن فيها جدنا الغانم وأمك وأبوك.)... يرتدع الزير ويخرس عن الكلام.. ويغادر المكان خجلاً. ثم بعد دقائق ننسى ما حدث، كباقي خلافاتنا.

أما في المطار فهمس بأذني: (سيد.. أنا باعتك كُدامي عشان تمهد ليّا الجو وترطّب المسائل ليحين ما آخذ الثانوية، وفرّيرة وراك، حلو الكلام، ودَحين على رأي عمي عُتمان لازم أسيب الجليلة وجساس وكليب وأنهي حرب البسوس عالخالص وأحصّل الثانوية، ووعدني عمي بالطلعة وراك، وبتوصية من الوزير بالذات لو درست وحصّلت الشهادة، وبنفس جامعتك. يعني وراك وراك مهما بعدت يا ولد عمي الحلو.)

يتابع سيد حديثه وقد أنهى غليونه ونظفه ووضعه في جيبه الخاص. كنت ألحظ رغبته الحثيثة في المزج بأسلوب متعمد في كلامه بين المحلية السودانية والعربية المبسطة..... تابع كلامه وقد اقتربنا من السكن: - كنت أدمدم مع نفسي وأنا أصعد سلم الطائرة، ما نفع أن تكون الدنيا واسعة وحذائي ضيق. أما ربطة عنقي التي اشترتها لي أختي سمية بحرٍ مالها، وهي الخياطة المثالية في البلدة، وكانت الربطة ملونة ويغلب الأورنج على باقي ألوانها الزاهية. حلفت سمية وقتها أنها من الحرير الهندي الصافي. وأنها موضة تلك الأيام، لقد كانت الربطة مصدر بهجة لي قبل أن أرتديها، وحتى بعد أن جلست بها في الطائرة، ومر الوقت وحين ضاقت بي الدنيا وجاشت بي الأفكار... أحسست بها تضيق الخناق علي وأضحت سوط عذاب يجلدني طوال الرحلة إلى أن أعتقت رقبتي منها قبيل ساعة من وصولنا لندن. إلا أني وأنا أتذكر كلام أبي وأمي أعتبر أن ضيق الحذاء وعذاب الربطة نوعاً بسيطاً من أنواع الجهاد الذي ينتظرني في بلاد الضباب وأنا مستعد له وللأكبر منه. يملؤني النشاط في التعلم وإرضاء والديّ لأني برضاهما أكسب رضا رب العباد. كنت على معرفة باللغة الإنجليزية قبل سفري ولكنها لغة المدرسة وقد كنت أجد صعوبة في التواصل مع رفاقي الدارسين في أيامي الأولى بالجامعة... جلست في الطائرة أستعيد الوعد الذي أقسمت لوالدي الحاج عثمان الغانم ألا أحنث به. كان والدي، إلى جانب تعلمه، شديد الولع بالقراءة والمطالعة لكل شيء، وخاصة المجلات السياسية

والثقافية، وكتب طه حسين والعقاد والمنفلوطي وكتب أجنبية مترجمة، ومتابعة الأخبار من الراديو وقد أوقف إبرته على إذاعة لندن، بحيث لا يضطر للبحث عنها في كل مرة. احتضنني في المطار ثم أبعدني عنه على طول ذراعيه يتملاّني جيداً كأنه لن يراني أبداً، ثم قال: (سيد، خلّك من وِلد السوء، ولا تترك الجامعة مهما كانت الظروف والأسباب، وإياك ثم إياك تنظّم روحك تحت أي جمعية أو أخوية أو حزب من الأحزاب هناك.. فاليهود يا ولدي متغلغلون في كل مكان. والماسونية زي الغولة تفتح فمها لابتلاع من هم في سنك ويلاقونك لقمة سائغة. وباكر تشوف ناس ما تؤمن بالله. تؤمن بالشيطان وما تؤمن بالله. أحزاب وجودية دايرة وراك تغريك بالنساء وتملي جيوبك بالفلوس، انتبه لو ملوها بذهب الدنيا، خليك صاحي ما تبيع دينك وروحك؟.) كان والدي محقاً في حديثه معي، فقد كانت الوجودية التي أتاحت لها ظروف أوربا النفسية والاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية مناخاً ملائماً لأن تفرض نفسها على المجتمع دون وازع أخلاقي يردعها. وأصبح الوجود الذاتي شعاراً جديداً يضاف إلى كل الشعارات.. وتغلغلت الشيوعية بين صفوف الشباب الخارج من الحرب بلا عمل أو انتماء. متمرداً وثائراً على كل شيء.

أما وداع أمي لي فكان له نكهة أخرى رغم أنه ما تجاوز عباءة أبي ونصائحه.. وقد وعدتها ألا أقطعها من المكاتيب أطمئنها فيها عن صحتي، أخبرتني أنها قد وضعت لي أطقماً داخلية من أجود أنواع القطن لأرتديها هناك. فبلادهم باردة وما ترحم الغريب. أتذكّر كلامها بالحرف والنبرة: (سيد يا وِلْد عثمان الغانم، يمين عليك ما تطرتش عقلك بالحرام، حياتك يا ود غانم من اليوم يا دوب صار ليها معنى، دحين عليك الله تواعدني أنك ما تخلف كلامي وياك. وتحط ابالك القراية وبس. قروش سفرتك ومصروفك هناك ما تروّحها بعْزكة، شتين نسوان، شتين خمرة وشتين خرابيط فاضية ماني دارية إيش هيه. أنت

عارف كيف جابها أبوك. ظل يشتغل ويكد لامنْ انهد حيله وأمّنها ليك. سيد خلّص قرايتك بوقت، وجيب الشهادة الكبيرة، اعلّكها بحيطان روحي. وباكر لي جيت نشاالله. أخليك تعرس أحسن بت بالبلد، وانت عارف مين هيّه، إن كنت حاطّها ابالك.. كلّمتني سمية عن شقاوتها وحبْها ليك، بت عمك لو ردتها.. تستناك العمر كله. روح ألله ايسّر لك دربك ويحميك يا ولدي.)

يتابع سيد وقد دخلنا حوث من الغرب: (كنت أبكي بصمت طوال الرحلة، لأني ومذ عانقت أهلي وأصدقائي أَحسست أني غريب ووحيد كغصن اقتُطع من شجرة عظيمة، وأُلقيَ في النيل تتقاذفه الأمواج. يرفّ قلبي الآن وأنا أروي لك كيف ودعتني عائشة الشقية. التي أمسكت بها سمية، مسك اليد، وهي تخط رسالة غرام ليا أنا، ولم تتجاوز وقتها عامها الثامن، ولكنها في المطار وقد عبرت ربيعها التاسع. تعلقت بعنقي وباست خدي هين وهين تستجر عطفي للذهاب معي. أمسكتها من جديلتها ووشوشتها: (جديلتك حلوة ياعيشة.. ماتكصيها أبداً.. توعديني؟) ثم وعدتها على مسمع الجميع مراوغاً أنني في أول أجازة أرجع فيها للبلد سآخذها معي دون مدرا أحد في حقيبة كبيرة.. ردت أمي وهي تغمز بعينها لعائشة المعلقة في عنقي: (هيّه إلك.. عاود بسرعة، باكر تجي وتلاكيها عروس كد الدنيا.) ضحك أبويّ من شقاوة عيشة وولعها بي، أنزلتها على الأرض وقبلتها على خديها ووعدتها جاداً بأخذها إلى بلاد الأجانب في مرة قادمة.

كتبت لأمي أنني كدت أموت جوعاً في الأسابيع الأولى. لم أستطع أكل لحومهم المعلقة والمجففة كأصابع العفاريت، والملوثة بالخمر والديدان. وكنت لا أثق بطعامهم. أراهُ كلهُ لحم خنزير.. وما قناعتي تلك إلا بعد مزحة بل مكيدة دبّرها لي أحد الزملاء، لا أذكر اسمه الأول، أظنه جان، طالب في قسم اللسانيات يسبقني بعام. حين دعاني لأكلة كباب في مطعم فاخر، وحين جاء الأكل ولم يكن به كباباً،

ادّعى جان أن طبق اليوم لا يحتوي كباب.. توجست من الأكل فترددت، ثم أكلت لقمتين أو ثلاث على مضض وأبعدت الصحن.. طلبت شاياً. وقبل أن يأتي الطلب، أسرَّ لي جان خبراً قلب معدتي وروحي وكل كياني، مما جعلني أقلب الطاولة بكل ما فيها على رأسه وأضربه بصحن السلطة على وجهه، أخبرني وقتها أن اللحم الذي أكلته لحم خنزير. وسألني بعدها بكل وقاحة: (شو رأيك سيد؟)

- شو رأيي؟ تصور حمزة.. بكل صفاقة كان يسألني الحقير عن رأيي... نزل الخبر كالصاعقة علي. أمسكت بعنقه ورفعته فوق مستوى الطاولة ورميته في منتصف المطعم..

ولولا تدخل بعض الأفارقة الذين كانوا في المطعم لارتكبت جريمة بحق هذا المأفون.. أقسمت بعدها ألا آكل اللحم أياً كان مصدره في غربتي نهائياً. وأتقيد بالأكل النباتي حتى أنهي دراستي. وقد استدللّيت على مطعم لا يقدِّمُ اللحمَ نهائياً، صاحبه من أصل إندونيسي. يقدم الوجبات النباتية فقط، وله شهرة واسعة لدى النباتيين وهم كثر في لندن. استمرّت عادتي تلك طوال بقائي في لندن. وقد كان أصدقائي العرب والأفارقة يرون أن إصراري على طعام مغاير للعادات المحيطة حولي في حفلات الجامعة أو الرحلات خارج المدينة، هو أمر محرج وغير لائق ويُعتبر شذوذاً!

ما كنت آبه لرأيهم بل كنت أحاول على طريقتي أن أعوض عن ذلك بكوني ظريفاً ومنسجماً مع باقي العادات الإنجليزية الأخرى. بقدر ما تسمح به طبائعي و إمكاناتي المادية.

وقد كانت سنتي الأولى في لندن متعبة، لكنها مثمرة. كانت مكتبة الجامعة والمكتبات العامة شغلي الشاغل في عامي الثاني، أما الاتصال بالأدباء والاستكتاب المأجور للصحف والمجلات لكتابة مقالات في النقد الأدبي وأحياناً في النقد الفني والترجمة من العربية إلى الإنجليزية أو العكس، كان ذلك في عامي الثالث، ذات السنة التي

قَدْم فيها ابن عمي الزير سالم وقد تحسنت أحوالي المادية قليلاً..

تعلّمت كيف أستمتع بالحياة وأعمل في ظروف الحياة الانجليزية بمصروف أقل ومتعة أكبر. كما أنشأت في السنة الرابعة صلات تعارف مع الكثير من الأدباء والمثقفين الشباب اللامعين وقد أصبح بعضهم فيما بعد من أشهر كتاب أوربا ، كنت أشارك في الأمسيات والندوات الثقافية التي تقيمها الجامعة أو الجمعيات الأدبية والفكرية. تعرّضت أكثر من مرة لإغواء سياسي بغطاء ثقافي. إلا أني ما نسيت نصيحة والدي. فكنت متحفظاً ولبقاً في اعتذاراتي بعدم الانخراط مع زملاء في منظمات تحررية ووطنية ، أغلبهم كانوا من عرب أفريقيا والشام.

لم أنقطع يوماً عن حضور الفصول الدراسية. وبسبب إصراري المتزايد على الاقتصاد في المأكل والملبس، ففي سنواتي الثلاث الأولى كنت أصوم في الأسبوع ثلاثة أيام. لم أكن أجد الحفاظ على العهود التي عاهدت أمي عليها في تبذير القروش والابتعاد عن النسوان والخرابيط الباقية أمراً بالغ الصعوبة..لم تنقطع رسائلي مع والدي وأختي سمية التي أخبرتني في واحدة من رسائلها الأولى: (أن الزير سقط في الثانوية. وأقعد عيشة بالبيت بعد ما أتعبته بشقاوتها وجسارتها ولأسباب غيرها أحكيها لك بعدين... على فكرة .. البت كبرت ومازالت تحبك يا سيد..).. عجيب أمر سمية لم تيأس من موضوع زواجي..

في سنتي الرابعة كنت أتعمد الابتعاد عن ملازمة أنماط من البشر أتعرف إليهم مصادفة في المطعم أو في الحدائق العامة أو المنتديات الثقافية ، أنماط ترفض التعامل مع الواقع كنقيض، بل تتعامل معه وتعايشه كجزء منها أو تعتبره امتداداً لها ، تستمد قوتها منه بالوهم ويستمد حركته فيها بالهلوسة.. علاقاتها مع الآخرين سلاحية عدوانية بقدر ما تعطي... عميقة ومدمرة بقدر ماتأخذ ، تختلط لديهم الرغبة بالرهبة ، والحقد بالحب، والكراهية بالشبق، كانوا يريدونني كما أنا ليس عربياً وليس أفريقياً ولا حتى أوربياً.. يريدوني فقط سيد " اللا

منتمي "... كائن للمتعة، بجسدي وحواسي فحسب.. اكتشفت فيما بعد أنهم يشكلون أخوية أو جمعية تتستر وراء البهيمية والعبث والمجون لأغراض سياسية متطرفة الهدف منها الاغتيالات والحصول على وثائق سرية تدين الكثير من المتنفذين في السلطة..

إلى أن تعرَّفت إلى فتاة إنجليزية من أصول ايرلندية، فتاة متمردة وثائرة، رأيت فيها فتاة محافظة رافضة لواقعها السياسي والاجتماعي بكل سلبياته، هكذا بدا لي الأمر.. كانت تبدو صادقة بحبها لي، فما كانت تأبه لتحرشات الشبان وتعتبرهم حسب تعبيرها ذباباً لا يستحق منها أكثر من أن تهشه بيدها وتبعده.. كانت تعرف ماذا أكره وماذا أحب. وأصبحت نباتية إرضاءً لي.. تؤمّن لي الكتب التي أعجز عن تأمينها من مكتبة الجامعة أو لا أستطيع شراءها من مكتبات السوق. ساكنتني في بيتي دون أن تفكر مشاركتي الفراش.. قالت صراحة إن لم أطلب أنا ذلك فلن تطلبه هي. تقرأ كثيراً وتناقشني دون أن تختلف معي في الرأي.. ثقتها بنفسها جعلتني أحبها، كنت أتردد في قول هذه الكلمة لها. أو حتى في أحاديثي مع الزير الذي لحقني في نهاية السنة الثالثة. والزير لم يرتح لها من النظرة الأولى حين قدمتها له وهو الخبير بالنساء.. وطلب مني أن ألغيها من حياتي..

امتنعت طبعاً عن مساكنتي منذ أن جاء الزير وسكن معي.. لم أكن أعلم أن الزير قد حط سونيا وهذا اسمها. حطها في دماغه وأخذ يراقبها دون أن تعلم أو أعلم أنا.. وقد جنّد لذلك ثلاثة من أصدقائه المغاربة في الجامعة.. ولم يخبرني بذلك إلا في يوم استفحل فيه حبي لهذه المخلوقة التي جعلتني أسير هواها.. ومريض حبها، المهووس بجسدها الذي منحتني إياه في ليلة من ليال غياب الزير عن البيت.

شعرت وقتها بدوار لذيذ، بعد أن سقتني شراباً شككت أن فيه ما يخدر الجسد ويلهبه بآن.. ومنذ تلك الليلة أدمنت جسدها وأدمنت ما تضعه في الشراب من الماريجوانا أو فتات الحشيش الذي توزعه بدقة

وأناة في لفافة التبغ التي تولعها لي بشفتيها الساحرتين. إلى أن تحولتُ إلى مدمن حقيقي للمخدرات والجنس.. أنا سيد ابن الحاج عثمان الغانم الملتزم والمتربي تربية صالحة! يحصل لي كل هذا الإذلال؟! كل ذلك كان يتم بترتيب منها في إبعاد الزير عن بيتي في أوقات وجودها... كنت مغيباً لم أدرك ذلك، ولم يدرك الزير أيضاً إلا بعد فوات الأوان وكان يراني أذوي وأتعذب أمامه وهو غير قادر على فعل شيء. إلى أن أحس ذات يوم أنه ضحية استبعاد مقصود عني في يومين محددين من الأسبوع من قبل شاب تعرّف مصادفة إليه، مصادفة أوجدتها سونيا اللعينة في طريقه.. كان الشاب يدعوه يومان في الأسبوع إلى الريف بغرض السهر مع مجموعة من الصبايا والشباب حتى الصباح. وذلك في ذات الموعد الذي تكون فيه سونيا معي.

ما عدتُ أتحكم في مصروفي اليومي الذي فاق إمكانياتي في تغطية ثمن الماريجوانا والشراب وما يتبع ذلك من لوازم، وأوقعني في الاستدانة من شاب لطيف لا يتردد في منحي المال لأمد طويل.. هذا الشاب وضعته سونيا في طريقي كمنقذ لظروفي ولم أرها يوماً تكلمه أو تعرفه. وتبين لي فيما بعد أنه ذات الشاب الذي كان يواعد الزير يومين في الأسبوع...

رآه ذات يوم مع سونيا في مقهى الجامعة يتحدث معها خلسة وعلى عجل بعيداً عن الأنظار.. وحدسَ أن أمراً ما، يحصل لي بتدبير من الشاب وسونيا..

حين اقترب موعد الذهاب إلى الريف، اعتذر سالم في منتصف الطريق وعاد فجأة ليجد سونيا عندي بالبيت ووجدني في حالة يرثى لها من الضياع، سألني عن مواعيد قدومها إلي.. أخبرته: (يومي الأحد والثلاثاء) صرخ وقتها: (هما اليومين نفسهما اللذين أذهب فيهما إلى الريف مع الكلب صديق هذه الفاجرة - وصفعها على وجهها - كنت مخموراً، طردته من البيت وكدت أضربه)

خرج وهو متأكد أن هناك ما يدبّرانه لي.. كنتُ في نهايات سنتي الرابعة. وقد تراخت همتي في متابعة المحاضرات. وكثر غيابي عن الجامعة ورسبت تلك السنة.. كانت سونيا حريصة على أن تستأثر بي لوحدها. بعد تلك الحادثة أخلصت لي بكل جوارحها، هذا ما كان يتبدّى لي. فقط حتى تثبت لي كذب ادعاء ابن عمي الزير.. وما كانت سونيا تحبس رغباتها وشبقها معي، حتى تمكنت من ولعي وحبي لها.. وأدمنَتْ جسدي إدماناً شديداً أنساني صيامي ودراستي وحتى مراسلتي لأهلي؟

وحين نضجت الضحية بين يديها وتم ترويضها كيفما شاءت. وغدت بلا حول ولا قوة.. طلبت مني الزواج. وكان لها ما أرادت، ثم بدأت ألاعيبها الخبيثة معي.كنت أحسها تشتهيني وتحتقرني في الوقت ذاته، تبتعد عني وهي تعلم مدى شوقي إليها. لم تكن تنسى وهي معي أنها أوربية بيضاء وأنا أفريقي أسود. ففي لحظات الممارسة لا تتوانى عن شتمي بمناداتي بالزنجي أو بالعربي الأسود.. فما كان يصعب عليها إذلالي في لحظاتها الحميمة حين أكون مخموراً أو منتش بالمخدر. لا حول لي ولا قوة.)

توقف سيد أمام السكن. نظر في وجهي ليرى تأثير ما رواه لي. أظنني كنت محايداً بتعبير وجهي، نظرت إليه وأنا أخّمن النهاية المنتظرة لهذه القصة التي شعرت أني قرأتها في مكان ما. أو قرأت ما يشابهها من أحداث.

***

-7-

أواه يا سيد؟ أيها الغرُّ القادم من غابات البراءة والذهول؟ سليل أبيك الغابيّ الأول أنكيدو لن تعجز غانية الإنكليز عن حلِّ ظهرك وركبتيك بساعة واحدة تحولك فيها إلى حيوان إفريقي مروَّض ومؤنسن. كما فعلت غانية المعبد حين أرسلها جلجامش لترويض أنكيدو صنيعة الآلهة..

ما احتاجت غانية المعبد لترويضه إلا للحظات تتعرى فيها، تنتظره على شاطئ البحيرة ليأتيها أنكيدو وحشاً برياً، ترميه من النظرة الأولى، يقضي وطره معها ستة أيام وسبع ليال، تلذّذ فيها بأطايب جسدها. أنسته فيها من هو ومن يكون. غادرها من غابي متوحش إلى حيوان عاقل! مؤنسن.. وحين أراد العودة إلى قطيعه نفرت منه الأيائل وما عادت تحمله ركبتاه..

فتاة سيد.. تعيد التاريخ نفسه بذات الأدوات وإن اختلفت الظروف.. علَّقته بحبائلها فظلَّ يطاردها، وأخذت ترفضه رفضاً كاملاً مع أنها تريده. إلى أن طلبتْ منه الزواج تنظيماً لعلاقتها الجسدية معه، وتم لها ذلك اعتقاداً منها أنها ستمتلكه. كان مأخوذاً بها، غير دار بألاعيبها مع صديقها الذي رمته في طريقه والذي أصبح سيفاً مسلطاً على رقبته يطالبه دائماً بديونه. مما اضطر سيد أكثر من مرة لأن يرسل لوالده يطلب منه حوالات مالية. وهذا أشد ما كان يؤلمه في كل هذه العلاقة... ولكنها تعودت على أن تثيره بشتى الوسائل والأساليب العنيفة دون أن تسمح له بالاقتراب منها، هو البربري المتوحش والجميل بنظرها. المتأهب دائماً لتحقيق رغباتها.

كان قلبه مفعماً بالدمع. يشدُّ إلى عنقه رغيفَ الذل والشهوة، فما عرف جسد المرأة، إلا معها في عنفوان شبابه وهو الذي كان يخجل من كلمة حب. وظلت هكذا تعذبهُ وتعمل على تهديم أعصابه بلا رحمة

حتى أوصلته إلى حافة الجنون.

كنتُ أستمع إلى سيد وقد دخلنا الغرفة وجلس كل منا على سريره مواجهة الآخر. منتظراً أن يفاجئني بقوله: (وهذا ما حصل مع مصطفى سعيد في رواية موسم الهجرة إلى الشمال).

لكنه تابعَ وكأنه يؤكد ما يدور بذهني من شكوك:

- وذات يوم وضع الزير حداً للأمر وهو الذي لا يرضى بأنصاف الحلول.. وقد تجمعت لديه الخيوط كلها، وبيّتَ نية بحق سونيا وصديقها. كنتُ أُطلعُهُ على كلِّ ما يجري معي بعد أن كشفها على حقيقتها، ووعدني أنه سيتصرف، أعرفه حين يقرر أمراً ما، لا يتراجع عنه لو كلفه الأمر حياته.. فكيف وهو يراني أذوي وأتعذب أمامه من أجل امرأة يعتبرها في سرِّه وعلنه إحدى ساقطات الغرب إن لم تكن الوجه الحقيقي له. أخذني مرة لطبيب نفساني، وبعد الكشف نصحهُ إدخالي مصحة للعلاج النفسي، وإلا سيفقدني نهائياً. لكنه بعد أن أدخلني المصحّة دخلَ هو السجن. فقد قتل سونيا في بهو الجامعة على مرأى ومسمع الجميع بعد أن تلاسن معها ووصمته بالأسود الكريه والأفريقي المتوحش.

التقاها في الجامعة صحبة الشاب ذاته.. أراد أن يكلمها على انفراد إلا أنها رفعت يدها لتضربه، فصفعها على وجهها بحضور صديقها المتواطئ الذي فرَّ ليتصل بأمن الجامعة. سحلها من شعرها حتى باب الكلية أمام كل الطلبة الأجانب. الطلاب الإنكليز ما انفكوا يصرخون مع التصفيق بصوت واحد: (قاتل أسوَد آ - آ ، عربي متوحش أُوو – أُوو) ما كان يريد الزير للأمر أن يتجاوز الضرب والتأديب. لكنَّ تجمّع الطلبة ونشيدهم الاستفزازي المتواصل، ألهب الحقد الدفين بداخله لكل ما هو أوربي، ولكل ما ارتبط في ذهنه عن الاستعمار والغزاة في دراسته الأولى وكان يصرخ بأعلى صوته: (سأجعلك عبرة لكل عاهرة تسوّل لها نفسها العبث بمشاعر الآخرين.) وفي وسط هذا اللهب المستفز من الصراخ والتصفيق والسباب، وقفت

سونيا وأخرجت من حقيبة يدها مسدساً صغيراً ثم شتمته وبصقت في وجهه إلا أن الزير عاجلها بضربة على يدها أوقعت المسدس وصفعة قوية أخرى أوقعتها على رأسها بعنف على حرف الدرج فأغمي عليها وماتت بسبب نزف في دماغها.. قال أحد المغاربة من أصدقاء الزير الذين شهدوا الواقعة... أنه بعد أن رآها قتيلة على الأرض.. رفع عقيرته بالغناء الحزين ثم بالضحك وتربع على الأرض.. يتمتم: (ماذا فعلت؟ ضيعت روحك يا سالم؟ سامحك الله يا سيد..) وسمعوا نشيجه الصامت تخللته ابتسامة رافقتها دمعتان أحس فيهما أنهما غسلتا عار ابن عمه سيد.. عاري أنا.

وكانت فضيحة دوّت بها لندن.. وصل صداها إلى الخرطوم وأم درمان. وكانت صور الزير تملأ الصحف البريطانية جوارها صورة لي أخذت من أرشيف الجامعة تحت مانشيتات عريضة: (القاتل أسود... والضحية بيضاء.).... (سوداني يغتال زوجة ابن عمه البريطانية، إنقاذاً له من جنون محقق. ترافقها صورة لي وأنا بثياب المشفى) ومانشيت آخر في مجلة حاقدة:(أفريقي يغتال الحضارة بسكين البداوة والتخلف.)

دام الاستجواب والتحقيق معنا ثلاثة أشهر أبقوني في المشفى تحت المراقبة لحالتي النفسية المتدهورة ولعدم ثبوت اشتراكي بالجريمة ولوجودي وقتئذ في مستشفى الأمراض النفسية أُعالج من خبلي في العشق والإدمان، فقد قرأت الخبر أول مرة في جرائد المساء.. بينما الزير أودعوه السجن، وحكم بأكثر من تهمة.. فقد دبر له صديق سونيا تهمة الاتجار بالمخدرات. كان يمتلك نسخة من مفتاح بيتي أخذها من سونيا.. في يوم الحادثة تسلل الشاب إلى بيتي بعد اعتقال الزير ووضعَ المخدرات في حقيبته وخزانته.. تراوحت مجموع أحكامه بتهم القتل والاتجار من اثني عشر إلى خمسة عشر عاماً ..

آلمني كثيراً ما عاناه الزير من أجلي في سجنه. خرجت من المصحة محروماً من الدراسة في الجامعة لمدة سنتين.. عملتُ فيها لدى صاحب المطعم النباتي ذي الأصل الاندونيسي. أغسل له الصحون وأقدم الطلبات وأنظف المكان بعد الإغلاق مقابل أكلي وشربي ومنامتي وثمن علبة

تبغ رخيص.

وبعد عامَي الحرمان من الدراسة أكملتُ تعليمي بعد أن مر علي ما مر من مرارة العيش وشظف الحياة، وما كنت أفكر إلا بما سيقوله عني أبي حينذاك وما تفعله أمي بنفسها من أجلي وقد وصلتهم أخبار مرضي وسجن الزير..

أحسستُ أني أكملتُ تعليمي فوق جراح ابن عمي، بل فوق جثته. نعم فوق جثته، فقد قُتل الزير في السجن بعد عام تقريباً من دخوله إليه..

وبعد تخرجي من الجامعة ما عادَ بي رغبة في الرجوع إلى السودان وخاصة بعد أن جاءني خبر وفاة أمي حزناً عليَّ وعلى وفاة الزير.. هذا النبأ حطم قلبي وزعزعَ إيماني وثقتي بنفسي. وجعلني غير قادر على البقاء في لندن أو في المملكة البريطانية كلها، كانت صورتي معروفة للجميع صورة الأفريقي التي نشرت في الجرائد. زوج الايرلندية البريئة الذي تآمر مع ابن عمه المجرم لقتلها.

ذهبت أتسكع في أوربا أدور في المدن الكبيرة التي تكثر فيها الجاليات الأفريقية العربية وبالأخص السودانية. عملتُ لفترة مدرّساً هناك ليس بشهادتي الجامعية المغمسة بدم الزير بل بوطنيتي كمدرسٍ للغة العربية لأبناء الجالية السودانية، حدَّثتُ أطفالهم عن السودان الحر المستقل بدون استعمار ووصاية... عن النيل رمز الأرض والأصالة، رمز أفريقيا كلها. أسمعتهم قصائد محمد الفيتوري. الذي ارتبط اسمه بأفريقيا لكثرة ما عبر عن معاناتها وتغنى بكفاحها منذ ديوانه المبكر (أغاني أفريقيا). وقد ترجمت له الكثير من أشعاره للإنجليزية. كما حدثتُهم عن رغبتي في أن أُلقي نفسي في هذا النهر المقدس. لأتطهر من آثامي لعلّ والدتي تسامحني وهي في جنان الخلد.

رحماك يا أمي وكأنك كنت تعلمين شيئاً عن الخرابيط التي جابت أجلي، وأودت بابن عمي الزير إلى قاع الجحيم... سالم الذي أخبرني قبل مقتله بأيام، أنه عقد قرانه على سمية على أمل أن يعود في الصيف ليعرس عليها ويفكر أن يأتي بها إلى لندن.. كان قد ترك ذلك

الأمر مفاجأة لي يخبرني به في الطائرة حين عودتنا.. سألته مرة في إحدى زياراتي للسجن، قبل مقتله بأيام: (كيف تقضي وقتك في السجن؟) سؤال سخيف مني، لكني سألته! ضحك ورد ساخراً: (أذهب كل أحد وثلاثاء للريف، أغيّر جو، وأعود للعب الغولف في النادي. ثم أتعاطى في البيت الماريجوانا والنساء. و.) أحسست بالذنب من كلامه المبطن.. وتابع من وراء القضبان بذات الألم: (سيد.. تسألني كيف أقضي وقتي؟! أنا أموت في اليوم مئة مرة.. ليس خوفاً من السجن وجدرانه العالية والتي أحسها فوق صدري. بل على عمي عثمان الذي خاب أمله فينا.. وعلى سمية التي وعدتها بعرس لم تشهده أم درمان كلها.. وعلى مراة عمي عثمان التي ماتت قهراً على ما جرى لك ولي.. وعلى عيشة التي تنتظرك منذ مئات السنين.. سيد يا ود عمي لم يتبق لي من حياتي سوى طفولتي. أدير ليها تفكيري، هذا ما أفعله طوال اليوم أتفقد مسبحة ذكرياتي حبة حبة، من حرب البسوس وعصاي وحماري والغنم ونخلات جدنا الغانم والبئر والدومة والقبور. إلى حذاءك الذي عقرك أكصد عقر رجلك. هل تذكر يا سيد القبور التي تحتضن أبي وأمي وأخيراً احتضنت امراة عمي، والله أعلم من بعدهم فحبات المسبحة تكر ولا تنتهي..)

توقف سيد فجأة عن الكلام، وكأنه توقف عن الركض في سرداب طويل يمتد في أعماقه المظلمة. كان يبكي بصمت، احتبس دموعه واستدار عني.. تركته ينشج وقمت إلى البراد قدمت قليلاً من التفاح في صحن وضعته أمامه على الطاولة.. نظر إلى الصحن، أمسك بالسكين، تأملها ثم طعنَ بها تفاحة وقال: هكذا تؤخذ الحياة. ...

- أبالقتل يا صديقي؟ ...

يبدو أني أثقلتُ عليه بقولي. رشقني بعينين غاضبتين إسودّ الزيتونُ فيهما واحمرَّتْ شراينُ سمائهما، فأحسستُ بنار تلفحني من نظراتهَ، أدركَ أني أتهمه بقتل سونيا وأني لا أثق بكلِّ روايته. قطع التفاحة نصفين أعطاني واحداً وقال:

- الزير من قتلها وليس أنا، وكم تمنيتُ أن أكون، ولكني جبُنت، فحبي لها أعمى بصيرتي. وقلّل حيلتي وأودعني مشفى المجانين. كانت هي أول امرأة تغتال مني الجسد.. بل أول امرأة أحترقُ بين جنباتها كنت مثل جرادة أحرقها سعير الهاجرة فارتمت في أول هشيم مشتعل، خذ. كُلْ ولا تشغلْ بالك بمن قتل. أخذتُ نصف التفاحة وفاتني نصف الحقيقة من روايته. ولكن ما فارقني اعتقادي أنه خارجٌ لتوِّه من رواية موسم الهجرة للطيب صالح..

تابع سيد حكايته:

- عدتُ إلى السودان بعد غيابٍ عشر سنوات؟ استقبلوني أهلي استقبال الفاتحين، ممّا ولّد عندي إحساس بالخزي والعار. كان أخي رحيّم مع زوجته رقية بنت خميس البديري وأولاده الخمسة أول المستقبلين وعماتي الثلاث وأزواجهن وخالتي جليلة وأولادها وخالي جلول وابنته هبة الله التي هجرها زوجها ليلة زفافها حين اكتشف أنها حولاء وسمعها ثقيل حسب تقارير سمية في رسائلها لي بالغربة. وأبي الذي ما عرفته لأول وهلة فقد ابيضَّ شعره وترهلت وجناتاه وعضلات عنقه، كان آخرهم في استقبالي. ضمني وبكى. وأبكاني معه، قال: (كم تمنيت أن تكون أمك معنا في استقبالك... رحمها الله ماتت بحسرة رؤيتك) أجلسني بجواره على الكرسي الطويل الذي يتوسط صالة المطار.. ولم يصبر حتى نذهب إلى البيت.. سألني بعتاب عن زواجي اللعين من عاهرة لندن.. التي تسببت بمقتل ابن عمي سالم.. لم أنطق بحرف، لكنه حين نطق اسم الزير تذكرت أختي الحبيبة سمية.. بحثت عنها بين الموجودين فلم أجدها. سألته عنها فأجاب: (منذ وفاة أمك تلازم بنات عمك، أخوات سالم في بيتهم. أصرت أن تنتظرك في البيت، ومعها أسماء ونجلاء ومحسن. بحثت عن وجه آخر بين المستقبلين، فلم أجده).

تمدد سيد على فراشه، أغمض عينيه على حريق شب فيهما.. لابد أنه أُنهك بعد هذا الطراد الموجع في وديان الذاكرة.. تركته يرتاح... ولكن ما بال ذاكرتي لا تدعني أرتاح.. استفزها حديث سيد عن أبيه

فأخذتْ تلملم أوراقها أمامي، تستعرض سطورها واحداً تلو الآخر.. تذكرت أبي الذي تغير كثيراً بعد خروجه من المعتقل.. كان يرى فيَّ شبابه. كنتُ بكرهُ من الذكور الذين ملأوا حياتهُ بهجة وفرحاً بعد شقيقتي نبال. تتالت بعدي العائلة، كثُرَ الضنى وكثر معهم همهم، شالت أمي الكثير الكثير عن أبي في تربيتنا ودراستنا فما كان يدري شيئاً عن دروسنا ونجاحاتنا وإخفاقاتنا، مشغول عنا بالسياسة التي شوهت إحساسه تجاه قيم المجتمع وتجاه الآخرين.. ما عاد يثق بمخلوق.. تقاعد قبل موعده بعشر سنوات. اعتزل الدنيا. أهمل أمور البيت، اعتمد كلياً على الوالدة في تسيير شؤوننا وتأمين حاجياتنا.. كانت تخفي عنه كل ما يؤرقه، تشتري راحته بحرماننا من الحركة واللعب.

دائماً عباراتها في إخراسنا متشابهة، ولها وقع الشوكة في الحلق والمخرز في العين: (هس أجا أبوكم)... (اقطعوا الصوت، أبوكم يسمع الأخبار) (أبوكم نائم ولا كلمة) (لا تتنفسوا أبوكم عنده ضيف) ورغم طاعتنا التامة له وانصياعنا لأوامره دون تلكؤ أو تردد ، إلا أنه لا يتوانى عن ضربنا جميعاً إذا جاءته شكوى من أحد الجيران أو من المدرسة على واحد منا.

عند الغداء أو العشاء كانت أمي تخبِّئُ له أطايب الأكل، تقشِّر له الفاكهة والكلام الحلو، حتى حبات العنب تقشرها، بل تفتحها حبة حبة لتخلصها من بذورها الصغيرة خشية أن تعيق مسير باقي اللقم في فمه.. تقدُّ له الخبز بحجم الكف وأحيانا بحجم اللقمة كيلا يكلّفُ نفسه وسعاً في تقطيعها، يقيسها على نصف كفه. ويا ويلها إن كانت القطعة أكبر أو أصغر. يرميها بها وبالصحن الذي أمامه... كانت ومازالت تعرف متى يجوع ومتى يعطش ومتى عليه أن ينام ومتى عليه أن يصحو.

حتى غدا لا يعرف أنه جائع إلا حين تأتيه بالأكل، ولا يعرف موعد نومه إلا حين تهيئ له فراشه. ورغم كل هذا الاحتفاء المذل لها لا يتردد في القسوة عليها، ولا يسامحها في أخطائها الصغيرة، كأن تنسى

الملعقة أو تنسى وضع الماء في منفضة السجائر كي لا يتطاير رمادها من هواء المروحة، فيقلب السفرة عليها، ترتبك المسكينة وترتعش، وبصمتٍ مخذولٍ تلملمُ بقايا الأكل عن الأرض وبقايا المذلة عن روحها! تخرج إلى مطبخها تبكي بعيداً عن أعيننا. كنتُ ألحظها تختبئ كل مرة خلف دموعها كسيرة ذليلة.. أستغرب من أبي ما يفعل، وهو الحاج لبيت الله، المتدين والمتثقف والمتفهم للمشاعر الإنسانية؟! أسألها: (لماذا يفعل بك ذلك؟) تقول والغصة تملأ قلبها: (هذا طبعهُ منذ أن خرج من المعتقل، وزاد الأمر سوءاً بعد تقاعده! وبعد تركه للسياسة)... أصبحنا أخوتي وأنا نخافه كثيراً، نهابه حتى الموت. نقف مع أمي أحياناً في المطبخ كي نذكّرها بالسكين والشوكة تضعهما في السفرة والماء في صحن السجائر، لأن غضبه على أمي، يعني غضبه على كل من في البيت، يستمرُّ الحال على ذلك يومان أو ثلاثة وأحياناً أسبوعاً كاملاً ينحر فيه الكلمات والشتائم في صدورنا حتى يوغرها فتطول علينا الليالي وتسودّ الأحلام، حتى نلمح شراعاً يلمع في أفق عينيه الملونتين يتوهج بابتسامة تنعكس على محياه، نعرف وقتها أن الغمّة قد انزاحت. وكأن شيئاً لم يكن، يبتسم معنا ويمازحنا.. ولكن الرهبة لا تفارقنا والخوف من العثرة التي تقصم ظهر هذا الوفاق المشروط لا تغيب عن بالنا. حتى أقربائنا حين يرونه في غرفة المعيشة وليس في غرفته يعتذرون عن الدخول وينقلبون على أدراجهم من حيث أتوا.. أنبني أناي قائلاً: -

(لا أدري إن كان من اللائق أن تتحدث عن أبيك بهذا الشكل؟).

- (ولكنها الحقيقة التي ما فارقتني لحظة. وأنت أدرى بذلك.)

- (ولكن ليس أمام الغرباء، يكفي ما رويته له.)

- (لكني ما كنت أحدثه، ومن ثم هو نائم.

لم أحدثه عن قسوة أبي، على العكس حدثته عن معاناته في السجن وعن رجوعه سالماً بعد أن فقدنا الأمل برجوعه. وعن حنّيته حين احتضنني وبكى ليس أكثر)

- (لا لا، أنت حدثته عن قسوته مع الوالدة ومعك ومع أخوتك. انتبه لنفسك.)

- (لحوووول... ألهذه الدرجة أصبحت لا أميز بين التفكير بصمت أو التفكير بصوت عال..)

تململ سيد في رقدته، ثم قال بهدوء صياد سمك:

- لا تبتئس يا صاح.. قد يكون والدك يعاني من أزمة نفسية ما.. لازمته طوال حياته.. تعتقد؟ هل من السهل على الرجل أن يخرج من معتقل ويبقى على ما هو عليه كما دخل!.. حمزة قد يكون والدك الآن في مثل عمري أو يزيد، أتذكّر الآن والدي كيف كان يعامل أمي بعد تقاعده.. وشعوره بأنه أصبح عالة على البيت وعليها وعلينا كلنا.. وأنا أشعر بشكل أو بآخر أنه كان سبباً في تعجيل موتها، أستغفر الله.... صحيح أن الروُماتيزم هدَّها وأتلف ركبتيها من وقوفها الطويل في المطبخ.. وكثرة الولادات جعلت نسبة الكلس في عظامها صفر.. وما كانت ترضى بطبخ أحد من بناتها ولا تقنع بتنظيفهن أو جليهن للأواني فتُغرق نفسها بالماء دون واقية تضعها على صدرها. وأصابها مرض القلب جرّاء توترها وخوفها الدائم من غضب والدي الذي غدا بلا مبرر.. وجزعها علينا حين كان يستفرد بواحد منا بحجة تأديبه، كان لا يرحمه ضرباً ولطماً حتى يتعب أو حتى يرى الدم يغطي وجهه فيتوقف عن الضرب. كان والدي قاس علينا أكثر بكثير مما كان والدك.

لزم سيد الصمت.. ولزمت التفكير في حالتي المرضية.. أخرجتُ لفافتين أشعلتهما وأعطيته واحدة. مجَّ نفَسين عميقين منها ثم عَفَسها بطرف الصينية وكأنه يؤكد لي أن لاشيء في هذه الدنيا يستحق أن تضحي لأجله. حتى الآباء.. قطع صوت المؤذن الصمت الذي خيم على الحجرة يعلن لصلاة المغرب..

***

- 8 -

كانت المرة الأولى في حياتي أستمع فيها لرجل تجاوز الخمسين يحدثني عن والده بهذا الوهج من الصراحة والألم.... عاد من الصلاة شارداً مسوّراً بغضب يضج في عينيه ومن تحت عمامته.. عاد يختبئ في دمه فزع النسور. أشعل غليونه، رفع رأسهُ ونفث الدخان في هواء الغرفة البارد، آثرتُ الصمت خشية إثارة غبار ذكرياتهِ المؤلمة ثانية. تناول كتاباً أجنبياً من مكتبته، قلّبه دون تركيز، ثم أغلقه وأبقاه بيده، وتابعت ذكرياتي عن أبي بشكل صامت... أناي، هل تسمع؟ بشكل صامت ولا أظنه سيسمع كلمة مما سأقول : (كنا في صغرنا وحتى مرحلة المراهقة نرتجف بين يديه، لا نستطيع تركيبَ جملة صحيحة حين يسألنا أين كنا؟ ونجيب بالكلمة المعتادة: (هنا) يعيد السؤال مئات المرات والإجابة ذاتها: (هنا) أو يسألنا ماذا كنا نفعل؟ وأي تأخير في الإجابة يصفعنا بلا رحمة على وجوهنا حتى تأتي الوالدة تخلّصُنا من بين يديه. وينالها ما ينالنا من الضرب والأذى. نتلكأ ونتأتئ ويتلجلجُ الكلامُ في صدورنا قبل أفواهنا حتى غدت عادة فينا. وأصابنا مرض الرجفان الأذيني وتتضاعف كمية الأدرنالين في شراييننا لكل حالة فزع تنتابنا بدءاً من أمي وانتهاء بأصغرنا.. ما كرهتُ يوماً أبي، لكني وأخوتي كنا نجزع منه ونبتعد عن مجالسته حتى غدا يقضي الساعات الطوال وحده في غرفته. كان بطبعه يحب التسلطَ والسيطرة ويتلذذ حين يرى الآخرين أذلاء بين يديه. حتى ولو كانوا أولاده. كنت أرى ذلك على وجوه مراجعيه من بسطاء الناس في وظيفته حين يأتون أغلب الأحيان طلباً لحاجة يقضيها لهم بحكم عمله. فهم على بساطتهم لا يعرفون صياغة الطلب أو تحديد ما يرغبون، فيصفهم بالجهلة والأغبياء.

والحمير. يمزّق طلباتهم ويرميها في وجوههم..)

أعاد سيد الكتاب إلى مكانه وتابع ذكرياته عن استقبال أهله له:

- خرجنا من المطار في موكب من ثلاث سيارات، كانت سمية ونجلا وأسما في استقبالي وخلق كثير أتوا ملتمّين في البيت. عانقتُهم واحداً واحداً. توقفتُ عند عبد المحسن، أصغر أخوتي الذي أصبح شاباً وقد تركته ابن تسع سنوات. كانت روحه معلقة بأمي وكان أكثر أخوتي حزناً عليها. تقف بجواره صهباء آخرُ العنقود من بنات عمي أخوات الزير..

توقفتُ طويلاً عند أختيَّ نجلا وأسما اللتين غدتا عروسين. احتضنتهم بشوقِ عشر سنين، أما سمية المتشحة بالسواد أكثر من أختيها فحزنها على زوجها وابن عمها الزير يزيدها وقاراً... كان سالم كما قلت لك قد عقد قرانه على سمية لكنه لم يعرس، كان يأمل أن يعود برفقتي كي نعرس سوية. أنا على عائشة أخته وهو على سمية أختي... لكن الذي جرى حطم كل تلك الأحلام..

سمية تحبني ولم تشعرني أنني السبب في مقتل الزير. تحدثت معها طويلاً وأفهمتها الذي حصل بالضبط. ومع ذلك ما فارقتها مزنة الحزن في عينيها.. ثم بعد يومين من وصولي أخبرتني أمراً مفاده أن عبد المحسن أخونا الصغير كان ينام عند قبر أمي طوال الليل في أيام وفاتها الأولى.سألتها: (وأبي أما كان يمنعه؟)

- (بلى. أمسك به ذات يوم يحفر القبر لإخراجها، تصوّر؟! قال أنه سمعها تبكي بداخل القبر وأنهم عجلوا في دفنها، ويؤكد في كل زيارة لها أنها مازالت حية لم تمت.)

- (وماذا فعل به أبي؟)

- (ضربه.. وأبكاه، لكنه احتضنه وجلس يبكي معه. سيد.. لقد تغير أبي بعد وفاة المرحومة! انكسر...)

في اليوم الثاني من وصولي بعد أن عاد أبي من صلاة الفجر ومن زيارته المعتادة لقبر أمي، تمدد وأغفى، غطيته بلحافه الشهير هذا الذي تراه أمامك، واطمأننت على نومه، خرجتُ لأزور قبر أمي، هناك حيث البرية تتسع لكل القرية. صادفتني سمية أختي وهي عائدة من النهر تغتسل فيه مع باقي الصبايا كعادتهم كل صباح.. وضعت يدها بيدي وقالت:

- (أما اشتقت للسباحة في النهر؟)

- (اشتقت للسباحة في عيونكم وقلوبكم والتسكع في شوارع أم درمان. آه يا أختاه ما أجمل الوطن حين يكون بداخلنا كبيراً وجميلاً. ونكون بداخله حبات رمل تتناثر على شواطئه تتوهج تحت شمسه وغيمه وعطر أنفاسه.)

- (أصبحت شاعراً يا سيد.. وين غادي من الصبح؟..)

- (أزور قبر أمي، لم أزرها بعد..).. (خذني معك..)

مشت سمية على يميني أرخيت ذراعي حول عنقها وبصري يمتد هناك حيث الأحجار البيضاء المتناثرة... قبور القرية. أدخلتْ سمية يدها اليسرى في جيب ثوبي الملاصق لها كعادتها وهي صغيرة.

تذكرتُ الطفلة عايشة التي تعلّقتْ يوم الوداع بعنقي، سألت سمية: (سمية، أين عايشة؟ لم أرها في المطار أو هنا في استقبالي.. هل تزوجت؟). كانت سمية قد تآلفت معي بسرعة. وكأني لم أغب عنها يوماً واحداً. عادت لمرحها القديم. قرصتني من يدي وقالت: (مالك وبنات الناس؟ البت مشغولة. سيبها بحالها).. (بجد سمية.. ما رأيتها مع المستقبلين!) كنت أخشى الإجابة أنها تزوجت. ولا أدري وقتها ما نوع المشاعر التي حملتها لعائشة. ولكن لم كل هذا القلق والتوتر وأنا لم أفكر بها يوماً واحداً في غربتي..

كان عبد المحسن أصغر أخوتي قد انضم إلينا في مشوارنا الصباحي. حاولت أن أسأله عن حاله ودراسته. وإن كان هناك بنت قد

حطّها في باله عشان خطبة أو عشان أي حاجة.. ضغطتْ سمية يدي المرخية حول عنقها وغمزتني.. ففهمت أن أخي الصغير يكره الأسئلة والثرثرة، كان في مشيته صامتاً كتوماً، فسكتنا مثله عن الكلام. وقبل أن نصل إلى المقبرة، توقف وقال:

- (أنا لا أزورها مع أحد. اذهبوا أنتم)

كان ذهني مشغولاً بعائشة، سألته : (تزورُ من؟)

قال بعصبية: (أزور من يعني؟؟ ألسنا ذاهبين لزيارة أمي؟)

- (نعم!) نطقناها سوية، سمية وأنا.

- (اذهبوا وحدكم، أنا لا أزورها مع أحد.. أزورها فيما بعد)

احترمتُ مشاعره، فما ألححتُ عليه بالبقاء معنا، تركته يعود. ثم نظرت إلى سمية، كان في فمها كلام كثير تحكيه لي. وفي عينيها حكايات خبأتها لحين عودتي، قبّلت جبينها ورفعت خصلة منسدلة على وجهها مبتلة بماء النهر، همست لها بلطف: (سمية الحبيبة، أنا أيضاً بحاجة ماسة لأكون معها وحدي، أحضنها، أشم عطرها، أبوس الأرض التي احتوتها، والتراب الذي انهال عليها. آ خيّة؟)

ردت سمية (آ خويا لعينيك كل شي يرخص، خلاص أعاود وبعدين أزورها) وما زالت تمسك بيدي الملتفة حول عنقها وتابعت: (مثل ما تريد يا سيد. ولكن حط ابالك عايشة جايه بعد شوي.. احتمال تجيك وانت مع أمي، سيد لا تخذلها.. البنت انتظرتك ياما.) طبعتْ سمية قبلة على راحة يدي وركضت تلحق بمحسن؟ تابعتُ وحدي أتخبط بين القبور. مازلتُ أذكر المكان المخصص لقبور العائلة لابد أن قبر أمي سيكون الأكثر بياضاً وحزناً وحضوراً، فمنذ موتها ما مات في العائلة أحد. عرفته من الشاهدة الرخامية يلتف عليها شالها الأسود، لا أدري من صاحب الفكرة.. ولكنها لفتة جميلة منه.. ولا أدري أيضاً من هو صاحب أول فكرة لتجصيص القبور بالأبيض.. أظن الأمر كان لاعتبارات كثيرة، إحداها - وهذا رأيي طبعاً - أن اللون الأبيض

يعكس حرارة الشمس بل يرفضها راضياً وقانعاً ببرودته االثقيلة يشرّدها على جسد الميت في لحده تقيه حرارة البرزخ.

ارتجف قلبي ونفر دمعي حين لامست القبر.. قرأتُ الفاتحة وجلستُ على حجر كان جوار القبر، بكيت... طلبتُ منها أن تسامحني على عقوقي وخذلاني لها.

كانت الريح تعتلي منصة حزني، فتنثره شلواً تلو الآخر، نشيداً خفياً يغلف القبور. ورماداً يتساقط مع رذاذ المطر الهاطل، أسود بلون شال أمي وأخضر بلون عيون الفراشات..

رحمها الله، كانت تريد لي عايشة حليلة.. عايشة التي أكملتْ تعليمها من أجلي.. لأني وفي إحدى رسائلي لأمي في عامي الأولى ذكرتُ لها مازحاً: (كيف سأتزوج من عائشة وهي لا تحمل سوى الابتدائية.) وما كنت أدري أن عائشة كانت تقرأ رسائلي لأمي، كنت أحسب أن سمية هي التي تقرأها وهي التي أخبرتها. لكن سمية حلفت أنها لم تخبرها بشيء. وكانت أمي تشجع عايشة على الدراسة مهددة إياها: (إن لم تنجحي وتاخدي الشهادة فلن تستحقي سيد. ولن ينظر إليك.)

سلام عليك يا أم سيد سلاماً يوغل في القلب....

كانت ردة فعل عايشة بعد تلك الرسالة والتشجيع أن نالت الإعدادية بتفوق دون دوام بالمدرسة. وتقدمت هذا العام لنيل الثانوية وهي الآن عند خالها في البندر تنتظر النتيجة. وما غيابها أمس عن استقبالي إلا لرغبتها في لقائي وهي تحمل شهادة الثانوية بيدها... هكذا هي عائشة.. كبرياء لا يرضى دون النجوم سريراً لأحلامها..

لمحت زولاً لامرأة من بعيد حين كنت أعالجُ أفكاراً شتى.. أتساءل كيف تلقت عائشة نبأ اغتيال شقيقها سالم. وهل ترمي علي اللوم كما أقرأ في عيون الجميع.. أفزعني الخاطر وأبعدته فوراً، ها قد مضى أكثر من أربع سنوات على رحيله، وثلاثاً على وفاة أمي. فلا أظنها ما زالت تحمل ضغينة أو لوماً.. مضى الوقت سريعاً وما زال الرذاذ

يتساقط، رغم الشمس المخدرة وراء الغيم.. وما زلت أجالس أمي حين اقتربت أكثر. من تكونُ هذه الصبيةَ العملاقة كأنها فرس حرون تعدو تجاهي في يومي الأول بعد غياب عشر سنوات؟

كانت امرأةٍ بحجم نخلة، تخبُّ الخطى. تعبث الريحُ بشالها وأذيال ثوبها. وقفتْ أمامي تتأملني باسمة بين الرذاذ والريح. استيقظت عصافير غافية في مكان ما من قلبي!

اقتربت خطوة.. لم تتردد فيها، وكذا فعلت بالثانية.. لكنها بالثالثة انحنت وأمسكت يدي الاثنتين وأنهضتني:(سيد، يا ابن عمي ما عاد ينفع البكاء، انهض فقد سامحتك أمي منذ زمن. انهض). رفعتُ رأسي، حاولت النهوض. جديلتها كانت بمستوى ركبتيها مفلتة أمام عيني.. غطت بها عين الشمس.. تقافزت العصافيرُ أكثر فوق أديم قلبي تنقر الحبَّ... ما عدت أشعر بالريح ولا بالمطر.. ولا بيديّ..

عادت بي الذاكرة لعشرِ سنين خلت! هل تكون عايشة؟ الفتاة الشقية التي تعلّقت بعنقي ذات وداع؟ ونثرت الحَبَّ في بيداء قلبي بيديها الصغيرتين. وعادت الآن لتَلقَى حصاد زرعها.. أغمضت عيني حين شممت عطرها.. فأيقظتْ كل القطا والحباري... ورفرفت العصافير.

قالت: (عطّرتُ لك شالها وربطته على الشاهدة لتميّز قبرها.) إذاً كانت هي صاحبة الفكرة. عائشة!..

بنت عمي. ابنة التسع سنوات، غدتْ في العشرين، كانت لا تنادي والدتي إلا بأمي فقد تربَّت في بيتنا مع أخواتي سمية ونجلا وأسما... نهضتُ وما زالت يدي بيديها، تأملتها.. خشيت أن أتهالك كشجرة يابسة على قبر أمي أمام هذا الجمال الإلهي القاتل. خبَّأتُ شهقة كادت تفضح دهشتي بجمالها، حررت يدي وتلمست جديلتها المفلتة وقد ردت نصفها على صدرها.

سألتها: (عايشة! أيتها الشقية متى كبرت؟ وكيف غدوتِ بهذه الفتنة والجمال؟) خرجتْ عبارتي الأخيرة لاهفة فياضة بالمشاعر.

انتصبتُ أمامها.. تكاد تقاربُني بالطول لفرط رشاقتها ورهافة قدها. كانت امرأة ولا كل النساء، صافية الوجه رقراقة بلون العسل. مجنونة بجمالها، غجرية بتراسيمها. سبحانَ الذي خلق وصوَّر. عيناها سمكتان ما تركتا للشط مكاناً يتوسطهُما جمان بلون العقيق الأخضر. يقولون إن جدّنا الغانم كانت عيناه هكذا.. حطّتْ يدها كقمر تهادى على كتفي وقد أخذت تضيقُ المسافة بيننا. وتضيق معها روحي بكل ما عداها. مازالتْ عائشة تحتفظ بجديلتها تهزجُ فوق ظهرها. حلّتها كاملة وفردتها أمامي.. فكان شلالاً من الرذاذ والعطر والليل أراقت بغنج موجة منه على وجهي وعلى كتفيها وظهرها فغدت أكثر جمالاً وأنوثة. قالت: (منذ اللحظة ما عاد للجديلة وجود، فحِملها يا سيد أثقل ظهري طوال السنين التي انتظرتك فيها. هي طفولتي كلها خبأتها لك، ولكن بقدومك ما عدتُ أحتاج لطفولتي. فقد كبرتُ يا سيد. كبرت.) احتضنت عائشة يداي، وتشممتْ راحتيهما بعُمق تبحث عن عِطر قديم، ثم قبلّتهما قائلةً بهمسٍ دافئ: (تسألني يا سيد متى كبرت؟ كبرت وأنا أنتظرك، هلا منحتني متعة التعلق بعنقك كما فعلتُ بالمطار. كم تغيرتَ يا سيد؟ غدوتَ أكثر جمالاً وجاذبية!) تصاعد الدم إلى وجهي.. مر وقت وهي تتأمل خجلي واحمرار وجهي. سألتني وهي تنظر في عيني عن أخيها الزير وكيف كان مقتله دون أن تنطق كلمة واحدة؟ قرأت في عينيها السؤال الكبير.. لم أتردد أخبرتها كل شيء، احتضنتني وبكتْ. خانتني يداي في كل الجهات، ما كنت أدري أين أضعهما، لكن عشرينها الغافي على صدري منحني جرأة، فضممتها وقبّلتُ جبينها مواسياً عزاؤها. ولو أنه جاء متأخراً.)..

صمتَ سيد.. سألتُه رغم أني قررت ألا أقاطعه:

- ذكرتَ مقتل الزير أكثر من مرة ولم تذكر كيف قُتل؟ . هزَّ رأسه مؤكداً كلامي وتابع:

- كما الضوء نفسه مقبرة للفراشات. فثمة قبور كثيرة تنتظر

أجسادنا.. كان الزير زهرة عباد.. مالت أكثر من غيرها فاحترقت... رحمهُ الله ما كان يرضى أنصاف الحلول.. لونان فقط في حياته لونه ولون القبور.. في السجن تآمر عليه مجموعة من القتلة الايرلنديين المحكومين بالمؤبد. حين عرفوا أن هذا العربي الأسود هو قاتل الفتاة الايرلندية في الجامعة.. فقرروا قتله بذات الطريقة التي قتلها بها. تآمرَوا على ذلك مع أحد الحراس. لكنه ما كان يدير لهم بالاً. رغم شعوره بالخوف من شيء يدبّر له. أخبرني عن مخاوفه تلك في زياراتي الأخيرة للسجن قبل مقتله بشهرين تقريباً...

دبروا له اغتيالاً بدأ بمناوشة مفتعلة في فترة التنفس المسائية. في زاوية من زوايا السجن. طعنوه بخاصرته.

كان السجن يضج بالحثالة من القتلة وعتاة المجرمين ورواد الدعارة والقمامة. ولم يكتشف أمره إلا خلال التفقد الليلي.. وجدوه جثة مرمية جوار إحدى الحاويات. ورغم التحقيقات التي أجريت حول القضية فقد سجلت ضد مجهول لعدم توفر الأدلة، حسب المحامي الذي أوكلته له. هذه حكاية مقتل الزير يا حمزة.. وحكيتها بالتفصيل لسمية وعايشة.

عدنا ذلك الصباح من التربة عايشة وأنا عاشقان يداً بيد قبل أن ترمح الشمس.. وأعدَّت لنا سمية ما تيسر من طعام. وطلبتُ منها أن تعد الشاي الذي يحبه والدي والذي عوَّدَتْهُ عليه المرحومة حلواً مخدراً ممزوجاً بقليل من القرفة بكأس كبيرة. تأتي به إلى غرفته التي كانت بمثابة الصومعة التي يقضي فيها جُلَّ وقته في عبادته ومطالعاته الدينية والأدبية... كان يعيش في عزلة عن الناس بعد تقاعده من عمله الذي قام بتأجيله أكثر من مرة محتفظاً بعمله حتى آخر قدرٍ من التحمل والمكابرة، استأذنتُ وقطعت عليه خلوته، كان جالساً فوق مصلاّته، وأمامه القرآن فوق حاملٍ خشبيٍ خاصٍ به. صافحته وقبّلت يده، جلست بجواره أتأمله. انتبه إليَّ، لفَّني بذراعه وبكى بكاءً مراً حتى أعياهُ البكاء. ما تخيلت أن أرى أبي المتجبر والمتسلط، بهذا الضعف والحنان.

كان غابة من الحطب اليابس أشعلها غياب أمي.. كنت أعلم أنه يخبّئُ في مكانٍ ما من قلبه حباً كبيراً لنا، حب الأب لأبنائه الذين يريدهم أفضل منه. لكنها السُلطة والوجاهة واحترام الناس وخوفهم، هي التي تولّد الأنانية والتجبر والرغبة في التسلط لدى موظفي الدولة وكان والدي واحد من جبابرتها الذين هم في الأساس في منتصف السلّم فوقهم الكثير من الدرجات وتحتهم الكثير منها.. فتبدأ دوامة القهر والضغط التي تولّد في آخر الأمر الانفجار. هزَّ كتفي مجروحاً ممسكاً حبل الغياب والحنين، جذبه قائلاً:

- (يا ولدي دنيا ليست فيها أمك ليست دنيا. ولا تستحق أن تعاش. سيد عليك يا ولدي أن تعدَّ لي قبراً ملاصقاً لقبر أمك.. هذه أمانة في عنقك. اتركوني يا ولدي أجاورها في لحدها، فهي تناديني كل يوم.. أعلم أني قسوت عليها وعليكم، سامحني. سامحوني...) وانخرط ثانية في بكاء صامت مؤلم..

قبّلت رأسه وقلت: (سامحك الله يا أبي، الولد وما يملك مُلكُ أبيه)

وضع يده على كتفي وقال: (بارك الله فيك يا بني، ولد صالح. لقد سامحتني أمك قبل رحيلها، طلبتُ منها ذلك، تخيَّل يا سيد في كل زيارة مني إليها تسألني من يعدّ لك الشاي؟ من يطبخ لك؟ هل تأخذ ترويقتك الصباحية من العسل وحبة البركة؟ هل يغطينك البنات؟.... أراها تخرج من القبر تسوّي لي شعري وهندامي.. ثم تمنحني قبلة على جبيني وتعود إلى سريرها الترابي ولحافها الحجري. كانت تحرص أن أكون في كامل أناقتي في صباح ذهابي إلى الوزارة). يعاوده النشيج فأبكي بين يديه.

قلت له بعد ذاك البكاء وبعد أن أنهى صلاته و قرأ بعض الأدعية : (أبي. روحي شاردة، أريد الزواج من عائشة.) قال وعيناه تفيضان ببريق رقراق يعكسُ لون وجهي: (هي لك يا ولدي، أوصت المرحومةُ بذلك، ليبارك الله في زواجك وذريتك. هيا تزوجها يا ولدي ستسعد أمك كثيراً

بذلك، رحْ واخبرها بنفسك فهي تنتظر هذا الخبر، ستفرح به كثيراً.) من كان يقصد أبي؟ والدتي.. أم عائشة؟.. لم يمض أسبوعان حتى اتفقتُ مع عائشة على الزواج. كانت يدها الرقيقة قابعة باستسلام في كهف يدي عندما أخبرتها بذلك، لم يفاجئها الخبر، لكن أصابعها فقط تشابكت بأصابعي أكثر، وعيناها ضحكتا بغنج كل نساء الدنيا. كانتا نشيداً خفياً لكل الطيور. قلت: (تعالي معي أطلبكِ من أمي.) دهشتْ وتحولتْ إلى يمامة طارت معي إلى البرية. يدها تذوب بيدي، وهناك جلسنا جوار أمي، حدثتُها من جديد عن غربتي وشوقي الكبير لها.. وقبل أن نغادر وقفتُ وأخبرتُها: (أُمي باركي لي، سأتزوج من عائشة.)

تهادتْ في أذنيَّ زغرودة مطيّبة بطيب أم الغوالي هلّت مع وميض قادم من السماء لا بد أنها من جنان الخُلد.. هي أمي زغردتْ فرِحَة بالخبر. غاض قلبي وكثر المطر في عيني وعيني عايشة..

قطرة اثر قطرة ويوماً اثر يوم غدت عائشة كل حياتي. شغلي الشاغل.. جمالها الأفريقي يأسرني.. رقتها ورهافة حسها تسحرني. ورشاقتها كشراع يتهادى ما رأيت مثله طوال إبحاري.... إلى جانب طيبتها واهتمامها بأبي. كل ذلك جعلني أُسرِّعُ في الزواج منها..

بعد الخطوبة بأيام، أخبرَتني ونحن عائدان من زيارة القبور: (لو فكرت يا سيد بالسفر ثانية سأموت بأرضي.. وستظل روحي الغاضبة طائراً خرافياً مثل حورس يلاحقك ويلومك حتى آخر المسافات..) ثم أوقفتني تحت نخلة مظللة وطلبتْ مني أن أُقبلها.. أوقعتني في كمين الارتباك والتخيلات.. كانت عائشة أكثر جرأة مني.. علمت نفسها بنفسها. وكونت شخصيتها وفق قناعاتها هي لا قناعات أمي التي ربتها، أو أبي الذي رعاها.. جريئة لا تعرف الخوف أو التردد. وقبل أن أتردد في لملمة حرجي وتأزمي أمامها، أحاطت عنقي وغمرتني بغيم قبلة " لعنبوو شيطانها يا تووهتني في شهدها " على رأي فالح الايداء وما

صحيت إلا وروحي بالسعف سالت قصيدة.. جعلتني أركض في ظلام عطرها المتدفق في شقوق شفتي. مر وقت طويل. حتى استطعت فيه استعادة أنفاسي. قلت لها: (عايشة لو قيض لي أن أختار موتي فلا أريده إلا بين ذراعيك..) غطت فمي بشفتيها ثانية وما تركتني أكمل. وكطفل فاجأه المطر فأخذ يرقص.. كذلك كان قلبي...

شهور من القيظ والفراغ والغربة مرت كان السودان بأكمله يعاني من الجفاف وقلة الأمطار كان ذلك بعد ثورة اكتوبر في السودان عام 1964. احترق الزرع وشحت السماء أعواماً طوال وجفَّ الضرع. وبدأت الهجرة تزنُّ في عقول الشباب. وقبل النكسة بعام غادرتُ إلى مصر بتشجيع من عايشة.. عملتُ لدى خطاط أكتب اللافتات القماشية وقمت بتدريس اللغة الأجنبية في مدارس خاصة. ترجمتُ الكثير من الدراسات والروايات لدور نشر غير معروفة ودور أخرى مشهورة.)

وأشار سيد بيده إلى جانب من مكتبته حيث الكتب التي ترجمها.. وتابع:

(عملتُ بعدها في بني سويف لدى نحاتٍ يديرُ محترفاً لصنع التماثيل، ينحتُ نسخاً مزيفة لقطع أثرية يدفنها تحت الأرض ثم يعالجها بمواد كيماوية ويعتقها بالطريقة الفرعونية برماد التنور والجص المحروق. يبيعها للخواجات ولتجار الآثار. كان عملي مع اثنين آخرين في ساحة المحتَرَف يقتصر على تلوين القطع. حصلتُ منه على مالٍ كثير. أرسلتُه لأسرتي. بداية الأمر ما كنت أعرف ما يجري في الداخل إلى أن داهمتْ المشغل دورية أمن الآثار، دخلوا فجأة واقتحموا الغرف الداخلية المحظورة علينا. ضبطوا النحات بالجُرم المشهود مع مواده الكيميائية وقطعه المزورة. أخذونا معه، حاولت إقناعهم أن لا دخل لنا بما يفعل لكن قد أسمعتَ لو ناديت حياً. حُكمتُ ومن معي بأربعة أشهر سجن، بينما حُكم على النحات بسنتين، كانت أياماً مريرة وكأنها كانت تكفيراً لما أصاب الزير بسببي. أُفرج عني قبل شهر من انقضاء المدة

بعفو عام عن الجرائم الصغيرة. عملت بعدها في مصنع للأحذية إلى أن اتصلتْ بي عائشة وأخبرتني بمرض والدي الشديد. عدت إلى السودان.. لازمتُه أيامه الأخيرة في صومعته، مع كتبه وفِراشه الممدود على الأرض منذ أيام المرحومة، ومع الراديو القديم الذي تعطلت موجاته وتوقفت إبرته على إذاعة لندن منذ أيام النكسة لتروي عطشه لسماع خبر سعيد بعد أن أغرق مذيع صوت العرب آذان العرب بكذب الانتصارات. ما تركتُ أبي لحظة حتى فارقني في لحظة. حزني عليه كاد يفوق حزني لأمي....

أمي ماتت وأنا بعيد، جاءني الخبر بارداً ثقيلاً كتم على صدري وأنفاسي فتساقط حزني ورقة إثر ورقة. أما أبي فمات بين يدي، موته كان ناراً حمأة كوت قلبي وروحي.. وقتها صرخت. فأدركتني عائشة وسمية ثم رحيّم ومحسن والآخرون على صوت بكائي وهو بين يدي. كان يوصيني بأخوتي وأن لا تكون الدنيا أكبر همِّي.... وبعد الغسل عطّرتُ كفنه بعمامته كما أراد وطيَّبتُه من عطره الذي يحبه كثيراً، وهو ذات العطر الذي ما زلتُ أضعه لغاية الآن.. وضعت قرآنه بين يديه، وأسكنته جوار أمي فاستأنست روحاهما. عليهما رحمة الله.....

تهدج صوت سيد. شواطئ عينيه كانت تضج بقِرَبٍ من الماء. كنا نجلس على الأرض وضعتُ يدي على كتفه وقلت: لا عليك أستاذ سيد، نكمل فيما بعد..

أسند ظهره إلى السرير ورفع رأسه إلى الخلف وكأنه يخشى سقوط الدمع فيحاول إبقاءه يترجرج في بحيرة عينيه وقال:

- بعد عام من وفاة والدي. وبعد انتظارٍ دام سنوات أنجبتْ لي عائشة ولداً جميلاً بلون الجمر.. أحبته عائشة لأنه كان يشبهني وأحببته أنا لأنه كان بلون شفتيها. أسميته جمّار القلب..

وبعد عامين رزقنا بمولودة كفلقة القمر أسميناها قرة العين.. ولكن الله ما أراد لها العيش أكثر من عام ابتلاها بمرض السحايا

فغادرتنا إلى السماء إلى جَدّيها في عليّيّن يرعيانها أكثر مني ومن أمها..

كان وجه سيد الخمسيني القاتم الجميل قد اغتسل بالدمع والذكريات حين سألني من بين شفتيه المرتعشتين:

- قل لي حمزة؟ لماذا لا نعرف أهمية من نحبهم إلا بعد أن يغادرونا؟

- لأننا نكتشف بعد رحيلهم عطراً فقدناه مازال يلتصق بجدار القلب. وياسميناً تهادياه يختبئ في ثنايا الروح...

ما كان سيد ينتظر مني جواباً وما كنت أنتظر منه أن يسمعني. تناول سواكه وتسطح فوق لحافه يعدُّ النجوم المتناثرة في سماء ذاكرته.. ابتسم. فقد كان يعرف الجواب ويدركه تماماً..

- 9 -

جلستُ إلى الطاولة أرسم عليها بقلم حبر جاف، دوائر كبيرة ثم أصغر فأصغر ثم مربع كبير يحتويها ثم بسطار عسكري مقدمته رأس طائر بقرني تيس وعيني بومة وفم مثل بوز البعير.

ثم تركت يدي تهدس على هواها إلى أن رفعت رأسي وسألته مباشرة:

- أرى فيك شبهاً بمصطفى سعيد بطل موسم الهجرة، فما رأيك؟.

- أنت مخطئ..

- أستاذ سيد كل ما ذكرته يتطابق تقريباً مع حياة مصطفى سعيد.

- مصطفى سعيد شخصية من خيال الطيِّب صالح ولا يمكن أن تكون إلا على الورق، فهو سادي مهووس بالقتل والجنس. إلى جانب أنه يعيش ازدواجية في ثقافته، فهو مولع بالغرب وحضارته ونسائه البيضاوات اللواتي يرين فيه مظهراً للقوة البدائية الوافدة من أفريقيا. إنه بالنسبة إليهن حيوان أفريقي يستحق أن تلهو به تلك الفتيات ويستمتعن به فقط. تجده أحياناً مشحوناً من داخله ضد أوربا وضد التشويه الإنساني الذي حملته إلى أفريقيا والأفريقيين في نفس الوقت..

ابتسمتُ لجوابه الذي يخفي وراءه مثقفاً مناوراً يعلم تماماً أني ما قصدت هذا الجانب من سؤالي مع أن الكلام الذي قاله عن مصطفى سعيد صحيح إلى حد ما.

حككتُ ذقني بطرف القلم ورفعتُ حاجبي ثم أملتُ عنقي وأنا

أتأمل خربشاتي على الطاولة....

امتدَّ الصمت ثقيلاً .. فما أردت إحراجه بتذكيره أن زوجه الأجنبية تكاد تطابق بمشاعرها وسلوكها مشاعر وسلوك زوجة سعيد في الرواية. فهي كذلك انكليزية وأذاقته الويل في ساديتها الجنسية حتى دفعته في لحظة حميمية إلى قتلها بسكين طلبت منه أن يغرزها بين نهديها وهي فوقه عارية. كما حصل لزوجه سونيا على يد ابن عمه الزير التي استفزته حتى أرغمته على قتلها وإن اختلفت طريقة ومكان القتل. وفي الرواية أيضاً عاد مصطفى سعيد إلى قريته فتزوج من حسنة بنت محمود، كما فعل هو، عاد إلى قريته وتزوج من عائشة ابنة عمه. وأن ملامح وجهه قريبة جداً من ملامح مصطفى سعيد. التي تشبه بالتالي الطيب نفسه. ولكن نهاية سعيد كانت الغرق في النهر فماذا ستكون نهاية صاحبنا..؟! السرطان ليس نهاية درامية لمثل هكذا رواية... عيناه ما فارقتا رأسي.. أظنه قرأ كل ذلك في مخيلتي.. لا أشك أنه يتميز بهذه المقدرة. فقد تعودت أن أفاجأه بذلك.. نظر إلى وجهي فرآه يبتسم... لا أدري إن راودته بعد ذلك افكار شريرة أكثر مما هجست بها في نفسي.... ابتسامتي ما أعجبته، اعتبرها مكذّبة لروايته وصدمةً لمشاعره. بدليل أنه وقف منتفضاً.. وقد تلبسته ملامح الغضب آخذة منه كل مأخذ.

تخيلته للحظة يرفعني فوق رأسه ويقذفني من النافذة.. (تستحق أكثر من ذلك.) قال أناي.. وإلا فما معنى أن أُكذّب رجلاً فتح لي قلبه وشرع يهدر آلامه وذكرياته دون حرج أو خجل.. لماذا أنا بهذه القسوة؟.. علي أن أعتذر للرجل..(افرض أنه سمح لخياله أن يجنح قليلاً... أين المشكلة!.. هل كل ما ذكرته أنت عن أبيك وعن حنين وعن الخيزران.. وحتى عن مريبط صحيح؟.)

- أستاذ سيد.. أنا آسف جداً جداً لسؤالي أو رأيي.. وحتى ابتسامتي.. وأسحب ما قلت مع شديد الخجل والاعتذار.

كانت عيناه مليئتين بالدمع. وضع يده على كتفي ثم ضغط عليه وطبطب بهدوء وقال:

- لا عليك يا حمزة، كلامك ليس أقسى مما عانيت.. ألم نتفق أن الحياة كلها تجارب..

كانت الساعة زهاء العاشرة ليلاً. وفي هذي الساعة المثقلة بالنعاس كان كلُّ من في السكن يتهيأ للنوم، اقتربتُ من لوحتي " الأرملة "ثم جلستُ على السرير. وعلى مصباح الغرفة الوحيد تأملتُها، كانت تضج بوجه امرأة لم يكتمل بعد، مجرد خطوط وظلال رسمتها أول أمس وتركتها، أبحث عن ألوان تليق بها، تزاحمتْ في ذهني صور وخيالات جديدة. فبحضور سيد أضحتِ الحياة ليومين فقط أكثر امتلاءً وانتشاء. فوجهٌ لعائشةَ بلون العسل وشفتان بلون الجمر، وقدٌ أهيف بطول نخلة، وشعر حالك السواد كالليل ينسدل حتى ركبتيها. ووجهُ أخيها الزير ينتقم لكرامة ابن عمه.. ووجه أخته سمية الطيبة المرحة ووجه سيد المنحوت بإتقان ووجه أمه وأبيه.

وجوه كلها تستحق المحاولة في التحرر من إسارِ وجهٍ أكرِّره في أغلب لوحاتي وهو مزيج بين الخيزران وحنين. وجوه.. أعتقد أنها تلهب ذاكرة أي فنان لأيام وليال؟.

***

اليوم الثالث..

- 1 -

أصبحنا، وأصبح المُلكُ لله. كان باب الغرفة مفتوحاً. والساعة تزحف قريباً من التاسعة والنصف. اصطبحتُ والعياذ بالله بوجه الشيخ عبدو. الذي وقف بكل صفاقة بالباب رغم ما جرى له أمس من زياد في الغرفة. تطيرَّتُ من شرور هذا اليوم. وضعتُ المخدةَ على وجهي كي لا أراهُ يقتحم الغرفة. لكنه اقتحمها وأزاح المخدة عن وجهي وببرودة سمجة سألني:

- أستاز حمزة هل بك مكروه؟ هل تعاني من شيء؟

- أعاني من شوفتك يا غالي!... قلت بتهكم وقرف

لم يعلّق، فهو معتاد على التوبيخ والتعنيف. ولكن لفت انتباههُ ما هو أهم من ذلك. لاحظ أن فراش سيد ولحافه مربوطين. كأنهما مهيأان للرحيل.. اقترب من العفش وتهجسه بيده ليتأكد أن فعل الربط حقيقي وليس وهماً. استدار نحوي وسأل بفضول بزاقة:

- خلاص! الأستاذ سيد ماشي؟ ده لسه داخل يومه التالت ؟

- لأ.. مش ماشي، لكنه متعوّد على هذا الأمر، فيه مانع؟..

- متعوِّد! أمّال هوه فين؟

- يا قوة الله.. يا عالم يا ناس يا هوه؟ من يخلّصني من هذا

الكائن الدبق، وأكتب له نصف أملاكي؟.

ردّ ودماغه النتنة تعمل الفكر وتقلبه، ويده تعبث بلحيته المتسخة بالحليب وبقايا الكعك.. ولطالما تمنيت أن أولع فيها عود ثقاب فتلتهب سالخة وجهه وقرعته المتورمة بحجم مؤخرته الناتئة. وأتخيله بعدها يغرق رأسه بقادوس الماء محاولاً اطفاءها وساقاه ترفرفان في الهواء وسرواله الشرعي الأصفر يعلن أن مصيبة ما قد حصلت لصاحبه.. استعذتُ بالله من الشيطان في أفكاري الشريرة ونبرتُ في وجهه:

- وانْتَ مالك يا أخي؟ الأستاذ في المعهد عنده الحصة الأولى والثانية، ارتحت..

لا لم يرتح، أكيد لم يرتح، فنظراته إلى الجدار واكتشافه الرسم الموجود عليه فتح له موضوعاً دسماً. أوله أن الرسم حرام والمصورون كلهم في النار. وآخره ما معناه أن أرسم سيداً دون خلق الله؟ والرجل لم يبرح في القصر إلا منذ البارحة العصر؟!.. وكي لا أقع في مطب المهاترة معه، قلت وأنا أدفعه برفق ولؤم نحو الباب: بعد إذنك، لدي حصة الآن، لقد تأخرت.

- حصة إيه؟ اليوم الأحد!.. لديك أول ثلاث حصص فراغ .. هوه انت نسيت؟

- أعوذ بالله من هذا اليوم الأغبر.. لا ما نسيت؟ ولكن وجودك نسّاني أهلي وناسي وتاريخي وتاريخ الأمة العربية من المحيط إلى القحيط! عبدو الزفت إذا سمحت انتهت المقابلة؟. نقطة انتهى.

- ألهذه الدرجة تكرهني يا أخي حمزة. سامحك الله. أين أخوّة الإسلام أين الـ..

- لحّـــووول. شيخ عبده، بروفسور عبدو! أنا لا أحبك ولا أكرهك. ولا أحمل شيئاً من أخوة الإسلام تجاهك.. فُك عني الله يفك عنك الجنة وأولاد الحلال.. اعتقني لوجه الله. خلاا ص مليت. الغرفة لك ووهبنا إياها، مفهوم شيخ المشايخ؟ نقطاااا انتهى..

على صوت صراخي جاء محمد النبطي وأبو سريع .. طلبت منهما مساعدتي في إخراج هذا الكائن الهلامي من الغرفة.. امتنع عبده عن الخروج، وقد أحس بإهانة الطرد. وخصوصاً من محمد - عدوه اللدود الذي يؤمّ الناس في المسجد بدلاً منه بعد أن كثرت حوله الاشاعات - حين طلب منه الخروج..

كان محمد يعرف نقطة ضعفه، فصرخ بأعلى صوته ينادي:

- زيااااد .. أبو عليييييييي.... رد عبدو وقد أخذت أوصاله ترتعد:

- مين دا أبو علي تخوفوني بيه؟.. أنا جالس أهوه. خليه ييجي.؟

كان يعلم أن زياداً لديه دوام كامل الحصص ليوم الأحد. كان يعرف برنامج كل واحد منا.

وبّخه أبو سريع:

- الجماعة مش عايزينك في أوضتهم.. سيبها وامش. عيب.. كسفتنا..

- أسيبها إيه؟! بص عفش الأستاذ سيد مضبوب؟ عايز أعرف ليه؟.

- وانت مال أبوك ؟ الراجل ضابب عفشه... فيها إيه يا حشري؟

- ده أكيد وراه سر!

- شاللّه وراه عفاريت، مال أهلك؟ تعال هنا، انت متجيش بالذوق.

وأمسك بتلابيبه ليجره خارج الغرفة. لكن الشيخ عبدو أمسك بالسرير وتشبث به رافضاً الخروج. نظر أبو سريع الصعيدي إلى محمد وغمزه أن يساعده. وحملا عبدو عنوة كما يحملان شوالاً من الأحذية ورمياه خارج الغرفة.. نفض ثيابه وصرخ:

- أنا عارف في سر ومخبينه عليا.. حفضحكوا في السكن كله.. هتشوفوا..

همست لمحمد: روح جيء بزياد من تحت الأرض. أستناك. روح ..

أظنه تساءل في نفسه عما همسته لمحمد ولا بد أن سراً عظيماً يخفيه هذا السوري عنه، سيفوته لو ذهب. فليبق ؟.. وعلى ذلك قرر ألا يغادر مكانه.. أخمن ذلك لأنني أعرف طريقة تفكيره .. وهذا ما أريده أنا، أن يبقى ويأتي زياد ويتصرف معه كما يشاء. لحظات.. وبدأ مناورة جديدة وما زال خارج الغرفة يسند ظهره إلى جدار دورة المياه:

- حمداني يا طيب. بجد أحتاج الأستاذ سيد، عايزه ضروري؟ مش عشان اللحاف..

كنت أعلم انه يكذب ويراوغ. أجبته وقد غادر أبوسريع الغرفة بعد ذهاب محمد:

- أخبرتك أنه في المعهد.. حل عنا ياآآ.. ردَّ مراوغاً ليكتشف صدقي:

- لسه جاي من المعهد! مش هناك.

صفقتُ البابَ بوجهه صفقةً أجفلَ منها وتردَّد صداها في أرجاء المكان. لكن الباب لم يغلق. عاد كما كان مفتوحاً. تركتهُ يقف بعيداً يمسحُ خيبته عن لحيته وثوبه الذي تفوحُ منهُ رائحةَ الأدوية والحقن التي يبيعها في الصيدلية، تشاء الصدف أن يدخل سيد بذات اللحظة من باب الصالة... ألقى التحية وسأل: ما بالُ شيخنا الجليل ذاوياً كقربة بلا ماء؟

- أستغفر الله يا شيخ سيد! أجلّكم الله، وأحسن إليكم ..

طرب كثيراً لمناداته بالشيخ الجليل. نظر إلي وغمز:

- شايف الناس الكمّل يتكلموا ازاي؟ مش الله يفك عنك الجنة ومش عارف إيه!

سألت سيد قبل أن أنسى: أستاذ سيد.. لو سمحت.. أين كنت؟ ..

- أين سأكون؟ كنتُ في المعهد طبعاً! ما الأمر؟

- الأستاذ عبد السميع ينتظرك لأمر هام، أتاك المعهد ولم يجدك.

- ما غادرتُ المعهد! متى جاء؟

- كنت أعرف أنه يكذب.

ارتبك الشيخ عبده وقد أحرجته بمواجهة سيد... بحثَ عن الكلام فما وجد. ولكن الأستاذ سيد طيَّبَ خاطره وقد أحس بارتباكه وأن هناك مشكلة ما بيني وبينه. وضع يده على كتفه قائلاً:

- نحن في خدمة الطيبين، تفضل أستاذ عبدو ادخل.

دفع سيد باب الغرفة. لكن صاحبنا الشيخ أصابته عزة النفس فجأة، فأبى الدخول قائلاً:

- شكراً.. حضرتك... أنا لسه مطرود منها.

نظر الأستاذ سيد إليَّ معاتباً:

- ما عهدتُ ذلك فيك يا حمزة! مهما يكن، يبقى الشيخ عبدو أخونا وجارنا. وقد أوصانا نبيّنا الكريم عليه الصلاة والسلام بسابع جار. لا يجوز أن تعامله إلا بلطف وطولة بال.... ردَّ عبد السميع:

- ربنا يكرمك يا شيخ سيد، ويحطّلك في كل خطوة سلامة.

ارتاحت روح الشيخ عبدو لكلام سيد. أكيد ارتاحت ما دام الأمر فيه تعنيفٌ لي. ولكني صمَّمتُ على تعريته أمام سيد. قلت:

- الشيخ عبدو يرغب بمعرفة السبب وراء تحزيمك اللحاف!

رفع سيد يده كأنه يصد ريحاً بكفه، وقد بدا عليه الغضب:

- أرجوك أستاذ حمزة. أرجوكم؟ أنا بحاجة للراحة ولستُ مستعداً لهذه المهاترات.

دخل الغرفة وصفق وراءه الباب.... وهذه المرة..أُغلق تماماً...

تلمَّستُ وجهي كان بارداً كوجه الشيخ عبدو الذي ابتسم راضياً عن هذه النتيجة وهرب من أمامي.. ركضت وراءه حتى باب السكن الخارجي.. لعلّي أشفي غليلي بضربة موجعة على قرعته..

***

- 2 -

كنت في قاعة الدرس حين دخل الفرّاش أبو عبيدة وهو والد الطفل عبيدة ذاته الأسمر أبو جراح الذي ساعد سيد في إدخال العفش.. يخبرني أن المدير أحمد يريدني..

دخلتُ الإدارة. كانت السماعة مرفوعة بجانب الهاتف، بادرني الأستاذ أحمد: اتصال من صنعاء.

شكرته ورفعت السماعة: آلو....

وجاءني صوت صديقي أبو المعتز:

- السلام عليكم .. كيف الحال أبو تغلب. أنا عبد القادر أكلمك من السفارة.

- أهلاً أبو المعتز. الله محييك.. كيف صحتك. إن شاء الله بخير ؟

- الحمد لله. أخي حمزة لن أطيل عليك. بالنسبة لموضوعك الذي كلمت الأستاذ تيسير من أجله.

- أيوه . أيوه.. بشّر.. نشالله مشي الحال ؟

- نعم. الحمدلله الأمور بخير.. لقد تحدّثَ الأستاذ مع وكيل وزارة التربية شخصياً ووعده خيراً. نقلك إلى صنعاء سيتم خلال أيام.

- .....؟؟

وجمت من المفاجأة. حين خطر ببالي سيد والبوح الكبير، ومرضه والود الذي حصل بيننا.. كيف سيكون الفراق!؟

- أبو تغلب؟ .. وينك..! هل أنت معي ؟

- معك.. معك .. شكراً أبو المعتز.. أنا قادم اليوم إلى صنعاء.. بلّغ الأستاذ تيسير امتناني.. وتحياتي للأخ فهد وكل الشباب ..

- يوصل إن شاء الله. لا تتأخر؟. اليوم عاملين مطبّق.

- يا عيني عليك. قل لي هل ما زال أبو الدبْشي مبسِّط عند قرنة السفارة أم انتقل إلى مكان آخر؟

- وين ينتقل .. تنتقل السفارة وهوه ما ينتقل..

- زين .. أبو المعتز. الدبشيّة خلّيها علي.. من وصلتي أنقيها على كيفي..

- لحَّد عليك .. أخوك ما ينسى شي.. نقّيتْ لَكْ أحمر دبشية باليمن.. عالموس.. لا تتأخر.. فيه ضيف من الرقة حاب يشوفك.. لا تسألني من هو؟.. تعال.. رَاحْ تتفاجأ بيه.. يللا.. سلام؟

- وصّينا ..؟

- سلامتك .. نحن بانتظارك..

- مع السلامة.. اعدت السماعة لمكانها وأبقيت يدي فوقها أفكر بالأمر.. كيف سأخبر سيد بذلك!

ضحك الأستاذ أحمد الحوثي قائلاً:

- كل شي فهمته من حديثك إلا .. الدبشية؟..

- الدبشية!.. تسمية فراتية لحبة الحبحب عندكم وفي الخليج.وتُسمَّى الرقّية لدى العراقيين والبطيخ الأحمر أو الجبسة لدى أهل الشام، وبلاد أخرى.

رنَّ جرس انتهاء الحصة الثالثة مع انتهائي من الكلام.. دخل الأستاذ سيد مبتسماً .. سألني :

- أراك هنا؟.. اعتقدتك في الدرس؟

- أهلاً أستاذ سيد كنت..

أردت الردَّ وتغطية الموقف فأنا من الناس الذين لا يستطيعون إخفاء مشاعرهم. وخصوصاً أمام الذين أحبهم.. ريثما أجد الوقت المناسب لإخباره بالأمر..

- صاحبك العزيز حمزة الحمْداني، ما أعجَبَته صحبتنا.. طلبَ النقلَ إلى العاصمة. ويبدو أن واسطته قوية. فـ..

جَمدَ الأستاذ سيد في مكانه.. وتهاوى على أقرب مقعد ..

نظرتُ إلى الأستاذ أحمد نظرة عتاب لتسرعه في إعلان الخبر.. كنت للتوِّ أفكر بطريقة أخبره فيها..

أطرقَ رأسهُ للأرض. كادت العمامةُ تقع.. اقتربتُ منه، وكأني اقترفت كل خطايا الدنيا. أرخيتُ يدي بحنانٍ على كتفه الأبوي العريض:

- أستاذ سيد. قبل مجيئك بأيام كنتُ قد تكلمتُ مع الملحق الثقافي في سفارتنا بأمر النقل و.

- لا يا حمزة ! لا تعتذر، يعلم الله أني أريد لك الخير... ولكنها العِشرة يا صديقي الطيب، لا تَهون إلا على من تهون عليه.

أحسَّ الأستاذ أحمد بالإحراج، وكأنه كان السبب في وضعي بهذا الموقف الذي لا أحسد عليه. فتَدخَّل بهدوء. بعد أن اكتشف مستغرباً عمق الصداقة التي بيني وبين سيد بهذه السرعة. فأغلق باب الإدارة وطلب من أبي عبيدة ألاّ يدخل أحداً:

- اسمحا لي بكلمة.. أستاذ سيد للإنصاف والحقيقة كلنا نعلم مدى احتياج المعهد للأستاذ حمزة وكيف أنه خلق حياة جديدة في المعهد من خلال نشاطه الأدبي والفني بين الطلبة والرسوم العلمية التي زيّن بها جدران المعهد والثانوية. ولكن أرى أنه من الإجحاف الإبقاء عليه في حوث ولديه مالديه من إمكانات.. ففي صنعاء يستطيع التواصل مع الفنانين والأدباء..

نهض الأستاذ سيد.. وأحسبه أراد أن يقول: (وأنا مع من أتواصل؟).. إلا أنه وقف بجانبي ولفَّ ذراعه حول عنقي وقال بأريحية رجل نبيل:

- وهو كذلك. صنعاء هي التواصل.. لا بد من صنعاء وإن طال السفر. إنطلق أيها الحمْداني.. فمَن يمتلك جناحَين من المخزي ألا يطير

بهما.. طِر يا أبا تغلب وتخيَّر دوماً مكاناً جميلاً لوقوفك.

ثم ضغط على صدغيه بشدة.. لا بد أن الألم الخبيث عاوده.. وهنا أحسست بالذنب أكثر... مَن سيداري هذا المخلوق الجميل في غيابي.. ولا أحد يعلم بمرضه سواي؟ من يستمع لفلسفته الصوفية؟ من يشاكسه آناء الليل وأطراف النهار.. ومن..؟ كان الأستاذ أحمد واجماً حاساً بالذنب جوار سيد يخفف الأمر عليه دون أن يعلم أن ألمه في رأسه من ورم خبيث يعشش فيه.. وليس لأنه أخبره أمر النقل.. وليته كان كذلك فقط..

قلت ودمعة تكاد تفر من عيني:

- هييه. مالكم يا جماعة. وحّدوه. لم يتأكد الخبر بعد. وإن صدَق فلا رحيل قبل نهاية الأسبوع. أو حتى اسبوعين. ويجوز ما في نقل خالص..

قلت جملتي الأخيرة حين برقت في ذهني فكرة لعلّي أنفذها في صنعاء ..

في حقيقة الأمر كنت أحنُّ كثيراً لصنعاء. وما كنت أدري أكان حنيني للناس أم للأماكن الجميلة ؟؟ لصنعاء القديمة. لباب اليمن أم لبرج الحجر القديم الذي هو لليمنيين بمثابة برج إيفل للفرنسيين. ولجلسات المقيل مع عبد القادر وفهد.. ومن جديد حمزة الشيباني.. لصالات العرض ولدوّار التحرير أم لبائع عصير المنجة حين آتيه مع عبد القادر ونراقب بمتعة حركته الآلية في ملء الكؤوس وتوزيعها على الطاولات.. وإعادة الحركة بنفس الرتابة والإيقاع مع باقي الزبائن..

التفت للأستاذ أحمد واستأذنته أن أذهب إلى السكن ومن ثم ألحق حافلة الثانية عشرة العابرة من صعده إلى صنعاء. وقد اتخذت قراراً وليد اللحظة.... أولستُ من مواليد برج الجوزاء؟. فلأثبت لسيد من هم مواليد برج الجوزاء.. مرت لحظات قليلة من الصمت، قال الأستاذ أحمد:

- لا أظنك تنسى موعدك الليلة مع الشيباني كما في الأمس.؟.

- إن شاء الله أعود عند صلاة المغرب... ضغطت على يد سيد

وقلت: لن أتأخر. انتبه لنفسك.. سلام. ثم خرجت..

في الباحة اعترضني زياد ومعه محمد النبطي:

- وين العزم؟ أشوفك متسربع! أجاني محمد وقال انك تريدني بسرعة. خير انشالله! نظرت إلى محمد الذي لم يعد مذ أرسلته ليأتي بزياد.. قلت متهكماً:

- بكّير يا!!.. ساعة انوب!

- كان عنده درس.. أشحطه يعني؟ ..

- لا تشحطه ولا يشحطك، لقد فضت الأمور على خير.... أنا مستعجل، نازل صنعاء.. أحكي لكما بعدين عن السبب.. سلام..... انطلقت إلى السكن ومن ثم الطريق العام... فصنعاء.

في أحد الأزقة الممتدة من شارع حَدّة الطويل كانت تقبع السفارة السورية.. تجاوزتُ بائع الجبَس.. كان متكئاً يمارس طقسه المقدس في تعاطي القات دون منغصات.. تحت شمسية من قماش وأكياس خيش.. ثبتها على عمودين وعلى حائط بيت مجاور للسفارة... معه صبي صغير يناول الزبائن عنه حبات الحبحب، ويكفيه القيام والحركة.. ثم مررت بحارس السفارة المتكئ أيضاً على جنبه فوق لبّاد سميك وسط فيئ كولبة الحراسة في قيالةٍ لا يحسده عليها أحد. وخدّه الأيسر يكاد ينفجر من القات المخزن فيه. وأمامه قارورة ماء الصحة " شملان "وعلبة تبغ " روثمان ". وحثالة من قات رخيص متناثر على قدميه وعلى عثنونه الممتد تحت شفته السفلى. وهو غير مستعد في هذه اللحظة للتزحزح من مطرحه لرد التحية أو الوقوف بوجه وزير الداخلية حتى.... كان يعرفني بالوجه، اكتفى بهز رأسه إلى أعلى أن نعم، حين سألته عن عبد القادر وفهد. وهزة الرأس إلى أعلى تعني لدى كل خلق الله (لا).. إلا عند اليمنيين فهي تعني (نعم..) وصلتُ سكن الموظفين المجاور للسفارة.. استقبلني رفيق غربتي وسميري في ليالي صنعاء عبد القادر. رجلٌ له فضائل كثيرة عليَّ. خلال أيامي الأولى في غربتي.. وعلى الكثيرين من

أمثالي قدموا بحثاً عن تعاقد أو عمل..

بشَّ في الترحاب وأنساني مشواري المضني من حوث. سألته عن فهد الذي حضر بعد قليل، وكان لقائي ودياً. أعقبه وجبة غداء لذيذة...

سألني عبد القادر عن أحوالي في حوث.. فأجبته على طريقة صديقنا الراحل ياسين:

- الأمور بخير.. ثم حدثته عن سيد، حياته وفلسفته في الحياة وفهمه الخاص للموت. وعن الميدوزا واللحاف وعائشة والعسل والزير سالم و. سونيا وصديقها اللعين و.. وعن ورمه الخبيث. إلى أن انتفض واقفاً منفعلاً وقال:

- سنغادر حالاً إلى حوث.. شوقتنا لمعرفة هذا الرجل. متى كان نقله إلى حوث؟

- اقعد.. سأعرفك إليه فيما بعد.. هذا يومه الثالث...

- ثلاثة أيام وتعرف عنه كل حياته..

- ما عليك.. ما عليك.. كيف سألتقي بالأستاذ تيسير؟

- قبل الأستاذ تيسير .. نتفكه أولاً بالدِّبشية.. كأنك نسيتها.؟..

- معقول أنساها وهي احدى المبجلات الثلاث!.

قال فهد: عرفنا الأولى والثانية.. المطبق والجبس.. ولكن الثالثة...

قلت لعبد القادر: ألم تخبره عنها.... طيب سأخبره أنا.. ياسيدي، الثالثة... هي المرأة الجميلة.

رد فهد: أصبت والله يا أستاذ حمزة... ولو أني أظنها في الترتيبب.. الأولى...

- يا سيد فهد.. كي تحب لازم تكون شبعان.. وبعد الشبع تجيء التحلية ومن ثم تأتي الثالثة وحدها.

أتى أبو المعتز بطاولة الزهر، فتحها أمامي، وبدأ بصف الأحجار، قائلاً:

- من زمان ما غلبتك، مشتهي أغلبك دقين ثلاثة بالطاولة.. لحين ما يجهّز فهد تحزيز الدبشية..

- الله يعلم من الذي أكل غلبين المرة الماضية..

- يا سيدي الفات مات، إحنا أولاد اليوم..

وقبل أن يرمي كل منا نرده في ساحة الطاولة لمعرفة من يبدأ اللعب، نهض عبد القادر ووضع شريط كاسيت في المسجل أتاه حديثاً من البلد. أداره، ثم جلس يلعب..

كان الكاسيت مجموعة عتابا يرافقها العود فقط.. للمطرب العراقي حسين نعمة....

تذكرت أمراً وقلت: صحيح ، كدتُ أنسى. من هذا الضيف الرقي؟

- إبراهيم..

- الشاعر .. أبو ليلاس؟!.

- هو بعينه. ليس ضيفاً .. بل أصبح مقيماً دائماً في صنعاء. أتى بزوجه وابنته.

- أما كان في موسكو يقدّم رسالة الدكتوراه في الأدب؟

- حصل عليها وعاد أستاذاً بجامعة صنعاء. تعاقد مع الجامعة لتدريس مادة في الأدب العربي.

- أين هو الآن؟

- اتصل به الدكتور عبد العزيز.. رئيس الجامعة.. هو عنده الآن.. أظنه سيعود في الخامسة..

- أبو المعتز أنا لا أستطيع البقاء.. لا بد من السفر اليوم بعد لقائي بالأستاذ تيسير..

- أولاً الأستاذ تيسير لن تراه إلا في السفارة غداً صباحاً. وحط ببالك أن برنامجك الليلة ممتلئ.

- ولا ساعة؟

- ولا نص ساعة؟ قل لي أين مشوارك؟ وعليّ إيصالك للمكان الذي ترغب.

- قلت لك لا يمكن أبات اليوم عندك.. بكره عندي دروس من الصباح.. ولديّ مساء اليوم موعد

عمل.. مع جماعة في حوث..

- على كيفك أبو تغلب.. أحبيت أن تلتقي مع الدكتور ابراهيم والأستاذ تيسير، وفيه فنان من الدير كلمته عنك وتواعدنا أن نلتقي بعد صلاة العشاء قدام البريد عند ساحة التحرير..

- إن شاء الله مرة ثانية.... لديك رقم هاتف بيت الأستاذ تيسير؟..

- طبعاً.. التلفون يمك..

وأخرج دفتراً صغيراً أعطاني منه الرقم. قمت واتصلت ببيت الملحق الثقافي...

- السلام عليكم أستاذ تيسير أنا حمزة الحمداني

- أهلاً أستاذ حمزة.

- أهلاً بك.

- هل أخبرك أبو المعتز أن الأمور بخير، سألتقي الليلة بوكيل الوزارة . و..

- لم تلتق به بعد؟ عظيم .. أرجو ألا تخبره بأمر النقل ..

- هل من خطب؟!

- لا ، ولكن جدّت أمور.. أرجو من حضرتك التريث قليلاً بالأمر.

- كما تشاء أستاذ حمزة..

- أعتذر عن اشغالكم بالأمر...

- لا عليك، لا عليك الأمور بخير.

كدت أضحك وأنا أستمع لذات الكلمات التي كان يقولها

ياسين.. عدت أتابع اللعب سعيداً بمكالمتي مع الأستاذ تيسير. فقد نفذت ماخطر ببالي وأنا في الإدارة .. ولا مشكلة عندي الآن إن ربح أبو المعتز الدق أم خسره. وقبل أن ينتهي الدق الثاني لصالحي، بعد أن منحته الدق الأول لوجه الله سألت عبد القادر غامزاً :

- على فكرة أبو المعتز.. ما هي أخبار الجرّة؟.. هل مازالت على داير الشرفة إياها؟

والجرَّة رمزٌ لا يعرفه سوانا. لها ما لها، وعلى عبد القادر ما عليه منها ؟! لا أستطيع البوح أكثر من ذلك خشية أن تقع الرواية بيد زوجته أو بيد واحدة من بناته المتزوجات.. قال عبد القادر:

- اسكت لا تفضحنا، فهد لا يعلم بالأمر، لكنه يعرف والدها معرفة جيدة..

- الذي أعرفه أنكما لا تخفيان عن بعضكما شيئاً.

- إلا هذه الأمور ياحمزة.. لا تمنح فيها سرك لمخلوق.. المسألة فيها خراب بيوت وقد تصل للقتل..

- لحوووووه لهون وصّلنا. آسفين أخي قدور. آسفين. خيوه وهاي بوسة لراسك.. أنا ماشي سامحونا.

- عليم الله منت رايح. جايبين قات شامي من اللي يحبه قلبك.. اقعد خزّن معانا..

- تعرف أنا مالي بالقات زيادة.. لكن.. أحياناً.. حسب السرْدة..

- ما أعرف سردة مردة المهم بدك تقوت معانا وتوصيلتك علي.. إش بدك.. أوصلك بسيارة السفارة.. أنا كم أبو تغلب عندي.. ولو..

حاصرني ولم يترك لي فكاكاً.. قلت:

- مثل ما بدك لكن ما أتأخر..

- يا سيدي ما تتأخر.. أي خدمات ثانية..

وفعلاً جاء فهد بالقات الشامي الذي يعد أفضل أنواع القات في اليمن وقوّتنا تقريب الساعة.. ثم ودعت فهد وخرجت مع عبد القادر وأوصلني كما وعد..

توجهت فوراً إلى بيت الأستاذ أحمد. كان في النصف الآخر من حوث غرب الشارع العام.. طرقت الباب، فتح لي حاتم:

- السلام عليكم.. هل والدك والأستاذ أحمد موجودان في الداخل؟

- أهلاً أستاذ حمزة..نعم بالداخل، ومعهما عمتي وغزالة وسبأ.. الكل في انتظارك. تفضل

حمدت الله أني أتيت في الوقت المناسب وإلا لكان موقفي سخيفاً وضعيفاً حين أخلف موعدي مرتين في أقل من أربع وعشرين ساعة. والرجل الشيباني آت من صنعاء للقائي خصيصاً.

رائحة المكان والتوابل والبخور الطيبة كانت تفوح من الديوانية.. ألقيت التحية على النحو التالي:

- سلام تحية.. وفي هذه الحال وبعد سماعهم هذه التحية ليسوا مجبرين للوقوف بوجه القادم.. وهذه تقال عادة عند المقيل لأن الجميع محتاسين بالتقويت تحيط بهم الأغصان وأوراق القات وجرار الماء وعلب التبغ والمداعة " النارجيلة " وسط الجلسة بخرطومها الطويل يدور على أفواه الجميع.. فأي حركة لرد التحية أو الوقوف ستقلب الدنيا وتخرب المزاج.. لذا اتفقوا على هذا المصطلح يقيهم شر القيام بوجه الضيف وما ينتج عنه من ويلات..

جلست على أريكة جوار أبي حاتم.. وعلى الجانب الآخر كانت تجلس سبأ..

أما غزالة فكانت تقف جوار عمتها عند الباب الداخلي للديوانية .. كل العيون كانت ترقبني لذا كان من المستحيل أن تلتقي عيناي بعيني

غزالة أكثر من واحد بالعشرة من الثانية.. وكان زمناً كافياً لأعرف أنها بشوق إلي، وأنها عاتبة لعدم مجيئي بالأمس، حين أخذني الحوار مع سيد حتى العاشرة ليلاً.. تحركت سبأ حين أشارت لها غزالة للقيام بواجب الضيافة بحقي.. سألني الأستاذ أحمد الحوثي عما حصل معي فيما ذهبت إليه.. أخبرته أني أجّلت النقل إلى إشعار آخر..

قال الحوثي موضحاً لأبي حاتم الأمر:

- تصور أبو حاتم!.. الأستاذ الحمداني جاءه عرض نقل إلى صنعاء بدعم من سفارته. لكنه نزل قبل الظهر ألغاه وعاد. أظنني أعرف السبب يا حمزة؟

- السبب. طبعاً أنت تعرف السبب.. الأستاذ سيد يستحق منا كل خير. طيب ونبيل.. ولا يأتي مني أن أتركه وحيداً في ظروفه....

- أية ظروف يا حمزة؟

(ماالذي هببته.. أية ظروف وأي بطيخ.. هل ستفضح الرجل.. ألم يطلب منك أن يكون خبر مرضه سراً لا يعرفه أحد.. هيا أنقذ نفسك أجب الحوثي.. ردْ على سؤاله) أنبني أناي..

- أقصد أنه لا يعرف أحداً. لديه أزمة ثقة بالآخرين. اكتسبها من إقامته الطويلة في ريف صعدة..و..

لا أظنني أقنعت الأستاذ أحمد بالرد.. مط فمه ونظر إلى أبي حاتم كأنه يغمز له أن الحمداني يخفي عنه أمراً ما.. في أثناء ذلك عادت غزالة تحمل كأس ماء بارد لشد ما أحوجني إليه. نشف ريقي.. فأنا من النوع الذي يظهر عليه إذا كذب.. لحقتها سبأ تحمل صينية الحلو..

ليس من حقه أن يعرف أسراراً لا تخصه.. أقنعت نفسي بذلك وتناولت الكأس دفعة واحدة. ثم طلبت من حاتم أن يأتي باللوحة، جاء بها مع سيبة الرسم وضعها في صدر المجلس، وقعت عيون الجميع عليها.. نهض حمزة الشيباني وجاءني باللون الذي طلبته منه، جلست أمام المنصَب وبدأت أتهيأ للرسم، جاءتني سبأ بالصدرية البيضاء وحاملة

الألوان وغزالة جاءت بصورة أمها ، ثم وقفت أمامي تحملها..

قالت العمة أم سبأ:

- تفضل تحلّى أستاذ حمزة.. قبل أن تباشر بالرسم وتنسى روحك..

لبست المريول وتناولت قطعة حلو. أكلتها.. والتفت إلى اللوحة أتأملها وأختار النقطة التي سأباشر منها. غزالة ما زالت تقف كالموديل أمامي طلبت منها أن تجلس وتضع الصورة أمامها على الطربيزة المجاورة للمرسم..

للأمانة أقول أن وجودها أمامي هو ماكان يمنحني المتعة في المتابعة والاستمرار.. كان يغلب على الجميع الصمت. الوحيدة غزالة كانت تؤنس غربتي أمام اللوحة..

مضت ساعة تقريباً وأنا أرسم بألوان الزيت دون توقف... رأفتُ لحال غزالة وهي تمسك بالصورة. رغم أنها كانت تحاول الدردشة معي عن مطالعاتها وعن كتب اشترتها أو قصيدة كتبتها. وضعتُ الباليت والفراشي من يدي، ابتسمت وأشرت لها قائلاً: استراحة عشر دقائق..

أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً... يا ألله كم هي فاتنة وجميلة.. آه لو...

انتبهت كان أبو حاتم يقف ورائي.. لم يتمالك نفسه من الإعجاب باللوحة قائلاً:

- سلمت يداك يا حمزة.. إنها أم حاتم بقضها وقضيضها.. تكاد تنطق باللوحة..

- ما ساعدني على انجاح العمل بصراحة عوامل كثيرة.. أهمها أنني جلست لأم حاتم وفهمت طبيعتها المرحة وقلبها الطيب الحنون. إلى جانب ذكائها وسعة الثقافة التي تتحلى بها..

- فقط؟.. أما من عوامل أخرى ساعدت في انجاح اللوحة؟

- بالتأكيد هناك عوامل. أنا قلت في البداية أن هناك عوامل

كثيرة وأهمها بالطبع الحفاوة التي أَنعمُ بها من الجميع هنا، جهود سبأ في الخدمة العالية المستوى ودعمي المتواصل بالقهوة السادة عند الضرورة... (ابتسمت سبأ لهذا المديح وذهبت تأتي بالقهوة) وجهود حضرتك في تأمين اللوحة وكل ماتحتاجه من ألوان ولوازم أخرى وتشجيعك الدائم.ولا ننسى الآنسة غزالة وحضورها وراء صورة أمها طوال الوقت وحواراتها التي كانت ترسل أشعة إبداعية تزيد من طاقتي الفنية..

نهضت غزالة التي ماكانت تستطيع للسانها فكاكاً بحضور أبيها. لكنها ما منعت خديها من الإحمرار ولشفتيها من الإرتجاف بعد كلامي..

تنحنح حاتم محتجاً لاستبعاده من عوامل انجاح العمل.. قلت له:

- ولو حاتم!.. أنت الأصل. أنت فتحت لي الباب.. لولاك ما دخلت. وضحكنا جميعاً..

استطعت التغلب على توتري الذي أوقعت نفسي فيه بحواري مع الحوثي.

سأل حمزة الشيباني وهو يتأمل اللوحة: أظنها تنتهي الليلة؟

- أظنها! من يدري؟

جلست في الطرف البعيد المقابل للوحة كي أتأملها.. قلت لأبي حاتم:

- حتى لو انتهت الليلة. فلا تستطيع حملها معك في الصباح إلى صنعاء.. تحتاج إلى يومين أو ثلاثة كي تجف.. قالت غزالة:

- الأربعاء آخذها معي..

- ولكن احذري أن تراها أمك فتحرقي المفاجأة.. أقترح أن تأتيني بها إلى مكتبي في الجريدة، أبقيها هناك لحين موعد ميلاد أمك.

- وهو كذلك أبي.

جاءت سبأ بالقهوة.. فنجاني الوحيد كان سادة بدون سكر..

سألني الحوثي عن سيد أسئلة لمستُ من خلالها أنه يشك بمرض يخفيه سيد. قال:

- بعد خروجك صباح اليوم من الإدارة. تألم سيد وعانى كثيراً من رأسه. ولم يستطع متابعة الدوام في المعهد. اعتذرَ وذهب ليرتاح في السكن. لم تكن آلاماً عادية ناتجة عن حزن أو غضب! مارأيك؟

قلت مبعداً شبح الشك بالمرض عن مخيلته:

- لا لا .. أظنه صداع بسيط يعاوده كل حين.

شربت القهوة على عجل.. ونهضت إلى مكاني أمام اللوحة. عاد إلي التوتر. حاولت أن أرسم لكن يدي كانت ثقيلة وشعرت أن علي الذهاب لأطمئن على سيد.. وخوفاً من زلة أُخرى.. وقفت فجأة وقلت:

- في الغد أكمل اللوحة. اسمحوا لي.

- كما تشاء

رد الشيباني.. دون اعتراض حين لاحظ أن وضعي قد تغير بعد حديثي مع الأستاذ أحمد عن سيد.. فالأفكار أخذت تدور بي، خشيت أن تكون نوبة الألم الفظيع قد انتابته في غيبتي..

دخلت أم سبأ تعلن: العشاء جاهز. تفضلوا...

كانوا قد أعدوا عشاء في الغرفة الثانية. تلبستني حالة من العناد أمام الأستاذ أحمد الذي ألح على بقائي قائلاً: يا أخي آمنا بالله أن وحي الرسم قد فارقك ولكن ما ذنب وحي الطعام. الجماعة جهزوا لك أكلات تحبها. لابد أن بالك عند الأستاذ سيد، تأكد أنه بخير مادام ألمه ناتج عن صداع خفيف.

هل يرمي بكلامه إلى شيء؟ أم أنه يقول ذلك بنية صافية وقلب أبيض. ما عهدته إلا كذلك. رغم ذلك لا بد من المغادرة.. فقد جاءت العنزة على رأي زياد..قلت:

- اسمحوا لي. كان بودي أن أبقى.. شكراً للحفاوة.... سلام..

وخرجت.. وسط ذهول غزالة التي كانت تقف بالباب فقد أخبرتني أثناء جلوسها أمامي أنها ستفاجئني بصحن من الطعام من طبخ يديها عملته مخصوص لي أنا كوني أحب الغموس. كما أنها أرادت أن تأخذ رأيي برواية اشترتها حديثاً و.. أحياناً أكره نفسي لاتخاذي مواقف سخيفة لا مبرر لها.. مامعنى أن أحرد؟.. ومن أين جاءني هذا الفعل.. أظنني ورثته عن والدي فهو حين يحرد تسحب معه الحالة يوم أو يومين.. يمتنع فيها عن الأكل والكلام...

وأنت يا سيدلم لا تريد أن يعرف أحد بمرضك ؟ لقد أوقعتني بموقف أنا بغنى عنه وقد عشّمت نفسي هذي الليلة بسهرة رائعة مع آل الشيباني والأستاذ أحمد..

في طريق عودتي وجدت سيد يجلس على الرابية الواطئة أمام براكية ممدوح أبو طلال.. الذي هيأها بالبُسط والكراسي وبخبخ الأرض بالماء ووزع الريحانات على شكل صندوق مفتوح يحيط بالجلسة... ما إن رآني سيد حتى فزّ بطوله وعانقني وكأني غبت عنه عاماً كاملاً.. أجلسني جواره قائلاً:

- حمزة. لم أكن أعتقد أنني سأشتاق يوماً لصديق كما اشتقت إليك خلال هذا اليوم يا رجل! كل هذا الوقت في صنعاء؟.. لك وحشة لا يدركها المرء إلا في غيابك.. لا تعد إلى مثلها ثانية. آ حمزة؟ . هجست لنفسي: إن كان يعتقد هذا الرجل بأني خلاصه من آلامه، فقد خاب رجاؤه. أجبته:

- آ أستاذ سيد. وأنا كذلك بقي بالي مشغول عليك. أخبرني الحوثي أنك لم تكمل دوامك اليوم.

- أين رأيت الأستاذ أحمد! أولست قادماً لتوك من صنعاء؟

- لا.. قدمت عند صلاة المغرب.. كنت في بيت الأستاذ أحمد.. ثمة عمل أنجزه هناك..

- في بيته؟

- نعم في بيته. أين المشكلة.. أرسم لوحة لإحدى قريباته.. أم حاتم الطالب الأنيق في الشعبة الثانية.

- آي عرفته عرفته.. طالب مجتهد..

- الأستاذ أحمد زوج عمته....

- لابد أن أمه وسيمة بالشكل الذي جعلك تتابع الرسم وتنسى أصدقاءك.

- أمه ليست هنا.. صورتها فقط.. يريدون مفاجأتها باللوحة في عيد ميلادها..

(وماذا بعد ياسيد.. هل من استجواب آخر.. أنا متوتر وأنت ولا على بالك... ولكن لمَ أتكلم مع سيد بهذا الجفاء؟ أعذرني يا سيد.. لا أنكر أني ألِفتك وتآلفت مع فلسفتك تجاه الموت.. وتعوّدتُ على وجه الميدوزا فوق لحافك وألِفتُ أفاعيها وماعدت أخشى نظراتها التي تحيل من تقع عليه حجراً. وأخذت على حواراتك الحادة، ونزقك المفاجئ. إلا أنني لا أحتمل العيش مع رجل مشرع دائماً قوافل حزنه وفرحه باتجاه واحد تأخذه الريح أنّى شاءت. أو كما الضوء يشد إليه الفراشات الصغيرات ولا تدري إن كان هو مع الحياة أم مع الموت؟ مع النشوة أم مع الألم؟.. أو مع نشوة الألم.. عفواً سيد هي هواجس ليس أكثر.. عذراً يا صديقي الطيب..) جاء زياد ومحمد النبطي والدكتور فيصل وسهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل.. لم نترك موضوعاً لم نتناوله .. وأسمعَنا الدكتور فيصل شيئاً من وجدانياته الرائعة التي تنتابه كل حين فيكتبها على وصفة طبية بخط ناعم وجميل..

***

اليوم السادس

- 1 -

هذا الصباح ولأكثر من سبب كنت أتقلب في فراشي.. راودتني الأفكار السيئة حول سيد الذي مازال نائماً على غير عادته..

تعودت في الصباحات الفائتة أن أستيقظ ولا أجده في فراشه، بل أجد اللحاف والفراش مضبوبين بشكل محكم.. ويكون هو عائداً لتوه من رياضته الصباحية، أو في الحمام يغتسل من عرق المشي السريع الذي يمارسه كل صباح في وديان حوث. لكن في هذا الصباح ملأت الشمس الغرفة بنورها ومازال صاحبنا نائماً مغطى بلحافه الموشوم برسم الميدوزا الرهيب.. هل يعاني من شيء؟ هل هو في غيبوبة؟.. هل فاجأه ورم الدرجة الرابعة فنهش روحه.. لا شيء يبدو من ذلك! فلحافه يصعد ويهبط مع نفسه المتواتر بإيقاع بسيط يغطيه من رأسه حتى قدميه. كجسر ممتد بين ضفتين.. منظره المسجّى على هذا النحو يخيف من لا يعرف أنه نائم...

في هذا الصباح.. استيقظتُ في السادسة. ما زال سيد في فراشه!.. أين المشكلة؟ لا مشكلة.. ألا يمكن أنه أنهى رياضته وعاد للنوم وليس لديه درس في الحصة الأولى أوحتى في الثانية..

كان برنامج دروسه ملصق على الجدار جوار مرآته العالية، قفزت من الفراش إلى هناك، بحثت فيه:

- يوم الأربعاء، يوم... الأر . لم يكن هذا اليوم موجوداً بالبرنامج كله.. إذاً هو مفرغ اليوم بكامله..

تذكرت.. اليوم.. تسافر غزالة إلى صنعاء ومعها اللوحة.. لا بد أن أراها قبل سفرها .. عملت حركتين أو ثلاثاً من الحركات السويدية، شعرت بألم في ظهري... تثاءبت أقصى ما وسعني التثاؤب .. ما زال سيد نائماً تحت الميدوزا.. أعددت قهوة لكلينا... ثم أيقظته بهدوء..

- صباح الخير أستاذ سيد..

- صباح النور. كيف حتى صار أنك فايق بكّير؟

- ظروف دولية، الوضع اختلف عما كان عليه.. فالاتحاد السوفييتي في وضع لا يسمح له بالـ..

- ما شاء الله فايق ورايق كمان..

- أستاذ سيد، ستبرد القهوة، تعوّذ من الشيطان وانهض، اغسل وجهك وتعال نشربها....

نفض عنه الميدوزا دون كسل وذهب إلى الحمام..

أردت استفزازه حين اقتربَ من سريره ليربط اللحاف والفراش كالعادة. قلت:

- خلِّ عنك أستاذ سيد، أنا أحزم اللحاف عنك.

- تحزمهُ عني؟ إلا هذه!. أخشى أن يأتيك الموتُ عني. وأكون قد خسرت انتظار عشرين عاماً من التحزيم.

سعدتُ لأنه دخل فخ الحوار فوراً، فمازلت أشعر أن بداخله عوالماً لم أكتشفها بعد.

- على الأقل أكون قد أخذتُ عَنك الموت.

- هَهاوْ.. وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، وما أستفيد أنا من موتكْ؟.. وأنا .. أين موتي؟

- لا بدَّ من يوم.

- دون أن أحزم لحافي بيدي! لا أظن. لا أظنُّه جباناً لهذه الدرجة. حتماً سيحترم المواثيق التي عاهدتُّه فيها. حدسي ينبؤني أن الأمر قد اقترب. لذا عليك أن تدعني أغادر بطريقتي.

انتهى من التحزيم. واحتسى قهوته على مهل، ووقف أمام المكتبة.. ضحكتُ من ثقته الزائدة في الموت.. أخرجَ سواكَهُ وبدأ يسرب الضوع المعطّر إلى شغاف قلبه.

- أدعك! وما دخلي أنا بطريقة موتك؟ والذي أعرفه عن الموت أنه لا يستأذن أحداً قبل مجيئه. ولا يخيّرهم بطريقة موتهم..

- إذا حصل وكان موتي هنا.. أوصيك حمزة وهذه أمانة. إذا متُّ فلتكن عمامتي هي كفني.. ولحافي هو غطاء نعشي.

يا ألله... ما أقسى سوادَك يا سيد وأنت تحدِّثني عن رقة بياض روحك، تُسرِّبُ في دمك مذاقَ السواك الهندي، تُشاطئ شيخوختك وابْيضاض شعرك بكل كبرياء ونبل.

تناول كتاباً من مكتبته، وحين فتحه لمحت عنوانه: " البحث عن الزمن المفقود " لمارسيل بروست.. قرأ فيه بصمت وهو واقف.. تبسّم. ثم تغيرت فجأة ملامحه، تجهمت.. وضع يده على رأسه، رمى الكتاب جانباً وشيئاً فشيئاً أحسست أنه استسلم لما يشبه الخدر والإعياء، فقد ثقل رأسه وأخذ يترنح، ثم فقد توازنه.. فانحط جسده الضخم بغتة على الأرض كحجر ثقيل. امتصت الأرض الصدمة بصوت خامد.... ركضت نحوه، وفي ظني أنه قال كلماته الأخيرة وهو مدرك أن موته أقرب إليه من وقوفي بجانبه.. يا إلهي ما بال هذا الرجل يفاجئني كل حين بنوبات جنونه الفظيع ورغباته الشديدة في أشكال الموت الرحيم بطرائقه الخاصة.. لا فالأمر ليس كذلك.. هو يريد موتاً على طريقة دون

كيشوت.. موت الفرسان النبلاء.. أين يتسنى لك ذلك في حوث يا سيد؟!

انتابني عطف واشفاق.. أخفيت شعوري فجأة فهو يكره أن أعطف أو أشفق عليه.. أرحته وأسندت ظهره للسرير وهرعت لجلب كأس ماء. بخخت منها على وجهه، ثم أخرجت له الحبة المعتادة من حقيبته السوداء.. أخذها وارتاح. أغلقت باب الغرفة خشية مرور الشيخ عبدو فتكون القاضية. ونغدو في مصيبة أكبر، جلست قبالته، ريثما يصحو تماماً. وضع كفيه على وجهه، وصرخ بصوت مخنوق أجش: حمزة.. لو سمحت دعني وحدي..

- ولكنك دخت ووقعت.. هل أنده لك الدكتور فيصل..

- حمزة إليك عني.. أرجوك..

كأنه كان ينتحب، فكلمة أرجوك لم تخرج واضحة من بين شفتيه.. بسبب نشيجه المتقطع..

ما من أحد غيره يستطيع أن يفعل فعله، فهو حينما تحدّثَ إلي أمس على ذاك النحو. باح بكل مايريد دفعة واحدة. ليخلد بعد ذلك إلى الصمت الأبدي..

قلت في نفسي: (لا بد أن الرجل في لحظاته الأخيرة، فلأدعه يختلي بنفسه يناجي ربه ويستغفره عن خطاياه.) ثم خرجت إلى هواء الصالة البارد. أسندت ظهري للجدار وحبست حزناً كاد يطفر من عيني. لكني تداركت ذلك فوراً. فقد بدأت جلبة المدرسين الصباحية بالظهور مع صوت أبو سريع يبعبع في الصالة. ما زلت بالبيجاما، مشيت للباب الخارجي وقفت بجانب الخزان الكبير، فتحت الحنفية ورشقت على وجهي وعنقي الماء ومسحت شعري، ثم وقفت على عتبة المدخل أنظر من فوق السور إن كان أبو طلال قد فتح براكيته، رأيتها مغلقة. ثم عدت بهدوء إلى الغرفة. كان سيد يتمدد على ظهره وعيناه مفتوحتان تلتمعان بضوء النهار، رمَشَهما حين أحس بوجودي، ثم أبقاهما مغمضتين.

لا تخف يا سيد... فالثلاثة والخمسون من سني عمرك، هي الخطوة

الأولى لألف ميل قادم... ولألف عُمْرٍ قادم... لا تبتئس يا صديقي.. ما دمت قد تعاهدت مع الموت، فلن يخذلك!..

في الظهيرة... وخلال عودتي من المعهد، دخلت حرم السكن. استوقفني مشهد غريب لم أتوقع رؤيته أبداً على المدى المنظور على الأقل.. كان لحاف سيد منشوراً على حبل الغسيل.. وأنا الذي اعتقدت أنه سر من الأسرار المحرم نشرها... لا بد أن سيد أصدر أمراً لأشرعته بأن تواجه الريح.. فهي تسير بما لا تشتهي سفنه..

***

- 2 -

كانت مآذن حوث تملأ الفضاء (حيًّا على الصلاة، حيًّا على الفلاح) داعية لصلاة المغرب حين كنا مجموعة من المدرسين، نحث الخطى يرافقنا الأستاذ أحمد الحوثي الذي كان في زيارة لطبيب المركز الدكتور فيصل.. يسبقنا الأستاذ سيد مع أبي سريع ونواف التدمري ومحمد النبطي.. نحو جامع القرية، سألني صبحي مدرس العربية غامزاً بعينه تجاه سيد:

- ما هي أخبار صاحبنا السوداني، هل مازال يربط اللحاف كلَّ صباحٍ ويحلُّه عند عودته؟

ارتفع ضغطي قليلاً، لمست ذلك من ارتفاع حرارة الدم في عروقي.. يبدو أن الشيخ عبدو هو من نثر الخبر بين المدرسين بعد زيارته الصباحية المشؤومة تلك ...

وكأن صبحي بسؤاله اللئيم نبّه صلاح ليسألني:

- بذمّتك حمزة! إيش قصده الأستاذ سيد بعملية الربط والتحزيم؟ هل يخشى أن تهرب الأفاعي من رأس الحبيبة ؟ أم خايف عليها من البرد؟

نغَّم له اللئيم عناء الكعبي على ذات الوتر:

- لا أظنه يخشى عليها.. أوَلم ترها اليوم منشورة على حبل الغسيل؟ أظنها صباحيةٌ مباركة.

سأل صلاح ثانية:

- أخْبِرني بالله عليك حمزة، هل هي صورة لحبيبته الجنية التي هجرته؟ سمعتُ أنه مخاوٍ للجن؟..

- مخاو للجن؟ لا أظنه يؤاخي أمثالكم يا أبالسة؟ اتقوا الله يا جماعة! ما بالكم لا يفلت منكم إنس ولاجن! هل آذاكم الرجل بشيء؟ احفظوا ألسنتكم فوالله هو غير عاجز عن اقتلاعها من حلوقكم ورميها للكلاب. اتركوه بحاله.

كان الأستاذ أحمد الحوثي صامتاً يستمع إليهم وقد استبد به الغضب، نظر إليهم بازدراء وقال:

- يؤسفني أنكم في منطقتي التعليمية، ألا تستحوا من أنفسكم وأنتم في طريقكم لبيت الله، تستغيبون الرجل وهو يمشي أمامنا. على كل حال في الغد لي معكم شأن. وتأكدوا أن الشر لا يستطيع إيذاء أنقياء القلوب...

قلما يفقد الأستاذ أحمد رصانته الجادة. وهو الأربعيني الملتزم بوقاره ودينه.. لكن ما سمعه اقتضى منه أن يخرج عن هدوئه المعتاد... وقبل أن ندلف المسجد أخذني الأستاذ أحمد على جانب ليس ببعيد وسألني:

- صحيح حمزة.. ولا تعتبر سؤالي تدخلاً في حياة سيد لماذا يقوم بربط اللحاف والفراش قبل خروجه؟

ابتسمت وعذرت سؤاله البريء فهو الفضول ما دفعه لذلك وما كان يعلم بالأمر.. قلت:

- سألته مرة: (لماذا تفعل ذلك يا أستاذ سيد؟) أجاب وقتها: (لا أريد لأحد أن يلم أغراضي بعدي أو يوضب لحافي بعد موتي. لا أريد أن أتعب أحداً بذلك..) وحسب فلسفته بالموت أنه إذا نسي يوماً ربط لحافه وخرج، يظن الموت غير مقارب منه ولن يطاله بموجب اتفاقية عقدها معه..

- اتفاقية مع الموت؟.. هل يعاني من شيء..

- لا أبداً. أبداً..

لماذا لا أستطيع لجم لساني في الوقت المناسب. دخلنا صحن الجامع. وهو ذات الجامع الذي دخلتُه أوّل مرة في العام الفائت حين لمحت بعضاً من أهالي حوث قد خلعوا سراويلهم الشرعية الداخلية من تحت أثوابهم، وكوّموها عند الباب فوق أحذيتهم. دهشت وقتها وتساءلتُ في سري: (ماهذه العادة السخيفة ؟!)

كان الأستاذ أحمد بجانبي تبسّم قائلاً: (ليست سخيفة أستاذ حمزة. ولكنه القات فإدمانه يسبب السيلان، ومن الطهارة أن يدخلوا المسجد بدونها) كيف سمعني وقتها ولم أنبس بكلمة؟ لا أدري!. يبدو أن الكلمات قد هرّت من فمي حين أرخيت فكي من الدهشة! خجلتُ من نفسي، واعتذرت.

خلعت جواربي.. فقط.. وخُضنَا في بركة ماءٍ جارٍ ملاصقةٍ تقريباً لباب قاعة الصلاة والتي لا يمكن لأحد أن يدخلها دون أن يجتاز المخاضة ثم يقف على حصيرةٍ ينشف ماء قدميه.... أسلوب حضاري أعجبني لغسل القدمين من التراب وما علق فيها من بقايا الروث ومخلفات البيوت لمن هم حفاة وهم كثر.. وحوث ليس فيها شوارع معبدة سوى الشارع الرئيس الواصل بين صعدة وصنعاء.. والذي يقسم حوث إلى نصفين. وليس فيها حاويات إلا اثنتين واحدة عند المستوصف قريبة من سكن المدرسين والأخرى قريبة من الصيدلية التي تشرف على الطريق العام. وذاك من ذاك الذي يحمل كيس قمامته ليرميه في الحاوية.

بعد تنشيف أقدامنا دلفنا إلى بهو المصلى، ولا ضير الآن إن اصطدم رأس أحدنا ببندقية معلقة على أحد أعمدة المسجد أو متكئة على الجدار تقع على رأسه حال سجوده، وغالباً بعد سقوطها ما تنطلق رصاصة من بيت النار على اعتبار أنها ملقّمة وجاهزة للإطلاق خوفاً من أي غزو مفاجئ.. فتصيب أحدهم في قدمه أو رأسه أو مؤخرته حسب لحظة انطلاقها وقربها أو بعدها عن الأرض. ليتحول بعدها المسجد إلى حلبة نزال ويبدأ التلقيم والقنص والهرب وناس تلبس سراويل ناس،

ويختلط الحابل بالنابل. ومن لا يحق لهم حمل السلاح هم قوم السادة والأحباش... فهم مواطنون من الدرجة الثانية ويليهم في الدرجة أصحاب المهن الحلاقين والباعة الجوالين واللحامين وهذه مهن مهينة يترفع عنها القبيلي ولا يحترم صاحبها على اعتبار أنها أمور فيها خدمة للآخرين، تليق فقط بالخدم والعبيد ويرى القبيلي نفسه أكبر من ذلك بكثير. وأولاء المهنيون يهربون أول الناس حين تقع الفأس بالرأس. فلا ناقة لهم ولا جمل. وأما أهل القبائل والبدو فما حَملهم للسلاح إلا لاعتباره بنظرهم رمزاً للرجولة، وخوفاً من ثأرٍ يختبىء لهم في طعامهم أو صلاتهم، في سوق القات أو في سوق الجمعة، في عرسٍ أو في مأتم.

وحمل السلاح من السنّة المحمدية، لا خلاف على ذلك..

ولفت نظري مرة أثناء دخولي إلى أحد مطاعم صنعاء الشعبية، جلوس بعض الرجال القرفصاء فوق الكراسي أمام الطاولات.. وعلى أكتافهم / روسيات الأخمص طي/ مربوط عليها ثلاثة أو أربعة مخازن. سألتُ صاحب المطعم وقتها عن السبب فقال: (أولاء يكونون في حالة حربٍ قبلية. أو مطلوبين في ثأر، وجلوسهم بهذا الشكل يجعلهم متأهبين للهرب والقفز كالأرانب.. ويساعدهم أيضاً في استخدام البنْدقْ بأسرع مما تتصور. هكذا سنو القبائل عندنا فلا غرابة أن تأتيك رصاصة طائشة من قريبٍ أو من بعيد...)

تنبهتُ من سهوي على صوت الإمام يقيمُ الصلاة.. وارتمتْ في ذهني بندقية.. لكنها لم تصب برصاصها سوى ذاكرتي المسكينة.. لمحتُ سيّداً في الصف الأول يرفع دفتيه مكبِّراً..

***

- 3 -

بمجرد أن انتهى الإمام النبطي من الصلاة وسلّم.. خرجت من المسجد. ووقفت أنتظر خروج أحبتي وكان يطيب لي أن أسميهم جماعة الإوز.. لما في الإوز من إلفة ومودة وروح الجماعة..

اقتربتُ من ممدوح ومحمد النبطي والدكتور فيصل طبيب حوث الوحيد. بادرتهم:

- تقبّل الله، يا جماعة.

- مِنا ومنكم صالح الأعمال.

جاء رد فيصل متأخراً هادئاً ورقيقاً. رافقته بسمته نصف النائمة والملتصقة على فمه منذ مجيئه حوث قبل سنوات، كان يشاطرنا السكن في الطابق الثاني، بجناح مستقل من غرفتين وصالة صغيرة. اعتمدَ إحدى الغرفتين للمعاينة والعلاج والتوليد.. والغرفة الثانية فرشها بالمد العربي وهي الأكبر اعتمدها للنوم وللضيوف تحسباً لجلسات القات القليلة في المناسبات النادرة فوقته مع مرضاه لا يسمح له بقضاء وقت طويل معنا.. واختلاطه مع المدرسين يقتصر على سربنا سرب الإوز فحسب.. وغالباً ما نقطع السهرة عنده لمجيء حالة ولادة مستعجلة أو حالة اسعافية خطرة فنضطر للنزول إلى براكية أبي طلال.. نجلس أمامها جوار الريحانات الحبيبات..

لم يسلَم فيصل من غمز رفيقَي عمره النبطي وأبي طلال اللذين يتهمانه على الدوام بالبرود والكسل. ويحاولان اشراكي بهذه التهمة حين يسألاني عن صحتها وكنت أتهرب بدبلوماسية من السؤال.. لكن فيصل يصر على أن أجيب.. كان يهمه أن يسمع رأيي.. فأضطر للقول:

- الحقيقة ان طبع الدكتور هادئ... ولا يهتز إلا للشديد القوي..

أما ابتسامته النائمة أقصد الملازمة لشفتيه هي سمة تحسب له وليست عليه... يقاطعني محمد:

- وبرودة دمه.وصوته الذي لا يكاد يسمعه هو.. على من تُحسب؟

- يا جماعة فكوا عن الرجل.. أللّه خلقه بهذا الشكل.. ألا تخشون أن يبلوكم بمثل ما ابتلاه..

وهكذا حتى يوقعوا بيني وبينه. ورغم ذلك لا تفارقه ابتسامة الجوكندا كما يسميها أبو طلال.. ولا يمكنك أن تكتشف ما وراءها من غضب أو حزن أو قصائد لاذعة يبيتها لنا.. وما كنت ترى ذلك فيه إلا عند تخزين القات، حين تأخذه حالة الإنتشاء، وحين تسأله سؤالاً: ما بك. أو ما أنت ناو عليه؟ عليك وقتها أن تأخذ غفوة قبل أن يجيبك. أو يكتفي بهزة من رأسه الصغيرة والتي تتناسب مع نحافة جسده ورقة أصابعه.. التي طالما تباهى أنه يعزف بها على رموش حبيبته التي تسكن في مكان ما من الكرة الأرضية.. يرفض أن يكشف عنه.. يكتب لها القصائد ويرسلها بالبريد الكوني.. بلا عنوان.....

مررنا على براكيّة الأطلال، وكان الأستاذ أحمد قد ودعنا بعد خروجنا من المسجد متجهاً إلى الطرف الغربي من حوث حيث يسكن..

كالعادة كانت كراسي القش الواطئة موزعة أمام براكية الريحان كما سمّاها الأستاذ سيد منذ اليوم الأول لمجيئه.. سألني سيد إن كنا بحاجة لشيء نشتريه من البراكية لم ينتظر ردي. دخل إليها يطّلع على محتوياتها. وقبل أن نقرر مانشتريه، حلفَ علينا ممدوح إلا أن نقعد عنده. فقد أعدَّ جلسة لا تُفوَّت. وستكون بدل جلسة الخميس مبدئياً إكراماً للأستاذ سيد..

وفعلاً أخذ يبخبخ الأرض الترابية على يمين البراكية بالماء ورتّب الكراسي الخشبية الصغيرة المنسوجة بالقش، وأعاد توزيع ريحاناتهِ التي يعتزُّ بها كثيراً، واحدة في الوسط فوق منتصف الطاولة، وأخرى على يمين الكراسي واثنتان على يسار ويمين طرّاحةٍ كبيرة، أعدَّها خصيصاً للأستاذ سيد تتناسب مع طوله وحجمه. ساعده محمد في مدّ

السيّار الكهربائي موصلاً بآخره المسجّل الكبير الذي وضعه على الطاولة ترافقه كاسيتات ليوسف عمر وناظم الغزالي والكبنجي وشريط عزف منفرد لمنير بشير. وأشعلت النار في الموقد.. ووضع فيه فيصل دلة القهوة المرة..ثم اقترب من ريحانة الوسط وهزّها بيديه محاولاً فوح أكبر قدر من عبقها. وفعلاً فاحت بعطر عليل أنعش الجميع... خرج أبو طلال من وراء دكّة المحل بعد أن باع زبونة سطلاً من لبن الغنم حالفاً أنه شُغل اليوم وليس الأمس. اقترب مني وفرَد يده اليمنى على ظهري واليسرى إلى كرسي بجوار طرّاحةِ سيد قائلاً:

- استرح هنا، خويَّك أبو جمار جاي. (وندَهَ على فيصل) حكيم فيصل، روّح جاي، خلّك يم أبو تغلب، وألله يسترنا من الشعر لِي جاور الفن.

جلسنا كما أراد لنا أبو طلال، التفتُّ إلى الدكتور قائلاً:

- ها أبا طيف هل أعددتَ شيئاً لهذه الجلسة؟ رمقني بطرف عينه قائلاً بتباه:

- بيت السبع لا يخلو من العظام..

والعظام هنا جمع عظيم على حد تعبيره! والمقصود بها القصائد وليس شيئاً آخر..

مدَّ يده إلى جيب سترته منتزعاً ثلاث وصفات - كدت أقول ثلاث عظمات - نسج بخطه الناعم عليها قصيدة أسماها " عطر المسافات ". أعطانيها قائلاً بما يشبه الهمس وعيناه ترقب سيد خارجاً من البراكية: اقرأها بقلبك واعطني رأيك قبل أن أقرأها في الجلسة... بالكاد سمعته..

سألته مستعيناً ببيت من الشعر للشاعرة سنية صالح: مالك صامت أيها النهر ؟ ارفع عقيرتك.

كما قلت فيصل مختلف عن باقي السرب، فهو رغم كونه طبيباً.. فقد كان متميزاً عنها بحبه للثقافة والمثاقفة، له محاولات جادة بالكتابة النثرية، أسمعني بعضاً منها، أعجبتني واحدة منها. ساعدته

على نشرها بوساطة الصحفي أبو غزالة حمزة الشيباني في الصفحة الثقافية لجريدة الثورة اليمنية. وكانت فرحته كبيرة بأن ينشر له قصيدة لأول مرة في صحيفة الدولة الرسمية. اشترى يومها أعداداً كثيرة من الجريدة. وزعها على كل من بالسكن وعلى بعض المرضى الميئوس من شفائهم. علّها تسكّن آلامهم..

جلس سيد على طرّاحته حسبما أشار له ممدوح الذي ابتدأ الجلسة باقتراح:

أقترح بالتصويت أن تكون الجلسة هذي الليلة نبطية، الموافقة برفع الأيدي.

رفعت يدي معترضاً: بالله عليكم كيف تبدأون جلسة سمر دون صديقنا زياد؟

- أصبت يا حمزة، عليك به يا نواف قبل أن يفوته شيء من الجلسة...

وكان نواف قد وصل لتوه من المسجد..نهض وقال:

- ابشر أستاذ سيد. أُحضره في الحال. أجّلوا التصويت لحين عودتنا.

على فكرة زياد لا يذهب للصلاة في المسجد أو لصلاة الجمعة في الجامع الكبير. فله قناعاته الخاصة في هذا الأمر.... سأله الأستاذ سيد مرة عن ذلك. قلب يده وشفته ولم يتكلم.. احترم سيد وقتها صمته ولم يسأله ثانية. وهو مدرك أنه ليس ملحداً ولا وجودياً..

بعد قليل التم الشمل بمجيء زياد ونواف.

جلسا وبدأ التصويت للموافقة على اقتراح ممدوح. فأمسكَ محمد يدَ زياد ورفعها مرغماً إياه على الموافقة، كان زياد لا يحب الشعر النبطي ولا يعتبره شعراً.

ورغبةً في التواصلِ مع محمد وممدوح كونهما بدويين ويتعاطيان الشعر النبطي رُفعت الأيدي بالموافقة. وقد وعدا الأستاذ سيد بجلسة عن

ذلك بناء على رغبته. وبعد قليل دار أبو طلال القهوة المرة، فانتعش سيد بعد أن شرب فنجانه وهزه مكتفياً ثم نادى:

- يا بو طلال..

- سمْ ..

- سمَّ الله عدوك... أقول، على ذكر القهوة المرة. عندي بيتين من الشعر مبهّرات بهيل. لا أعرف لهما صاحب؟. قرأتهما في مجلة سعودية دون توقيع..

كانت لفتة لطيفة من ممدوح حين رد بكلمة (سمْ) ورد عليها سيد (سم الله عدوك.) للدخول في الحالة النبطية... قال الدكتور فيصل وقد تلبسته الحالة البدوية أيضاً:

- هات اسمعنا يطويل العمر، عسانا نعرف من هو صاحبهن.

قال سيد: يقول الشاعر:

أشرب من الدلة ولو كلها سم

ما هز فنجالك ولا أقول كافي

مدامها يمناك وتكول لي سم

بسم الله أشرب كل سمك عوافي

وتعالت الحناجر بالآهات والثناء....

ردّ أبو طلال بأبيات للشاعر الرقي البدوي سليمان المانع:

ما دام ينبت سنابل قمح وجه أمي

مايوصل الجوع لو حاول لوجداني

واللي يبيها: حرام ان قلت يا عمي

لضرب رصاصة بعيني واقطع لساني

ذا شـــعري اللـــي تـــشوفونه وذا دمـــي

مـن مـنهم اللـي تـشرّب نكهـة الثانـي

تظلـم وأغـني بـسرب أقمـار مـن فمـي

عاهـــدت أنـا الـناي والراعـي وغنانـي

أحـيان اسمّـي وبعـض احـيان ماسمـي

خـــاف الـــشياطين في عمـــري تبلانـــي

م واحـــد لاك قـــبل معاشـــري ذمـــي

ك ولانـي موكّل على قاصي وعلى داني

ب مـــسبوق لـــي ســـفني ولـــي يمـــي

ماني والناس مثلي وانا ماقول وحداني

صفّق الجميع لإلقاء أبي طلال الممتع ولتعابير وجهه المنسجمة مع كلمات القصيدة المعبرة..

- يا جماعة يكفينا الليلة ما أخذنا من الشعر النبطي، لنستمع إلى..... وما أكملت حتى تعالى أزيز الرصاص فوق رؤوسنا، وشاهدنا تراكض مجموعة من المهربين تلاحقهم دورية أمن وجمارك مشتركة..

تعالى الصراخ والعويل من أحد البيوتات المجاورة لبراكية أبي طلال حين التجأ إليهم أحد المهربين بعد إصابته برصاص الدرك. انتشر العسكر على طول المكان. طلبوا منا اطفاء النور واخلاء الساحة فوراً مع إغلاق البراكية.. همست لفيصل:

- المنحوس منحوس لو ركب عالقادوس.

- أنا واثق أنك أردت ان تقول لنستمع إلى فيصل؟

- صدقت..لكن سعدك سعد ذاك المنحوس الذي كسروا له

الفانوس وكان اسمه عبد القدوس..

- وما به هو الاخر؟

- أضاع حماره وخرج في الليل يبحث عنه. وبيده فانوسه إلا ان الأولاد كسروه له فعاد بقندرة حُنين دون فانوس أو حمار..

- وما وجه الشبه بيني وبينه؟

أحرجني الدكتور فيصل بهذا السؤال. أنا أحترم فيصل ولا أرغب التقليل من شأنه بهذه الحكاية التي جاءت عفو الخاطر وتوالدت من أسئلته المباشرة.. إنه ينتظر أن اقول له ما وجه الشبه.. ماذا أقول له والحكاية كلها بنت اللحظة وليس له بها علاقة.. قلت مدارياً تورطي:

- وجه الشبه أنك أضعت فرصة جميلة لإلقاء قصيدة وهي مهمة لك.. بذات الأهمية بالنسبة لذاك الرجل الطيب الذي أضاع حماره...وحماره بالنسبة إليه كل ما يملك.

- ولكني أملك غيرها.

أظنه يلاعبني على نفس الحبل أو أنه يجاريني على قد عقلي أو عقل الحكاية. قلت:

- عظيم إذن وضعك أفضل من وضعه بكثير .لقد اخطأتُ التقدير. عفواً..

- حمزة من أين تأتي بهذه الأمثال التخانة؟

- هل تشك بذاكرتي الشعبية في حفظ الأمثال ونسج الحكم من الخيال؟

ضحك فيصل للمداعبة المسلية ودخلنا باب السكن وتفرقنا كل إلى غرفته..

***

اليوم الثامن

- 1 -

إن هـذا الـصباح الـبارد لم يخـتلف في لحظاتـه الأولى، عـن الـصباحات الأخـرى، الـساعة الآن تجـاوزت الـسادسة بقلـيل.. إلا أنـي استيقظت على غير عادتي على جلبة المدرسين التي ما كانت كعادتها رتيـبة مدروسـة. تـبدأ بـسيمفونية أبـو سْـريع الـرعوية في إيقـاظ جماعـة القبْلـي " الـصعايدة " أولاً ومـن ثم جماعـة البحـري. وبعـدها ينادي بأعلى صوته: وحّدوه ثلاث مرات، يوزعها على باقي الغرف. يليه سعال المدرس الليبي عناء الكعبي، أشبه بسعال كلبٍ عجوز مصاب بالتهاب قصبات حاد. يمتزج بنباح بعض الكلاب الملازمة للسكن. ثم تأتي ترنيمات العتابا الصباحية الجميلة لنواف التدمري ينتقيها من أغاني البادية وهو يقفُ أمام المرآة في الحمّامات المشتركة للمدرسين يسرِّح الزُّلف ويطرّف شاربيه الخجولين، يزيل أحياناً الشعر الزائد بين حاجبيه، ثم يخرج من الحمّام مغطياً وجهه بالمنشفة فيصطدم عمداً بالشيخ عبدو لتدور عليه الدوائر بمحاضرة عن عمى القلب وعن النمص والنماصين حين ينظر بين حاجبـيه.. يـرافق ذلـك تـصفيق محمـد النبطـي كالحـاوي لاسـتخراج المستعـصين في الحمامـات: (يلـلا يـا شـباب.. خلـصونا.. الوضـع مـا عـاد يستحمل ..) وآخر.. وآخر...

في الأيام الأخيرة بدأتُ أستيقظ قبل هذا الوقت، على جلبة سيد وهو يعدُّ القهوة بعد عودته من رياضة المشي السريع في شعاب ووهاد حوث.

أمّا هذا الصباح الحزين.. كان إيقاع المدرسين فيه مختلفاً. فالجلبة تسودها الفوضى وأقدامٌ تتراكض وأصواتٌ تطالبُ بإيقاظِ الطبيب فيصل فوراً. وأخرى تستدعي حضور الأستاذ أحمد الحوثي وصوت النبطي جاءني جلياً فصيحاً يعلن للجميع أنه لابد من إيقاظ حمزة، وإعلامه بالخبر.

أي خبر توقظني من أجله يا محمد يا نبطي؟ نفضتُ اللحافُ عني وانطلقتُ حافياً إلى باب الغرفة أفتحه. وخلال انطلاقي نحو الباب لم يفتني النظر لسرير سيد، فراشه ممدود واللحاف أيضاً.. شيء ما عض قلبي واعتصره.. لأول مرة منذ مجيئه ألحظ مشهد عدم التحزيم في مثل هذا الوقت من الصباح.. فقد تعوّد قبل خروجه مهما كانت الظروف أن يربط لحافه والفراش ويحزمهما كما لو أنه مهيأ للرحيل.... فتحت الباب على عجل... كان محمد يقف بوجهي يحاول فتح الباب، أجفل وتنحى جانباً.. لفحتني قامات الزملاء متلاصقة واقفة في العتمة يتخللها من الخلف الضوء القادم من الباب الرئيسي للسكن فيشكل هالة من الضوء تحيط برؤوسهم وأجسادهم.. ما ميَّزتُهم في البدء. وجوههم سوداء محنطة. كأنها قيّامتهم. صرختُ بهم:

- ماذا هناك! ما الذي حصل؟

بهدوء جنائزي بارد. انشطر شملهم إلى نصفين كعباءة سوداء انشقت عن غيمة بيضاء بلون الثلج تتمدد على أرض الصالة. اقتربتُ منها حافياً. ما عدت أشعر ببرد الصالة يلسع قدمي.. بل ما عادت تحملني ركبتاي. إنها جثة سيد بثوبه الأبيض وعمامته...

أواااهُ يا سيد! هي قيامتك إذاً. منذ الأمس وأنت تهجس بها...

أخبرني يا صاحبي؟.... هل كان موتك كما أردت؟ هل اخترت

موتك على طريقتك؟

- .....

- سيد لمَ لا ترد؟

- .....

- ألم تقل لي أن الموت ليس جباناً وانه سيحترم عهودك معه. ومع أبيك؟ لماذا كذبتَ علي؟ عذراً لتطاولي..ولكنك لم تخترْ موتكَ كما أردتَ!

ما عادتْ تحملُني قدماي امتلأتا بالزئبق والرصاص .. ارتميتُ على ركبتي بجانب جثته المسجاة.

كان ينزف دماً بلون الجمر من صدره. حشرجتُ بصوت لم يكن صوتي كان أغنية بغدادية / لسامي كمال / تحدو من بعيد: (أحّاه .. اش وسع جرحك يا بحر.. أحّااه ..صبرك صبر سفينة..)

خنقتني عبراتي.. كابرت .... رحماكَ يا جبل. ما عادت تنفع المكابرة... فلتسقط كل الأشياء الجميلة ما دام الموت بهذا القدر من الجبروت والغدر.

تعال يا شريط العمر واعرض صورك. هاهو يومك تتباهى بعرضِك الممتع والقادم من أيامك. هاهي عائشة بلون العسل. يأتيها الناعي وكباقي السودانيات، يذبحها الخبر. فتذبح وريداً يتقافز على ظهرها منذ طفولتها، ذبحت عائشة جديلتها... يوم عدت من غربتك الأولى حلّت جديلتها لأول مرة. ويوم رحيلك ستقطعها. وتقطَع معها عمرَها.... مذ حملتها يا سيد في أرض المطار وهي تسقي جديلتها بعطر الإنتظار. غدرتَ أنت بها، وما غدر العطرُ. رويدكِ يا عائشة ففي العمر بقية. سيد يبتسم.. سيد ترمشُ عيناه. ما زال الجبلُ محمولاً موزعاً بين الأيادي.

لا بد أنه سمع صوتي، خيّل إلي أن شفتيه افترّتا عن ابتسامة شاحبة.. صرختُ. وبالكاد خرج صوتي من حلقي:

- لماذا وضعتموه على أرض الصالة ولم تدخلوه الغرفة!؟ قال محمد وممدوح بصوت باك:

- كنا ثلاثة فقط، وما استطعنا حمله.. يا دوب أوصلناه الصالة.

انكمشت أصابعه على يدي. صرخت من كل قلبي:

- إنه حي .. حي .. هيا . محمد. ممدوح. زياد. نواف. احملوا معي نضعه على فراشه.

حملناهُ.. خمسةُ رجالٍ تمايلوا في حملهِ.. حقَّ له أن يتباهى. كان جبلاً.... لك الحق يا سيد.. فما عدت أخفف من وطأة مباهاتك. فقط افتح عينيك وأخبرني أن ما يحصل هو دعابة سخيفة يمتحنك فيها القدر. صحتُ بألم: ليرفع أحدكم اللحاف.

تقدّم الشيخ عبدو ورفع الغطاء.... من دون خلق الله تقدم عبدو ورفع الغطاء.. أي نخوة عندك أيها النذل؟ ببطء مقصود كان يرفع الغطاء.. صرختُ به:

- هيا يا رجل. حرّك يديك.. ابعد الغطاء جيداً. وسّع المكان.

كان اللعين يرفع اللحاف ببطء ويغطي بجسده النتن منتصف الطريق، يعيق حركتي في المرور وكأنه يريد أن يستبقي اللحاف مرفوعاً أكبر قدرٍ ممكن من الوقت ليُرِي الزملاء رسم الميدوزا قائلاً في سره:

(انظروا. هاهي المرأة التي كانت وراء مقتل صاحبكم؟)

ارتفع من آخر الجمع صوت عناء الكعبي بارداً لئيماً:

- بشر في لقد توقعّت له هذه الميتة الحقيرة، منذ أن رأيت هذا اللحاف اللعين معلقاً على حبل الغسيل.

اندفع زياد كالقذيفة، أسكته بلطمة قوية على فمه القذر فأدماه وكاد يرميه.. ثم صرخ بوجهه:

- ولك حتى في حضرة الموت تَشْمت يا كلب. وتحلف بشرفك! أي

شرف لك تحلف به يا حلّوف.. لا.. أنت أكبر من حلوف. أنت خنزير بوسام شرف. لعنة الله عليك وعلى أمثالك. تفو.. كان معها حق حكومتك تقلّعك برّاة البلد لأنك وسَخَهْ.

- أنا وسخة يا إبن العاهرة ....

فقد زياد صوابه وانهال عليه لكماً ورفساً. ثم سحبه إلى الحمامات ورماه مثل كلب أجرب لطمته سيارة على قارعة الطريق. لم يكتف زياد بذلك بل ركض إلى داخل المرحاض وحمل سلة المناديل الورقية القذرة وألبسها رأسه. وصرخ به:

- هذا حوفك يا ابن ستين عاهرة.

لم يتجرأ ابن امرأة من الحاضرين على منع زياد مما يفعل بذلك النتن الذي لطأ ذليلاً في زاوية المراحيض.

أترى يا سيد حتى البزاقات والديدان والجراء الصغيرة بدأت تتطاول وتتقافز لتنهش لحمك؟! ولكنهم يعرفون أنه دفلى وعلقم في حلوقهم. هيا، إياك أن تترجل عن صهوة سني عمرك الجميلة، لا تمنحهم فرصة للشماتة. ولا تغتم ياصديقي فعناء وشلته القذرة جرذان من طينة واحدة.

ارتعد الشيخ عبدو مما حصل لصاحبه ورفع الغطاء بسرعة.. وأرحنا سيد على السرير.. دخل الدكتور فيصل مسرعاً يحمل حقيبته الطبية بيده، سأل دون أن ينتظر الجواب : ما الذي حصل؟

أجاب محمد النبطي:

- بعد صلاة الفجر بقليل خرجنا من المسجد وقفت أنا ونواف وممدوح عند البراكية ولمحنا الأستاذ سيد من بعيد يحيينا ثم اقترب من التبة وما أن وصلها حتى عصف المكان بطلقات المهربين.. اختبأنا في البراكية، حتى توقف الرصاص ثم خرجنا. الأستاذ سيد.لم يختبئ.. لمحتُه يضع يده على صدره ثم يتهاوى على الأرض. ركضنا نحوه... كان قد أصيب في صدره بطلقة طائشة.

انتهى الدكتور فيصل من كشفه على الإصابة.. بعد أن شق ثوب سيد وكشف كامل الصدر وما استمع إلى كلمة مما قاله محمد. وضع ضمادات من القطن والشاش فوق الجرح. أغلق حقيبته وقال دون أن ينظر إلى أحد:

- أبا تغلب، لو سمحت..

مشيت معه، وعند الباب غالبَ الدكتور فيصل دموعه وأخبرني بهدوء:

- الإصابة تكاد تكون في القلب. موقعها يؤكد ذلك.. عظم القص تفتت...

- هل الرصاصة ما زالت في صدره ؟

- تفحصتُ ظهره لا يوجد ثقب. على الأغلب اصطدمت بعظم القص واخترقت البطين الأيمن واستقرت قريباً من الظهر.. الأعمار بيد الله... حمزة.. أظنها مسألةُ وقتْ.

رانَ الصمت على الجميع. صمتُ الغرفة كان أقرب لصمت جنازة..

مسح الدكتور فيصل وجوهَ الجميع بعينين حزينتين وحازمتين.. طلب منهم إخلاء المكان.. وقبل أن يخرج نطق عِبارة يائسة:

- اتركوه قليلاً مع أبي تغلب.

وخرج مسرعاً بعد أن ضغط على كَتِفي مواسياً.. صعد إلى الطابق الثاني حيث عيادته.

تفرّق الجميع عدا سرب الأوز ظلوا مشدودين لبابِ الغرفة....

اتركوه قليلاً مع أبي تغلب. أهذا ما تبقى من قطار العمر يا حكيم الزمان؟ (قليلاً)! هل أصدرتَ فرمانكَ أيها الطبيب الشاعر وهربتَ إلى جُحرك مثل أرنب؟ ما الذي أفعله بـ (قليلاً)؟ أسْتحضر فيها مَن؟ وأسْتبقي مَن؟ ... نظرتُ عبر النافذة إلى السماء كانت تمتلئ بالسحب السوداء وترتجُّ بالرعد..

يتوهج البرق كل حين فيلتمع وجه سيد بسياطٍ نحاسية.. تتراقص على الجدار وعلى اللحاف دوامات زرقاء وبنفسجية مُريعة تجعل وجه الميدوزا أكثر رعباً. ضمادات الشاش التي وضعها فيصل على الجرح بدأت تنز بالدم. جلستُ على ذات الكرسي الخشبي الذي جلس عليه لأول مرة.

ما الذي يقال في مثل هذه المواقف؟ لا تسعفني الذاكرة. ماذا أقول لصديق يحتضر بين يدي؟..

ما كان يجب أن يقال قد قيل.. تحدثنا في الأدب والسياسة والفلسفة والفن وما نسينا المرأة والجمال والجنس والفضيلة والصوفية. والجنة والنار.. تحدثنا عن الانكليز. والمعتقلات والخونة والعملاء..

بماذا تريدني يا فيصل زمانك أن أتحدث مع رجل كان عصياً كصبارة. نديا طرياً كطين الفرات.. هل أكتب مرثية بحق صديق علّق كل ما يملك من أحاسيس أيقونات عشق على جدار غرفتي. هل تريدني أن أمنحه وسام رجولة، أكبر مما مَنَحَتهُ الحياة؟. لا يا صديقي.....

تحرّك سيد. أمسكتُ بيده. لم يتكلم.. سمعت لغطاً.. أطللتُ ببصري وراء النافذة. الستارة نصف مغلقة. ورؤوس الأولاد تتطاول بأعناقها لتلقي النظرة الأخيرة على أستاذهم العملاق الذي استطاعت طلقة طائشة بحجم عقلة الأصبع أن ترميه أرضاً. بعقولهم الطفولية لا يصدقون أن رصاصة واحدة تكفي لرمي رجل بحجم جبل.. ما زالت خطوط المطر المائلة تعزف اللحن الأخير. تصطدم برؤوس الأطفال وتقفز على الأرض مضرجة بالوحل والصمت المريب.

أعادني من شرودي صوت سيد:

- ألم أقل لك أن الأمر قد اقترب من نهايته. وأنه لن يفاجئني. لقد انتهى كل شيء يا حمزة....

- لا لم ينته إنها البداية فقط.. هي مداعبة خفيفة من القدر يختبر فيها صلابتك أيها الجبل.. ألم تفاجئك الرصاصة؟!

- الرصاصة فاجأتني، لكن الموت لن يفاجئني.. فأنا... أنتظره بهدوء فرسان الطاولة المستديرة، أو فرسان الساموراي... ألم أقل لك أنه يمنحك دلالات قبل أن يغتالك..

- أستاذ سيد أرجوك أن تهدأ.. جرحك ينزف.

- دعه ينزف.. لماذا اسمه جرح إذاً إن لم ينزف؟

- أرجوك..

- حمزة ألم تعتد طريقتي لحظة البوح؟ لا أحب أن يقاطعني أحد.. دعني على سجيتي.. أين كنا.. آ .. قلنا أنه يمنح دلالات.. (كان كلامه متقطعاً) الدلالة الأولى.. كانت يوم رسمْتَني على الجدار ومسحتَ بإبهامك ظلال روحي... وتركتني بلا قارب.. ولا شاطئ... فرحتُ بذلك الرسم فرح طفل يتلقى أجمل وآخر هدية بحياته. ولكن... السؤال الأهم هو الذي... سأله طاغور شاعر الهند العظيم:

(أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يأتي ليقرع بابك؟

آه.... سأضع أمام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين..

كلَّ قطوف كرومي العذبة من أيام خريفي وليالي صيفي.

كل حصاد حياتي الدؤوب وجناها. سأضعه أمامه حين ينتهي أجَلُ أيامي.

يوم يأتي الموت ليقرع بابي)

قلت متوسلاً: أستاذ سيد أرجوك أن تصمت، فالكلام يزيد النزف. انظر.. عليك أن ترتاح.

- سأرتاح. سأرتاح... ما عليك، الأمور بخير أما كان يقول ذلك صديقك الراحل ياسين.. المهم حمزة.. ألا تنسى.. ما أوصيتك به...

أشرق وجهه.. أظنها اشراقة الموت. أعرف جيداً هذه الإشراقة، رأيتها من قبل على وجه جدتي في نزعها الأخير بين يدي والدي. ومن بعد

رأيتها على وجه عمي. وأخي ناصر عليهم رحمة الله.

نظر إليَّ سيد.. ثم قال بصوتٍ مثقل بلزوجة الدم ورائحة البارود:

- حمزة. لا تحزن يا صديقي.. دع الحزن للنساء.. فهن يغدين أجمل لحظات الحزن.. أزح الستارة.. افتح النوافذ.. دعني أسمع زقزقة الأولاد تختلط بصوت المطر ورائحةِ الطين.. حمزة في جيبي رسالة لم أكملها بعد.. سـ..

- ستكملها.. ستشفى إن شاء الله وتكملها.. أرجوك أن تخفف الكلام..

كلما زاد الكلام ازداد النزف.. تساءلت.. أين الدكتور فيصل.. رمى قطنهُ وشاشهُ وهرب..

نظر سيد إلى المكتبة وقال:

- لا تنسَ أصدقاءنا المشترَكين، سأبقيهم معك، ممن ينتظرون وممن لا ينتظرون.... إذا استطعت يوماً أن تلتقي بجمار القلب فامنحه ثروة أبيه، هو يعلم بذلك، أخبرتهم في الرسالة.. الرسالة في جيبي حمزة.. وكالعادة ألصقت عطري الذي يعرفون على طرفها. هي علامة تعرفها عائشة.. إنه عطرُ أبي.....

حمزة هل تذكر آخر كلام لـ/ غوتّه / قاله وهو يحتضر؟

أجبته وكنا قد تذاكرنا ذلك من قبل: نعم قال: مزيداً من الضوء .

- هو ذاك. مزيداً من الضوء. أزح الستائر. الضوءُ يا حمزة .. الضوء أولُ الأشياء وآخرها..

أزحتُ الستارة وفتحتُ طرفاً من النافذة، وطلبتُ من الأولاد ألاّ يزعجوا الأستاذ بأصواتهم ..

ارتكنتُ إلى الجدار. تأملتُه ما زالتْ وسامته ترتسمُ على مُحيَّاه النبيل. فمازال شاباً في روحه ومرحه.. ضحِكَتْ عيناهُ في جذل حين رأى الأولاد وراء الزجاج يزقزقون تحت المطر.

هم ذات الأولاد الذين ساعدوه في إدخال العفش. لوَّح لهم بيده وقال:

- والله فيكم الخير يا أبطال حوث الأشاوس. ها أين أبا جراح؟

لم يكن يصلهم صوته المتقطع والخافت.. إلا أن عبيدة ذو كراع الذي كنّاهُ بأبي جراح رفع قامته القصيرة وصفق بيديه فرحاً وكان أكثرهم حباً لسيد:

- إنه يُحيينا! انظروا.. إنه يبتسم.. لم يمت بعد.

رد أوسطهم سيف القُمَّلي وكانوا بحوارهم الطفولي يلفظون كباقي اليمنيين والبدو القاف جيماً مصرية:

- هذي ماهيب تحية يا غبي.. إنه يودعنا. ما تشوف الدم يغطي وجه الشوفة[2] حقه المرسومة فوق اللحاف.. يقولون هي اللي نهشت قلبه. أشتي[3] أدخل وأمزق وجهها..

- إياك ؟.. يقولون أنها عفريته سحرته. ربطتْ سحرها باللحاف. ولا يموت إلا إن تمزق اللحاف.

- ولكن طلقة واحدة لا تقتله. انظروا انه يبتسم..

- يقول أبي.. رصاصة واحدة ما ترمي رجل.. والأستاذ سيد.. مية رصاصة ما ترميه....

قال أبو جراح:

- حين أكبر سأنتقم له من المهربين.. راح أطخُّهم بالبندق حقي ..

قلت في سري (حين تكبر ستكون واحداً منهم أيها الحوثي الصغير..) وأغلقتُ النافذة.

تركتهم تختلط أحاديثهم الطفولية ودموعهم بالمطر المتساقط.

---

[2] الشوفة: من الشوف، الرؤية. وعند أهالي حوث تعني الزوجة. فهو لا يشوفها إلا ليلة الدخلة.

[3] أشتي: الأصل أشتهي، تعني أرغب وأتمنى.

ترقرقتْ عينا سيد بالدمع حين سمع الأولاد يبكون وقد أصغى لثرثرتهم كلها. اقتربتُ منه. قلت بخافض صوتي:

- لا بأسَ عليك، إنهم يحبونك. وينتظرون عودتك معافى....

غامت عيناه.. لمحت ضوءَ النهار يحتَضر فيهما..

- حمزة.. لِمَ أغلقت الستارة.. لا أرى شيئاً .. إنه العماء! حمزة.. أين انت ..

وسّعت فتحة النافذة وأزحت البرادي تماماً عن النافذة:

- انظر ما أجمل الصباح فتح ذراعيه وصدره لاستقبالك. هي الغيوم فحسب تغطي وجه الشمس.

- تغطيها؟ آي نعم تغطيها.. فجديلةُ عائشة غطت عين الشمس لكن لم تطفِئُها؟! لا يا حمزة لا... الظلامُ يملأ المكان

- وكّل أللّه يا رجل .

- ونِعمَ باللّه .. أريدُ شربةَ ماء ..

أسقيتُه قطراتٍ فحسب.. وأمسك بيدي وصرخ:

- حمزة أنا أغرق في الظلام! مزيداً من الضوء.. أين شمس النهار.. حمزة..

انتقلتْ عدوى العماء إلى قلبي وذاكرتي وعيني، فلم أعد أشعر بشيء.. إن قوى خفية تسيرني.

كم رغبت أن يكون عبد القادر أبو المعتز هنا. فهو يحسن التصرف في مثل هذه الظروف أكثر مني.. لكان اخذه بسيارة السفارة إلى صنعاء أو إلى صعدة فهي أقرب وفيها مشافٍ وأطباء مختصون.. سيد كان يتهيب الموت بالورم السرطاني. وقد أمهل نفسه عاماً أو عامين يعيش فيهما.. فإذا به يصارع رصاصة

استضافها قلبه المتعب قبل موعده بكثير.. بل في موعد زيارته إلى صنعاء لأخذ الجرعة الثانية.

كان زياد يقف بالباب حزيناً يستمع لحديثا ومعه محمد وممدوح ونواف التدمري الذي ما فارق الدمع عينيه.. اقترب ممدوح من السرير ممسكاً طرفه عند قدمي سيد وقد أدرك أن صاحبنا قد فقد بصره فأراد أن يذكّره بأقوال سمعها منه ذات يوم:

- أستاذ سيد.. ألا تذكر ما قلت لي أول أمس حين انقطع التيار الكهربائي؟ ذهبتُ وقتها لأحضر القنديل لأراك وأنت تحدثني، قلت لي الضوء بداخلنا يا ممدوح، لا حاجة للقنديل. فمن نحبهم نراهم بقلوبنا.

رد عليه سيد:

- هلا أبو طلال .. الله ينوّر عليك.. وش حال الريحانات؟

- بخير.. يسَلْمِن عليك.. عساك بخير.

- شوفة عينك.. الأمور بخير... وابتسم..

- عساها دوم بخير.. شدة وتزول انشا الله.. لا ترميها واطئ أستاذ سيد..... سيارة الاسعاف من صعده جاية عالطريق.. عيّن خير..

- الخير فالك.. الحمد لله على كل حال يابو طلال... إن كلمة الله هي الضوء الحقيقي الذي ينير لكل البشر.. أنتم في قلبي، يا ممدوح.. أنت وزياد والنبطي... والدكتور فيصل جزاه الله كل خير.. ومطرب البادية ذو الصوت الجميل أبو العتابا نواف التدمري.. حمزة هل ما زلت هنا.. لا أسمع صوتك.

ابتسم نواف من خلال دموعه. لم يحتمل فأجهش بالبكاء..

تقدم زياد مفعماً بالحزن وقد غمَّه منظر سيد المؤلم.. وقف بجوار ممدوح قائلاً:

- سلامات أبو الجمر. إنشاء الله عدوِّينك من زغيرهم لكبيرهم، شِدِّة وتزول يا بآآ، هاي شبيك؟ كلها رصاصة.. أشَوفك صدري مليان برصاص حسنة.. كل يوم يعدي وما أشوفها بيه أنطخ رصاصة وعليك الحساب..

قالها بطريقة تفخيمية عميقة على طريقة قدامي الديريين. واستدار ليخفي دموعه التي طفرت من عينيه.. ابتسم سيد وكاد يضحك فلم تسعفه كمية الدم النازفة من صدره وزاوية فمه..

ها هم الأصدقاء الطيبون يعرفون ما يقال في مثل هذه الأوقات.. ما حالي إذاً؟ أكتفي بالتوتر والقلق وكأن الريح تحتي.. شعرت أن سيداً بدأ يضيق نَفَسه.. همست لزياد وأبي طلال أن يخففا الحوار والصوت.. ومن الآخرين أن يبتعدوا عن الباب قليلاً لإدخال أكبر كمية من الهواء.

طلب مني سيد الجلوس بجواره.. جلست.. ونَدفَ من فمه ثلجاً أحمر متقطعاً :

- حمزة.. أنا أحتضر. يبدو أن الهدنة.. قد انـ.. تهتْ..

وابلُ المطر بدأ يشتد.. يضربُ النوافذَ بحوافرهِ بلا رحمة مخلفاً ندوباً وثآليل على الزجاج الذي تلتصق عليه وجوه الأطفال. بي رغبةٌ مجنونة لأن أقف مع الأطفال تحت المطر.

يده تستعر وتلتهب. ألمس جبينه قطعة من صفيح ساخن. أُفكّر بالدكتور فيصل، هو طبيب عام وعليه أن يتصرف مع الحدث بطريقة أفضل مما فعل. ندهتُ على محمد النبطي سألته: أين الدكتور فيصل؟

- مازال يستعجل مشفى صعدة بطلب النجدة..

- محمَّد؟! يا نبطي!

- أُقسم أني تركته يتحدَّثَ بوضع الأستاذ سيد مع الدكتور زكي العجاج.. طبيب سوري مقيم في مشفى صعده. اذهب وتأكد بنفسك!

هدأت من روعي، فما ذنب محمد أفرغ به جام غضبي. قلت:

- أعرف الدكتور زكي، أبو وسام. ولكن انظر.. الرجل فقد بصره وتحول إلى كتلة من اللهب والدم..

نظرتُ إلى ساعتي، تزحف في وحل الثامنة. لقد تأخرَ الأستاذ أحمد

الحوثي؟! معقول لم يخبره أحد؟ ما أكملتُ سؤالي إلا والرجل يدخل كطلقةٍ من بوابةِ السكن مذعوراً متجهاً إلى الغرفة:

- ما الذي حصل؟ أين جَه[4] الأستاذ سيد ؟

كنت أقف بالباب وسّعت له فدخل. كان سيد قد راح في غيبوبة رافقتها حُمَّى مسعورة. قبّل رأس سيد وتابع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ما الذي حصل؟ ... أجبته:

- ما عادت تهم التفاصيل يا أبا سبأ..

طلبتُ من الأستاذ أحمد: (أرجو أن تتصل بالبعثة التعليمية ليتصلوا بالسفارة السودانية، ليخبروا أهله.

- فعلت ذلك. واتصلت بمشفى صعدة منذ أن جاءني الخبر، لكني سأتصل بالمشفى ثانية أستعجل سيارة الإسعاف..

دخل الدكتور فيصل وسأل : كيف هي حرارته ؟

تلمس جبينه. وضع مخدة تحت قدميه وطلب مخدة ثانية ليرفعهما أكثر.. يبدو أنها تعليمات الدكتور العجاج. كي ينزل الدم إلى قلبه. فقد نزف الكثير.. كانت أعصابي قد فلتت مني .. فأجبت على سؤال فيصل بشيء من الحدية والتوتر:

إنه يشتعل. افعلوا أي شيء؟! الوقت يمر. والرجل يعاني من نزف داخلي. معقول ألا توجد طريقة لإيقاف النزيف؟!.. ردَّ فيصل بعصبية ظاهرة:

- ماذا أفعل؟ هل تراني ألعب؟!. اتصلتُ مرتين بصعده. هم في الطريق. الدكتور محمد زكي قادم ومعه سيارة التجهيزات الطبية الحديثة. خلال أقل من ساعة يكون هنا..

---

(4) جه: في الأصل جاء... أين جه فلان؟ تعني أين هو فلان ما به. أو أين ذهب؟.

- ساعة يا حكيم الزمان، ساعة؟! وهل تضمن في هذي الساعة عمرك أنت.

- أستاذ حمزة لا تدع الغضب يعمي بصيرتك .. المسألة ليست بهذه البساطة.. دعنا نعمل ولا

تربكنا... ليست أول مرة أتعرضُ فيها لمثلِ هذا الموقف.. أرجوك اتركني أعمل..

قطاراتُ الغضبِ تنزلقُ من فمي تدهسُ مشاعر الطبيب الصديق. فيخرج غاضباً حانقاً على تدخُّلي بعمله.. خرج وأخذ معه النبطي الواقف بالباب..

هسيس نار يفرُّ من عيني إلى فمي. يلجم كلماتٍ مجنونة تكادُ تلطم كل من هم حولي.. عدتُّ إلى سيد .. صحا من غفوته. وكأنه كان نائماً... شبحُ ابتسامةٍ ساخرة كَسْلى ترتسم على شفتيه..

حيّرني هذا الكائن المؤسطر بالموت! حيرني بموته وصحوه! كأنهُ مصابٌ بطلقةٍ من ماء. أو سهم من سهام كيوبيد!.. هل هي صحوة الموت؟ كما يقال!.. أدركتُ منذ اللحظات الأولى لمجيئه أنه يخبِّئ سَفَراً بعيداً في عينيه المتعبتين وحقيبته السوداء. وأن رحيلاً ما ينتظره في طقس من طقوس صلاته.

وبالتأكيد لن تدرك أي طلقة طائشة اتفاقيته مع الموت وحجم الأدعية التي يتلوها فتحيد المسار عنه، أو يخبو أزيزُها احتراماً لصرير سواكه بين أسنانه.....

دخل محمد النبطي، سألني:

- لماذا أغضبتَ فيصل؟.. ....

- فَوِّر دمي يا رجل..

- ولكنه عمله. اتركه يتصرف بمعرفته.

- أي معرفة يا محمد ؟ أي معرفة ؟ مسحَ الدمّ. ووضع قطناً على

الجرح، وفوقه قليل من الشاش

وتقول لي عمله. أي عمل؟؟

- ماذا تتوقع منه وهو طبيب عام، غير مختص بالجراحة؟

- أتوقّع منه كل شيء! ألا يشق بطون الحوامل ويعمل قيصريات؟ ألا يقتلع الأسنان ويقطع اللّوز ويختن الأولاد. ألا يُجبّر الكسور.. وبعد كل ذلك يعجز عن إخراج طلقة من صدر سيد. آخ لو كنتُ ممرضاً فقط لأخرجت الطلقة بأظافري وأسناني..

- بالله عليك أبا تغلب لا تكبّر المسألة. أنت والدكتور أصدقاء منذ زمن.. وتعرف أنه لا يحب المغامرة. ولا يقدم على عمل إذا لم يكن واثقاً منه. هذي أرواح ناس مو لعبة.

- محمَّد يا نبطي! الرجل يموت بين أيدينا ونحن واقفون عند الباب نتلاطع مثل النسوان؟ وتقول لي أرواح ناس مولعبة. قل لي أين هو الآن ؟ أَلَيْسَ من المفروض أن يكون مع مريضه!؟ شيخ السرب يموت يا محمد..

- لماذا الصراخ؟؟.. إنه يتصل مرة ثالثة يتأكد من ساعة خروجهم. أعتقد أنهم على وصول..

جاءني صوت سيد من الداخل مربوطاً بحبلٍ يجر أنفاسه إلى قاع سحيق: حمزة. يا فجيعة بني حمْدان.. لماذا تصرخ؟ لا تثقل على فيصل.. دعه.. يكفي ما اقتلعنا من حشيش الروح....

تركت محمداً وانتزعت ابتسامة من مكان ما ولصقتها على شفتي مجاراة لجبروت هذا الرجل الممدد على فراش الموت وما تخلى عن مرحه وسخريته وكأني به يسخر من القدر ومن الموت ومن الرصاص... قلت: ماذا؟!. مازلت تعتقد أني فجيعة بني حمدان.. سامحك الله.

- أمزح معك.

- وهل هذا وقته؟

- متى إذاً؟ متى وقته؟ بعد الرحيل ؟ حين لا يعود للأشياء إلا معنى واحد. حمزة لا تقسِ على الدكتور فيصل دعه يقوم بعمله حسب معرفته..

أغمض عينيه وسأل بهدوء:

- أين ممدوح والنبطي وزياد والولد التدمري؟. حمزة ليس مثل الموت يجمع شمل الأصدقاء والأحبة. أين هم؟؟ رد محمد: نحن هنا.. عليك العافية أستاذ سيد..

أراد أن يرد إلا أن الدم غطى صدره وكان ينز من فمه.. قلت لسيد:

- حلفتك بالله أن تصمت . انظر إلى جرحك!

- انظر أنت.! أنا أحمله وأشعر به. إنه ينزف، أليس كذلك؟ ألم تر بحياتك جرحاً ينزف. ألم تدَّعي أنك من سلالةِ فرسانٍ وأبطالٍ بني حمدان؟

- عُدْنا!!

- عدنا والعود أحمد.. صحيح.. أين الأستاذ أحمد؟

- خرج لتوِّه .. اطمَأَنَّ عليكَ وذهبَ يتصل بالبعثة التعليمية..

- حمزة.. في الحقيبة السوداء رقم هاتف صديقي آدم في صنعاء.. اتصل به وأخبره .. انتظر. لحظة.. وضع سبابته على فمه وتابع: تعال إسمعْ !! اسمع خطواتها تهرب مني تضيع في نهاية النفق. تخونني! قلت:

- توكل بالله يا رجل!! من هي؟!

- ذاكرتي

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. على كلٍّ، هي تتصرف مع الجميع بهذا الشكل.

- ولكني أحتاجها الآن.. الآن يا حمزة.

- انتظر.. عليك الانتظار فكل ما تحتاجه الذاكرة هو كثير من الإنتظار وكثير من الألم. دقائق ويأتي الطبيب. يقتلع الرصاصة، فتعود

إليك ذاكرتك.

- هي ليست ذاكرة.. إنها انثى لعوب، أنا لا أثق بها كثيراً .. تصوَّر .. تدير ظهرها في الوقت الذي أحس أنها أضحت أثمن ما أملك..

- لا عليك يا صديقي .. دواؤهن التناسي .. تناسَ أن لك ذاكره .. فقط استرخِ ونم. وينتهي كل شيء..

- ينتهي كل شيء.. نعم.. آن للسفينة أن تغرق!! ثقب رصاصة كاف لجعلها تغرق... حمزة... إنها اللحظات.......... الـ... أخيرة؟

- كل لحظة يمكن أن تكون الأخيرة، دون أن نصاب برصاصة طائشة.

شد على يدي وهمس بثقة:

- آن للفارس أن يترجل.. حمزة هل تستطيع النوم وفي قلبك رصاصة؟!

- نحمد الله أنها ليست في القلب..

- وما أدراك أنها ليست في القلب؟.. أما سمعت فيصل؟

- كثيرة هي الأشياء التي في القلب، ولا ندري عنها شيئاً.

- ألا تدرك يا حمزة أن من هم في مثل حالتي الآن.. تتكشف لهم الرؤيا، ويدركون ما لا تدركه أنت وصحبك..

وضعت يدي على جبينه، لم يكن محموماً. أعتقد أن كمية الدم بدأت تقلُّ في الدماغ، فجبينه بارد ويداه كذلك. التفت إلى محمد الواقف بالباب، وطلبتُ منه أن ينده على فيصل، فالرجل دخل برزخ الهذيان. ولفّه ضبابُ اللاعودة. أخذ يهذي بصوت غير مفهوم، أرحت يدي بلطف على جبينه وهمست: أستاذ سيد أرجوك أن تهدأ، الكلامُ يزيد النزف.

- دعه ينزف.. دعه يزيد النزف.. علّه يعيد العاهرة الهاربة. تحن وتعود.. تصوَّر... أحاولُ استحضار وجوه من أحب.. فلا أستطيع.. حمزة.

لم لا ترسل لجدك أبي فراس الحمداني. علّه يجتث رأس هذه السّاقطة..
آآه.. - امتلأت عيناه بالدمع - أبحثُ عن ملامح أمي وأخوتي..
وعائشة... عائشة.. هل تصف لي عائشة يا حمزة.... وصفتها لك ذات يوم..
ولون الفرح في وجه ولدي جمار القلب.. ابن العاشرة ما عدت أذكره..
عمره الآن بعمر عائشة حين عانقتني في المطار.. أشتاقهم يآ.. آه .. ألم
فظيع في رأسي.. أشتاااقهم .. من يخبرهم... بموتي ؟.. ليس أنت يا حمزة..
ليتك تكون، إن ما يؤلمني أشدُّ من الرصاصة هو أني سأموت في أرض
غريبة، بعيداً عن وطني الصغير أم درمان الفاتنة. هل تذكر؟ حدثتك
عنها.. تلك التي لا تفتح .. ألم فظيع برأسي...

كان الغضبُ يسيطرُ عليه أكثر من الألم. همست له:

- أستاذ سيد. / الصقور لا يهمها أين تموت.. الغزلان هي التي
تحب أن تموت عند أهلها / ألا تذكر هذا الكلام للراحل غسان
كنفاني، قرأناه سوية في نهاية قصته " الصقر " .

- لا تنبش الطمي يا أبا تغلب، ما عدت أذكر.. أوصدت أبوابي
كلها.. أنظر إلى الجرح، إنه ينزف. أريد لذاكرتي أن تنزف مثله. أريد
لهذه السافلة أن تتوقف عن الخيانة..

ضربَ بجمع يده وجه الميدوزا فوق صدره، آذى نفسه وتطاير رذاذ
الدم على وجهه.. عضّ شفته من الألم. ثم تابع:

- وعن هذه الميدوزا اللعينة التي تنهش بجسدي وروحي. منذ
عشرين عاماً وهي تلتهمُ ذاكرتي.. عشرون عاماً وهي أنثاي في غربتي
ولحافي الذي يلتصق بجسدي ما خِنتها لحظة، ولكنها خانتني في أول
غفلة مني، أنشبَتْ أظفارَها في قلبي. حمزة. شيءٌ ما يتحرك في صدري..

- لا تخفْ هي الرصاصة تبحث عن مكان تستقر فيه.

أردتُ المداعبة ورسم ابتسامة على شفتيه.. وهي أشبه بعود حطب
ترميه لغريق وأنت مدرك أن لا فائدة مما تفعل. لكنه شَرِقَ بكلمةٍ أراد
أن يقولها فنشبتْ في حلقهِ.. أصابعهُ تشنَّجت وهي تمسك بيدي.. سبابته

ارتفعت.. شفتاه رجفت بالشهادة. ارتمت السبابة. شهق إثرها شهقة عظيمة، شعرتُ فيها أن روحه تلاطمت على جدران قلبه ورئتيه ثم انتزعتها يدٌ عملاقة من جذورها.. رافقها سعال قذفَ معه الدم، تناثرَ على عنقهِ وغطّى لحافهُ. وتناثر على قميصي ويدي. تصاعدَ السعالُ وازدادَ النزفُ من الجرح. انتفضَ جسدهُ.. ثم جمدت عيناه... شخر بقوة ثم همدْ. أرعبني ذلك المشهد.. ركضت نحو الباب وبكلِّ أصواتِ الذين أحبهم، وبأعلى صوتي صرختُ: فيصاآآآآآآ ا ا ا ل!!

كأني بصراخي أُحمّل فيصلاً ذنباً ما اقترفته يداه! اندفعَ محمد وزياد وممدوح إلى قلب الغرفة وجدوه هامداً يغرق في دمه، جاحظة عيناه وفمه.... توقف قلبه، روحه أخذت تهيم في المكان فوق مكتبتين وسريرين وشبّاك بحجم الضوء النافذ قلوب الأحبة، وكرسي خشبي وحيد يجاور رسماً بالفحم على الجدار... جاء شريط اللحظات الجميلة أمام عيني.. وما جاء فيصل! لكن جاءت سيارة صعده..

وصل الإسعاف السريع.. دخل الدكتور محمد زكي العجاج مسرعاً يرافقه فريق طبي عالي المستوى.. يصحب في السيارة أرقى الأجهزة الطبية و.. دخل فيصل.. تبعه الحوثي يرافقه رئيس المخفر وغفير نحيف يحمل دفتراً جلده سميك، لونه أسود. لماذا معظم الأشياء البيضاء غلافها أسود؟!.. نظرت إلى عيني سيد بياضهما أخافني. انحنيت قبّلته على جبينه، وبأصابع كأوراق الخريف ترتجف أسبلت جفنيه .. لكن ما زال بياضُ عينيه يغطي المكان، لحافه، جدران الغرفة، اللوحات المعلقة، مرآته، مظلته السوداء المعلقة. وكل ما في المكان، غدا لونه أبيض. تركتهم يكتبون الضبط بالواقعة.

فلتهنأ يا سالم جاءك ابن عمك سيد، أصر أن يموت ميتة مشرفة. هو أيضاً اغتالوه عن غير عمد.. يسجلونها الآن في الضبط / ضد مجهول/. الأدلة غير كافية. سالم.. سيد قادم إليك يا ابن عمه، واحدة بواحدة، أنت تركتَ أخته سميه قتيلاً في غربتك. وسيد ترك أختك

عائشة قتيلاً في غربته.. وأم سيد تركتكما قتيلين في غربتها عنكما.

و.. أيقظني من شرودي رئيس المخفر: أستاذ حمزة لو سمحت وقّع هنا

- علام أوقّع.. وعلى أي شيء؟!

- أنت الشاهد الأخير على وفاة الأستاذ سيد.. وعلى استلام الجثة..) الجثة؟ ما أبرد أعصابكم يا كتبة الضبوط. غدا اسم سيد عثمان الغانم في سجلاتكم " الجثة ".... شكراً لكم على كل حال، فأنتم خير من يضع للأشياء نهايات محترمة، قانونية تستحق التقدير... اقترب مني الدكتور محمد زكي العجاج وواساني: البقاء لله. يسلم الدين والإيمان..... ثم احتضنني وبكى، لم أحتمل. بكيت... بكيت كما النساء وانتحبت كما الأطفال. كان زكي من ريف الرقة صديقاً لعبد القادر أبو المعتز وصديقاً لي. تقدّم ببطء، سحب اللحاف حتى عمامته، غيّبه كاملاً تحت لحافه.. غاب سيد.. وداعاً سيد..

همس الأستاذ أحمد: سنأخذه إلى صنعاء.. تنزل معنا أستاذ حمزة..؟

- طبعاً ، طبعاً.. لحظات وأكون جاهزاً للسفر معه. معكم..

دخل سرب الإوز، ما استطاعوا أول الأمر حمله ووضعه فوق النقالة، أثقلهم البكاء والألم. ساعدهم زكي وفيصل في حمله إلى النقالة.. تلمسته بأصابعي مودعاً دمه. لم يزل دافئاً يفيض. هيا يا سيد ما جرى قد جرى.. يكفينا اليوم ما اقتلعنا من حشيش الروح.. فقد منحك الموت بردَ الحجر. فامنحني غياب النهار.

حملوه إلى السيارة. أدرتُ وجهي تجاه النافذة، اصطدمتْ قطعُ البللورِ المتراكمة في عينيّ بدموع الأطفال. أعدت وجهي، انتبهتُ إلى عيني زياد والنبطي وممدوح وأبو سريع وحتى عبدو فما كانت أقل حالاً من عينيَّ. حمراء تغرق بجمر ذائب. نواف الولد التدمري كما يسميه سيد، أقصد كان يسميه سيد، وقف مستنداً إلى الباب ينتحب بصمت.. لا ليس بصمت. نحيبه ملأ المكان. تيبستْ أجفاني. وتحجَّر قلبي.. قِطَعُ البللور في عيني عيّت النزول. تكسَّرت في تجويف حلقي.

خنقتني العبرات وغاض قلبي وأنا أنظر إلى جثته تغيب عن عيني. يغطيه اللحاف المدمّى . نظرت إلى عينيه في رسمه على الجدار.. غاب فيهما لون الزيتون.. سيد « إنهم يقطعون دجلة الآن إلى نصفين.. نصف للدم، ونصف للنخيل.. والدم غفارة، لأن النخيل سيبقى ». هكذا يقول صديقنا وليد. صاحب المطر.

سيد. أيها الطين المسافر.. نم.. ودع غيرك ينام .

لملمت بعض الأشياء، وضعت قلم الفحم بجيبي ورتبت سريري على عجل وأعطيت مفتاح الغرفة لزياد وركبت جوار الدكتور العجاج في سيارة الإسعاف، ما إن أدار السائق المحرك، حتى صدح صوت فيروز من الراديو: ودّعني طيرٌ وقال إلى بلادي أمضي... غاب نهاااا رٌ آخر..... وكبر السؤال.... غاب نهار آخر.... نهاااارٌ آخر .. أنا وظل الحور والخريف..... ويبعدُ الرصيف..... يمعن في الفراغ والغبار..... غاب نهار آخر..

***

- 2 -

في صنعاء أدخلوه المشفى التخصصي، ونُقلتْ جثته إلى المشرحة، اقترب مني موظف الأمانات وقال: - تفضل أستاذ هذه حاجيات زميلك. وقّع هنا لو سمحت...) وقّعتُ واستلمت كيساً أسود، وعلى كرسي في صالة الانتظار فردتُ الأشياء. دفتر إقامته الأخضر وخاتمه الفضة وعشر ريالات ورقة واحدة. وريال معدني. وعمامة ملطخة بالدم، وسواك ورسالة بخط يده إلى زوجه عائشة، على الأرجح كتبها اليوم قبل صلاة الفجر وما أكملها على أمل أن ينهيها بعد أن يصل السكن. وفي أسفل الكيس كان اللحاف. تركته على حاله ووضعت العمامة فوقه، أما الخاتم والرسالة والفلوس والسواك وضعتها في جيبي لحين أضعها داخل النعش..لم تمض دقائق حتى جاءني الدكتور زكي العجاج وقال: (أخرجنا الرصاصة من صدره. خذ أبقها معك.. على الأغلب أنه لم يمت منها، اتصلت بعبد القادر، قال إنه آت. أستاذ حمزة. مندوب البعثة السودانية والمسؤول الأمني في السفارة ومندوب من وزارة التربية، كلهم في الداخل. يرتبون أمر الترحيل بالطائرة. قلت للدكتور العجاج:

- دكتور زكي. لقد حمّلني الأستاذ سيد أمانة.. لذا أرجو منك أن تساعدني على تنفيذها.

- أبا تغلب، السفارة السودانية استلمت الجثة، تستطيع التفاهم معهم في هذا الأمر... لحظة..

وغادرني إلى مجموعة من السودانيين خرجوا لتوهم من حجرة مدير المشفى، أظنه تحدث إليهم عني، ثم جاء معهم إلي. عرّفني إليهم. قال أولهم :

- نشكر اهتمامك أستاذ حمزة.. ولك أن تتصرف بالأمانة حسبما طلب منك المرحوم. تحب أن نرسلها في مغلف مع النعش؟..

- ليس الأمر على هذا النحو.. فقط أردت أن أشاركم وضعه في التابوت، وأن يكون كفنه عمامته كما أراد.. ثم أضع بعض الأشياء البسيطة في تابوته.. لو سمحتم..

نظر الأول إلى الآخرين.. هزّوا رؤوسهم بالموافقة، وضع يده على كتفي وقال:

- لك ذلك أستاذ حمزة. مساء اليوم الجمعة في العاشرة تماماً هناك طائرة مغادرة إلى أم درمان سننهي الإجراءات بأسرع ما يمكن علّنا نستطيع إرساله فيها. وحتى ذلك الوقت لك حرية التصرف.

ثم غادروا المشفى وبقيتُ وحدي. حملت الكيس وخرجت. سألني الدكتور زكي عن وجهتي؟. قلت: معي اللحاف والعمامة آخذهما إلى المصبغة، غسيل وكوي..

قلب شفته وما نطق.. خرجت من المشفى ضيّق الصدر، اشتريت حزمة قات من بائع جوال. اعتقد البائع من خلال انتقائي لنوع من القات أني ما زلتَ حديث العهد به. أجلسني جواره، أمسك ورقة خضراء من الحزمة وعلّمني كيف أتناولها.. وطلب مني أن أتكيف مع البيئة اليمنية لأدرك قيمة الأشياء التي حولي، وأن أنسى غربتي وأعتاد أسوأ الأمور. والقات الذي اشتريته، شعبي ورخيص ولكن لا بأس به لمبتدئ مثلي. أخرجت نقوداً لأمنحه ثمن الحزمة لكنه رفض وقال اعتبرها هدية من عمّك.. ألححت ثانية في الدفع، إلا أنه طبطب على كتفي قائلاً:

- تعوَّد ألا تردّ يمنياً عن كرمه، الناس هنا طيبون وكرماء يا ولدي. ولا يعجبهم في هذا الوقت بالذات منظر الرجل بلا قات. وقت المقيل والتقويت.. وأخذ يحدثني عن أهمية القات " التاريخية ":

القات ينشّط الدماغ ويجعله في أشد حالاته من اليقظة والحذر،

ويشحذ القدرة على المحاورة والمذاكرة. هل تعلم أن أغلب قرارات الحكومة تؤخذ في جلسات القات. صحيح أنه يمنح الجسد خدراً لذيذاً، لكنه لا يؤذيه، يسري كرمالٍ محرقة تدبُّ نحو أطراف الأصابع فتلهبها، تمنحُها رشاقةً وخفةً وانتشاء تجعلك تنهي عملك دون كلل أو ملل، يجافيك النوم ليومينِ متواصلين أو ثلاثة دون نعس أو إرهاق. ويزيد حكمة الشيوخ وجبروت الساسة) .

***

اليوم التاسع..

- 1 -

بعد رحيل سيد، سارعت بنقلي إلى صنعاء وأكملت ذاك العام الدراسي كيفما اتفق. وعدت إلى الوطن، عاد معي زياد الذي شاءت الأقدار أن يلتقي بحسنائه الضائعة في مصادفة غريبة. في بلد محايد. وعاد زياد العاشق ابن العشرين وكأنه ما كبر يوماً.. أما في حوث فبقي من بقي.. بعضهم ظل عامين أو ثلاثة.. ولكن ما تجاوز بقاءهم أصابع اليد الواحدة. ما انقطعت علاقتي بالأستاذ أحمد.. وخلال العشرين التي مرت تعاطفتُ مع أحداث وكرهت أحداثاً. استقلّت دول واحتُلت دول.. كنت أرى من حولي جثثاً أنيقة دائمة الحركة لا تهدأ. وأدركت منذ موت سيد وموت كثيرين أعرفهم أن ثمة عبثاً تتوارثه الأجيال. وثمة فكرة تتناقلها بالجينات مفادها أن اللاعمل هو الموت الحقيقي.. وأن تنتظر الموت هادئاً بريئاً صاغراً خالياً من الفعل والحركة هو الموت الأشد إيلاماً..

كان سيد قد حدثني عن سلالة تدعى البانطو وهي إحدى السلالتين الكبيرتين التي ينتمي إليها معظم شعوب أفريقيا. وأنهم هم سكان أفريقيا الأصليون وأن السودانيين السلالة الثانية قد نزحوا إليها من آسية في غابر العصور. ويكثر البانطو جنوب خط الاستواء، على

حين يكثر السودانيون شماله. ويتميز البانطو بقصر القامة واتساع الأنوف واكتناز الشفاه واستطالة الرؤوس في حين يتميز السودانيون بالطول واستقامة الأنوف واستدارة الرؤوس. على أن السلالتين قد امتزجتا في أقطار شتى وبخاصة في المنطقة الاستوائية.

ووقع ذات يوم بيدي كتاب ممتع عنوانه / دراسات في الفن / للفنان المصري الراحل رمسيس يونان، جمعها وقدّم لها لويس عوض.. وجدت فيه بحثاً يتحدث عن فلسفة البانطو وكم كانت دهشتي عظيمة حين اكتشفت أن حكمة سيد ومفاهيمه الفلسفية كانت قريبة من حكمة وفلسفة أهل البانطو! وما أدهشني أكثر ما قرأته في مقدمة الكتاب للدكتور لويس عوض أن الفنان رمسيس مات عن ثلاثة وخمسين عاماً، وهو ذات العمر لسيد.. ولسيف الدولة.. مصادفة!.

وفي أحد الأيام التقيت بصديقي عبد القادر أبو المعتز.. وأخذنا نقلّب الأيام الخوالي وكان ترك السفارة بعد سفري بعامين أو ثلاثة ماعدت أذكر. سألته:

- ما هي أخبار الدكتور محمد زكي العجاج. هل عاد معك أم بقي في اليمن.؟

- .....

- أبو المعتز ما بك؟ هل أصابه مكروه؟

- أعطاك عمره.. مات بحادث سيارة في ذات اليوم الذي كان سيغادر فيه إلى الوطن..كان ذلك بعد ثلاث سنوات من رحيل سيد..

- .... لكنه غادر إلى الوطن كما غادر سيد. هل كنت معه في لحظاته الأخيرة.

- كنت.. في لحظاته.الـ . حمزة أراك بخير.... لقد أقفلت قلبي بأقفال من جمر..

(الله يا هالوطن شمسوّي بيا الله..)...إحدى جُمل زياد الأثيرة.. شاهد

أثير على ما يفعله حب الوطن بنا وحب العودة إليه.. مرت سنوات العمر عجافاً وتراكضت مثل هلوسات ريح....

وبالمصادفة أيضاً أكون صبيحة هذا اليوم الثلاثاء 31/10/ 2006 ..مع وفد ثقافي متجه إلى اليمن ذات التاريخ الذي قتل فيه سيد قبل عشرين عاماً.. وصلنا العاصمة صنعاء في العاشرة والنصف صباحاً.. وفي صالة المطار بعد أن استلمنا حقائبنا وقبل أن نخرج اقترب منا رجل من جمارك المطار ألقى التحية ومد يده ليصافحني.. صافحته وأنا في استغراب من أمره.. لم يصافح الباقين من الوفد اكتفى بالسلام.. سألته:

- عفواً هل أعرفك؟ هل أنت من حوث؟

- ولو أستاذ حمزة.. أنا سيف القمّلي..

- آ.. بالضبط.. نعم نعم أنت سيف.. أحد فرسان حوث الأشاوس الذين ساعدوا المرحوم في عفشه..

- هل من خدمة أؤديها لك أو لزملائك..

- بارك الله فيك يا سيف.. شكراً لك.. قد نحتاجك في العودة..

أصبحنا خارج المطار.. ابتعدت قليلاً عن الوفد.. اتصلت بهاتفي الجوال بالأستاذ أحمد الحوثي، فرح بقدومي وأعلمني أنه ليس في صنعاء الآن بل في حوث وطلب مني المجيء حالاً، فثمة مفاجأة جميلة تنتظرني في غرفتي في سكن المدرسين! وإن تأخرت سترحل المفاجأة قبل المغيب..

طلبت من رئيس الوفد السيد خلف../ نعم خلف ذاك الشاب الذي أنقذ ذات يوم من أيام مريبط أخي مروان من الغرق.. لم ينس الحادثة هو أيضاً.. قال لي مازحاً ونحن في الطائرة: أخبر أخاك مروان (أبو وردة).. أنه مدين لي بحياته.. / طلبت منه أن يسمح لي بساعة من الزمن أزور فيها أصدقاء لي في ريف صنعاء. وافق وذكّرني بزيارة الوفد لضريح

الشاعر البردوني في الخامسة أكدّت له أني لن أتأخر عن الموعد فأنا أعرف المنطقة جيداً.

أخذتُ الحافلة الصاعدة من صنعاء إلى صعده. وعند مفرق حوث نزلت. نظرت إلى يمين الطريق حيث بيت الحوثي في الطرف الغربي من حوث. لكني ساقيَّ ساقتاني مباشرة إلى سكن المدرسين، تجاوزت الصيدلية التي لم تعد الوحيدة ولم يكن فيها الشيخ عبدو بالتأكيد. كنت أعرف الدرب جيداً كما أعرف راحة يدي.. لم تتغير حوث كثيراً. تجاوزتُ براكية أبي طلال وسور السكن ثم دخلت البهو.. شيء ما عض قلبي ونهشه.. هنا كانت غيمة بيضاء تتمدد تنزف دماً بلون الجمر.. هنا..... ما بال قلبي يتساقط بين قدمي. اقتربت أكثر.. كان الباب مواربا كعادته.. دفعته بهدوء ودخلت. لعل سيد يعد القهوة بعد رياضته الصباحية..

يا إلهي؟؟

فاجأني بسمرته الغامقة وبياض عينيه وأسنانه المتراصة، كان جالساً على السرير مسنداً ظهره للشمس والريح قبالة الباب وهو ذات السرير الذي كنت أنام عليه قبل عشرين عاماً... أظنه يكتب رسائل ليست لأحد. أو لامرأة سمراء مفعمة بالسحر وتعاويذ الخلود...

لهفةُ عينيه أبعدتْ عني الحذر، رفع رأسه ليتأملَ وجهيَ المنحوتِ بإتقان.

استأذنتُ ودخلت. اقتعدتُ كرسياً خشبياً جررته من تحت الطاولة، رميت بجانبي حقيبة سوداءَ هي غالباً للاستخدام الشخصي. حييته تحية مختصرة :

- مرحباً.. أردتها تحية تدل على تعب ونفاذ صبر.. رد بذهول:

- مرحباً. ترك رده أثراً عميقاً في نفسي... تأملتهُ ملياً، كان قد تجاوز الثلاثين بعينين جميلتين مفعمتين بالحيوية. وجلابية بيضاء نظيفة، وعمامة تضيق بها رأسه المربعة. يصغرني بعشرين عاماً على

الأكثر، ملامحه مشغولة بحرفية إلهية عاليةِ الجودة لا ترقى إليها يدُ مخلوق، تسكن في مكان ما من ذاكرتي، أعلم تماماً أين ومتى وكيف.

كنتُ أشبه بمقدمة طائرة حطت لتوها أرض المطار وبداخلها نعش من ثلج ولحاف. غالبت البكاء، أسندت مرفقيَّ إلى الطاولة ووجهي بين يدي، حككتُ لحيتي الشيباء، قلت أقدم نفسي وقال معي بهدوء: حمزة الحمْداني من شرق المتوسط، أحد رعايا مدينة نسيها الرشيد على شاطئ الفرات. تابع ورموش عينيه سهام تكاد تجرح ملامح وجهي:

- أعرفك يا عمِّ حمزة. أعرفك جيداً.. تُدمن الشاي البارد والتدخين وتموج بامرأة بلونِ السنابل غنوج، تصبو إليها الأحلام ويرنو إليها الجمال.

كان صوته بطيئاً يختلطُ بحروفٍ أثقلها المطر، أرصفة عينيه احترقت بملحٍ وماء. أخرجَ من جيبه صورة، تلكَ التي التقطها والده سيد لنا مع رسمه بالفحم على الجدار.

حمحمة حصانٍ فرحٍ أسمعها تتخلل أصابع جُمَّار القلب. ألمحُ بريق الزيتونِ يشعُّ من أطراف الصورة، لعينين متعبتين تجاوزتا منتصف العمر بقلب حزين. ما احتملتُ أكثر، نهضتُ واحتضنتهُ وشممتُ عطر أبيه. قبلت رأسه وعينيه. قلت:

- كيف أنت يا ولدي؟ فيك شبه كبير من أبيك... تتميز بذات العينين وذات الجبهة المفكرة. كيف هي أمك عائشة وعمك رحيّم وعمك محسن، وعماتك سمية ونجلاء وأسماء؟

ابتسم جمار لاشتعال ذاكرتي بعد كل هذا الزمن.. قال: الجميع بخير...

دانتْ مني التفافةُ الواثقِ إلى ذات السرير، فراشٌ ولحاف مضبوبان مربوطان كما لو أن صاحبهما مهيأٌ للرحيل. من قال إن التاريخ لا يعيد نفسه؟ أواه يا حزنَ الأيام الخوالي. عشرون عاماً مضت أعود بعدها إلى

حوث وما زال رأس الميدوزا يطل من تحت اللحاف! من كان يظن ذلك؟

مضت دقائق.. وتلتها أخرى.. تحممت بعطر المكان وتنشفت بنور الذكريات ،

- أستاذ حمزة، حدثني كيف مات أبي؟ فلدي أيضاً ما أحدثك به.

انتبهت إلى صوت جمار القلب، فاجأني السؤال ومازلت أمسك بيديه وقد لامست أصابعي خاتماً من الفضة أعرفه جيداً، قلت متحسراً:

- لِمَ تعاود اقتلاع حشيش الروح يا ابن أخي؟ ماتت شواطئ وتوالدت أخرى، فشواطئُ الشامِ محاصرةٌ بالغرباء، لكنها ما زالت تتسع لكلِّ سفن الأحبة، والمطارح في القلب ضاقت مرابعها، لكنه مازالَ يرتعُ بجنونِ العشقِ والرسم والقصيدة. وما زال من حقِّ السفان أن يختار شاطئاً يليق به، ولكن في غير وطنه. جُمَّارُ القلب يا ولدي ما جئتُ لأقيم هنا. سفني ما عادت تحملني إلى أرض غير أرضي.

- ما عدت تعمل ملاحاً في سفن الغير؟

- كسرتُ عصا الملاحة وهجرت الموانئ كلها وغدوت بحكم الميت . أقصد بحكم المستقيل.. جمار القلب.. حدثني يا ابن أخي عن رسائل أبيك؟..

- بعد نقله من صعده إلى حوث كان يكتب لنا في كل يوم رسالة. كتب سبعَ رسائل. والثامنة التي أرسلتها "حضرتك" مع نعشه. كان يكتب عنك كما لو كنتَ خارجاً من ملحمة إغريقية. أحببناك وغدونا نعرفكَ، كأنك تعيش بيننا. كتب لنا عن كل ما دار بينكما وما يدور حولكما.. حتى حين غضب منك وشدّك من تلابيب صدرك.. وعن سهراتكم النبطية.... إلا عن موته ومرضه لم يكتب... قلت: من أخبركم عن مرضه؟

- صديق له في صنعاء اسمه آدم جاء مع النعش... نعشه كانَ الرسالةَ التاسعة... بصراحة، تلهفنا للقائك بين القادمين مع النعش. أمي وأنا وأعمامي، كنا بانتظارك! ولكن ماتت اللهفة في عيوننا بعد أن رأينا آخر النازلين من سلم الطائرة؟ كانت أمي عائشة تريد أن تراك، تسمع منك عن آخر لحظات أبي، وعن آخر كلماته... وصاياه، أحلامه، قلم الفحم والسواك اللذان وجدناهما في قبضة يده!، عمامته التي كانت كفنه المعطَّر بعطرٍ تعشقهُ أمي كثيراً، وانتبهت أمي للحَرْفينِ المنقوشينِ بالأزرق في ركنهِ الأيمن. لا بد أنك أظهرتهما عمداً في مكان بارز.. ولحافه الذي أدهش كبارَ المنتظرين في قاعة الاستقبال يلفُّ النعش. حينها أدركوا أن الأعلام والرايات تلفُّ نعشَ من يموتونَ وهم داخل الوطن فقط. أما الذين يموتون في الغربة والوطن بداخلهم، لهم راياتهم الخاصة، تلتصق طوال العمر بأجسادهم.... أدركتْ أمي أن ليس لسفارتنا يد في كل ذلك. بل هي لمساتك أنت يا عم حمزة، أنت من وضع العطر على الكفن والرسالة واللحاف والسواك.. بصراحة أكثر يا عم أبو تغلب، توقعنا زيارتكَ بعد عامٍ أو عامين أو حتى بعد عشرة ؟ ولكن مضت السنون وعطر أبي مازال يغطي مقبرة العائلة، بل يغطي عشقه الأزلي، أم درمان كلها.

- على رسلك يا جمّار القلب. ما عدت أحتمل؟ أثقلت علي.

ما من شيء كان ليوقف جمار القلب عن تدفقه في الحديث عن أبيه من خلال رسائله أو من حديثٍ سمعه عن أمه وعما لمسه هو في طفولته من أبيه. تابع قائلاً:

- كحنين النوق حنّت أمي إلى آخر الأشياء التي لمستها يدا أبي ورأتها عيناه. في آخر رسالة كتبها وكانت مع نعشه، تشممتها والدتي كعادتها مع كل رسائله. كان يضع رحمه الله دفقة من عطره على جانب الرسالة. كتبَ جملةً فيها، ذكرتني بها أمي بعد سنوات، كنت قد أنهيتُ دراستي في لندن وعدتُ من ذات الجامعة التي درس فيها أبي

وخالي الزير عليهما رحمة الله، حين سألتُها ألم يأت العم حمزة في غيبتي؟ ابتسمَتْ حينها وقالت ألا تذكر الجملة التي كتبها أبوك في آخر مكاتيبه: (إذا لم تصلك السفينة حاول أن تسبح إليها). كانت دعوة صريحة من أمي لرؤيتك،

- لرؤيتي؟.. كيف

- كان عندها أمل أنك ستزور اليمن يوماً. فقررت المجيء. وكان والدي قد حدّثنا عن الأستاذ أحمد ونبله ومروءته.. وعلى هذا قررنا المجيء.. سبقت أمي.. أنا هنا منذ ثلاث سنوات..

فتحتُ فمي، ما عادت تتساقط الكلمات منه حين أدهش، سألته:

- تقول قررنا المجيء.. تقصد. أن عائشة هنا؟ عفواً أقصد السيدة عائشة؟

- نعم يا عم حمزة هي هنا في حوث، لحقتني بداية هذا العام. استأجرتُ لها بيتاً جوار بيت الأستاذ أحمد الحوثي. والأصح هو من آمنه ولا يقبل أجراً عن سكنها فيه.. تزورني كل يوم.

- هل تدرّس مادة اللغة الانجليزية؟

ضحك وقال: التربية الانجليزية.. لقد تعاقدتُ مع وزارة التربية وجاء تعييني في صنعاء إلا أنني طلبت منطقة حوث بالذات، وأرسلت لأمي وجاءت بعد أن قامت بالعمرة إلى بيت الله الحرام. لكنها ترغب في السفر إلى أم درمان قبل المغيب.. فقد حجزت لها بطائرة اليوم..

لماذا تتراقص العصافيرُ فرحةً فوقَ سطحِ الذاكرة؟ تنقُر الحَب من على ضفاف النعشِ الممتد بين حواف سريري وسريرك يا سيد؟. لماذا يركضُ أرنبٌ بريٌ في وهادِ قلبي؟ وتقف يمامتان على حافة النافذة، تأتلقان بضوء النهار؟ قليلاً من الضوء. الضوء يا حمزة أول الأشياء وآخرها! كلماتك الأخيرة يا سيد.

أواهُ.. أثقلتني السنون. اقتربتُ من عمرِ سيف الدولة وعمرك يا

سيد، رغبت برؤية عائشة وأنا في الثلاثين حين حدثتني عنها وهي ابنة العشرين، فرساً حرون. امرأة تسامق النخل طولاً وجمالاً. أما الآن فأنا أُشاطئُ الخمسينَ. فهل مازالتْ عائشة تشارفُ العشرين؟ أم أنها تقف على الضفة الأخرى من عامها الستين، نخلة شامخة؟

- عم حمزة! أمي ما زالت تسامق النخل طولاً وجمالاً... رغم أنها تجاوزت الستين بعامين..

- لحوووووووو ل..

هل تسمع يا أناي.. أقسم أني ما فتحت فمي.. كنت أهجس بـ....

- أستاذ حمزة أمي في انتظارك؟

أي قدَرٍ هذا الذي أعادني بعد عشرين عاماً إلى أرض اليمن؟ إلى حوث أم الرجال المتطرفين والبنادق والمهربين؟ أينكم يا أبطال حوث الأشاوس؟ أطفالاً تختلسون النظرة الأخيرة على جسد أستاذكم العملاق المسجّى! تعالوا فعائشة وجمار القلب هنا. هل كبرتم؟ وأنتَ يا أبا جرّاح يا أصغر الثلاثة، ألم تقل أنك حين تكبر ستقتلهم بالبندقية حقك؟ أين أنت؟ كيف غدوت؟ رأيت صاحبك سيف القمّلي موظفاً في جمارك المطار..وأنت هل قتلتَ أحداً من المهربين يا أصغر الأبطال ؟ أمْ أصبحتَ مهرباً مثلهم؟؟

أُواهُ يا زمن؟

صوت جمار القلب.. يخترق جدار القلب ثانية: أستاذ حمزة، هل نذهب؟ أمي تنتظرنا!

- ما أدراكما بقدومي..

- الأستاذ أحمد من أخبرنا.. كانت هنا حين أعلمنا بذلك.. أدركتْ أنك ستأتي إلى هنا أولاً.. وأخبرتني.. أن أطلب منك المجيء إلى بيت الأستاذ أحمد..

أي حصان سيحملني إليكِ يا طروادة! أي ريحٍ ستأخذني إليكِ يا

عائشة؟

كان جمار القلب يفكُّ إسار اللحاف. طواهُ كراية أُنزلت عن سارية سفينة أرغمت على الاستسلام. ثم وضعه في كيسٍ أسود وكأنه يعلن حِداداً ما! سألته:

- ما الذي تفعله يا جمار القلب؟

- أوامر الوالدة، قالت ما إن يأتي الأستاذ حمزة.. ضع اللحاف في كيس وتعال معه.

ما الذي تريده بينيلوبه (رمز الوفاء الزوجي بين زوجات أبطال طروادة) بنسيج الكفن الذي تحيكه لوالد أوليس وخطّابها ينتظرون بالباب؟ هل ما زالت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار؟ تنتظر عودة أوليس لعله يأتي في غفلة من الزمن؟ يعيد الأمور إلى نصابها، فلقد نبتت لحية ابنه تليماك وغدا رجلاً...

خرجنا من سكن المدرسين. لم أصطدم بأبي سريع ولم أشاكس عبدو. ولم ألتق بزياد ونواف.. ولم....

... طلبت من تليماك أقصد جمّارِ القلب أن نمرّ على براكيةٍ قريبة نشتري منها علبة تبغ.

قال: براكية العم ممدوح أبو طلال؟ صاحب الريحانات.

- هو ذاك، هو ذاك، يا صديقي.

- هل تحزر أنه مازال يحتفظ بطرَّاحةِ أبي التي جلس عليها خلال السهرة النبطية؟

ويلك يا زمن؟ ماذا فعلتُ لك حتى تنكأ جراحي بهذه القسوة ؟ المرأة التي اشترت سطل لبن ذات مساء ما زالت تقف بباب براكية أبي طلال. ندهتُ بأعلى صوتي:

- أنت يا صاحب البراكية. أين ريحاناتك؟

أطل ممدوح من وراء الواجهة برأس أشيب.... إيه يا زمن؟ ما الذي

فعلته بأبي طلال؟ تضخمتْ أوصاله! وابيضَّ فوداه وكبُرَ كرشه واسودت أرصفة عينيه. بدا أقصر مما كان. وأهيب وأجمل مما كان.! تعانقنا وبكينا. عانقني أكثر من مرة وهو غير مصدِّق أنه رآني؟ أردت تقديم جمار القلب له. وإذا به يقول: هو صديقي الدائم! ابن المرحوم.. من ريح الغوالي.

أكد جمّار القلب:

- كل يوم أسهر مع العم ممدوح، ولا حديث له إلا عن أيامكم مع أبي. وكأن التاريخ توقف عندها وغادر السجل.

ربّت أبو طلال على كتفي ثم جاء بكرسي القش وفتح لنا علبتي عصير. سألني عشرين سؤالاً دفعة واحدة فأجبته عن سؤال لم يسألني إياه! صوّلنا أيامنا الخوالي كما تصوّل أمهاتنا الحَبَّ في غربالٍ ثقوبه لا تقِلُّ وسعاً عن ثقوب القلب. سألته:

- أبو طلال أين الريحانات.. أراك تضع مكانها أزهار النرجس البري؟

- الريحانات يا أبا تغلب لا تحتمل غياب الأحبة أكثر من عامين أو ثلاثة فتموت. يُغتالُ من روحها الجسد؟... عليك رحمة الله يا أبا جمر علمتنا أن للموت فلسفة خاصة علينا فهمها ومعايشتها وانتظار يوم الحصاد كما لو كان حصاد قمح. ..

أردنا أن نمشي .. لكن أبا طلال أصرَّ على دعوتنا إلى بيته:

- أبو تغلب عليك الله انت وجمار تروحون البيت.. ستفرح غزالة كثيراً بقدومك..

أردت أن أصرخ بوجهه: من؟ أية غزالة!؟؟... احترمت نفسي وآثرت الصمت. لاحظ ممدوح حيرتي. قرأ ما يجول بخاطري.. قال:

- بعد رحيلك أنت وزياد بعامين ظلت غزالة تتردد إلى البراكية لشراء حاجياتها، ووصلني خبر زواجك، حينها قررت التودد إليها،

وخطبتها من أبيها، تزوجنا.. و..

- وأم طلال في الرقة؟ وقصائدك فيها، وأنها حبك الوحيد.و.

- أبقيتها في سورية، طلال أصبح شاباً وكذلك أخوته.. أزورهم كل عام في عطلة الصيف.. لايعلمون شيئاً عن زواجي..

- هل أنجبت من غزالة؟

- لي منها ثلاثة أولاد ذكور. هي منحتهم أسماءهم... الكبير أسمته سيف الدولة.. والثاني أسمته الحارث تيمناً بأبي فراس الحمداني.و..

- أسماء تغلبية... والثالث.. يا أبا سيف الدولة؟

سألته وضمرتُ بقلبي اسمي... لعله الثالث.. قال:

- الثالث أسمته حمزة.. على اسم أبيها! وأدار بصره عني كي لا تفضحه عيناه..

على من أسميتهِ يا غزالة الشيباني؟ على اسمي أم اسم أبيك؟ لا يهم.. لا يهم مادمت بهذا الوفاء العظيم يا ابنة العم.. احتضنتُ أبي طلال وتمنيت له السعادة والهناء مع الفارعة الشيبانية.. واعتذرت عن زيارة بيته بلطف.. لماذا؟ لا أدري.. قد يكون خوفاً من تقلّب المواجع.. فلنذهب يا جمار القلب.. ما عاد القلب يحتمل غصّات أُخر.. قبل أن أغادر سألته عن محمد النبطي.. قال:

- محمد النبطي تزوج من سبأ ابنة الأستاذ أحمد.

- النمس.. يعرف كيف ينبط القصيد الثمين..أين هو؟

- أنجب ولداً وثلاث بنات، هو الآن في صنعاء يعمل في حقل الصحافة.. وافتتح منتدى ثقافياً خاصاً في الأنترنت..

قلت: وهل أسمى ولده... الشيخ عبدو؟

ضحكنا.. ثم ودعناه ومشينا، فبينيلوبه في الانتظار؟ لا بدَّ من الإسراع.

ما تغيّر شيء في حوث! مجرد طيور سوداء تحوم فوق كومة من الأحجار فوق تبة أمام براكية أبي طلال.. معلنة ربما عن موت قادم، تابعنا المسير وتجاوزنا الطريق العام.. اقتربنا من بيت الأستاذ أحمد، نسيت أن أقول إن الحوثي قد غدا وكيل وزارة التربية منذ زمن ولم تنقطع علاقتي به في الرسائل إلا في أعوام قليلة..

وجيب القلب يزداد خفقاناً. ظهر الأستاذ أحمد، تصافحنا بحرارة وشوق، ما تغير فيه سوى أن الشيب غزا لحيته الخفيفة فغدت بيضاء كالثلج. واتسع جبينه وابيضّ شعر رأسه..

دخلنا ذات البهو وما زالت لوحة لفظ الجلالة تتوسط الصالة، صعدنا وجلسنا في ذات الديوانية التي أحسنوا فيها العزاء بوالده. رائحة البخور مازالت تنبعث من الجدران .. للأمكنة رائحة خاصة لا يمكن لنا أن ننساها مهما ابتعدنا أو حاولنا النسيان..

هنا كانت تقف الغزالة حين كنت أرسم السيدة أروى.. وهناك كنت أتأمل اللوحة و.. هنا. سبأ تجيئ بالقهوة .وهنا حمزة الشيباني كان يبتسم و... يكفي يا حمزة الحمداني أنت في زيارة سريعة فأصدقاؤك ينتظرون في صنعاء..

لحظات.. ساعة، لا أدري كم مضى من الوقت حين جاءت عائشة. هيَ هيَ كما توقعتها. رأسها كاد يلامس سقف الباب.. ما انحنت، كانت قادرة على تقدير المسافة بين القلب والسهم. وقفتُ لاستقبالها، كانت امرأة قادمة من حلم، تقطر عطراً من المسك والهيل وكثيراً من الياسمين. عدّلتْ من شالها الأبيض، فاح العطر أكثر وتحرّك قليلٌ من الطمي في ذاكرتي، رمته على ظهرها هناك مكان الجديلة التي كانت تهزج بطفولتها، راودني السؤال فخجلت من ذكره...

يمامة فرَّت وحطّت على شباك غرفتنا. هل مازال اليمام يقف على الشرفات؟

ابتسمتْ سيدة الحزن. وقالت:

- أهلاً بك يا فتى بني حمْدان.

ضحكتُ حتى فاضت عيناي بالدمع. جلستْ سيدة النخيل على كرسي قبالتي. قلتُ لها:

- ما عدتُ فتىً يا سيدة الجمر..

- لكنك ما زلت سيد الكلمات التي لا تشيخ..

سيد الكلمات!. ما بال القلب يتسع. ماذا عنك يا حنين وقد تركتك بكامل أناقتك وكبرياءك تتواطئين مع شموخ الفرات علي. قلت قبل أن أغرق بحنين:

- يسرني لقاؤك سيدتي ويشرفني أن ألتقي زوجة سيد! سلوة أيامه. وجمّارة قلبه عائشة.. أتذكركِ وأنت ابنة تسع سنوات حين تعلقت بعنقه في صالة المطار تتشدين الذهاب معه...

صعد الدم إلى وجنتيها! فتح جمار القلب عينيه وابتسم... الأستاذ أحمد اعتذرَ مغادراً لبعض الوقت حين أحس أن مركب الحديث آخذ بالانجراف نحو شاطئٍ يتلاطم بالألغاز والذكريات.

تجاوزت عائشة احمرار وجهها الأسمر الغامق وقالت:

- أستاذ حمزة لا عليك من الماضي البعيد.. قد تستغرب حضوري وجمار القلب إلى حوث؟...

- حدّثني جمّار عن رسالة المرحوم الأخيرة وعن السفينة التي لا تصل..

- تلك كانت الشرارة التي حركت الرغبة في المجيء. لكن السبب الحقيقي هو رغبتي في زيارة الكعبة المشرفة وقبر الرسول.. ومن هناك جئت حوث وكان جمار القلب قد سبقني إليها وتعاقد للتدريس ثم لحقت به. لكن أجمل ما في الأمر حين أخبرنا الأستاذ أحمد صباح هذا اليوم، يوم رحيلي إلى الوطن أنك قدمت إلى صنعاء في مهمة رسمية مع وفد من الفنانين والأدباء.. وأنك راغب في زيارة حوث. وخمنت أنك ستزور

بالتأكيد غرفتكما القديمة، التي اختارها جمار القلب بطبيعة الحال دون باقي الغرف. فمنذ مجيئي إلى حوث ما تخلفتُ عن زيارتها كل يوم تقريباً.. سلِمتْ يداكَ يا أبا تغلب لخطوطكَ الجميلة في رسم سيد. كثيراً ما تخيلتهُ يخرج من الجدار يعانقني، أُقبّل راحة يديه أتشمم عطرهما، يغمس أصابعه في شعري يهمس لي أنه يحبني ثم يعود إلى مكانه في الجدار.

ما زالت جريئة واثقة من نفسها.. قلت:

- أنا سعيد بلقياكم.. ولكن أما كان من الأفضل لو بقيتما في أم درمان تتابعا هناك رسالة سيد. رحمه الله ما كان يحب الغربة.. ماذا وراء زيارتكِ لحوث سوى الذكريات المؤلمة؟

- لا بد من الألم للوصول إلى لحظة الفرح. لا دفأ بمكان دون احتراق بمكان آخر.

وكأني أستمع لسيد يحدثني! صوتها ذات الصوت كان ينضح بعبق المطر ورائحة الأرض.

- سيدتي الفاضلة. كان بودي أن أجالسكما وقتاً أطول. لكني مرتبط بمحاضرات ومواعيد في صنعاء. لدينا في الخامسة موعد لزيارة ضريح الشاعر الكبير عبد الله البردوني.. أكرر سعادتي برؤيتكم .....

نظرتُ إلى ساعتي.. كانت عقاربها تلسع الواحدة والنصف بقليل..

- أبا تغلب. قبل أن تغادر أريدك أن تساعدني على تنفيذ فكرتي

- أية فكرة!؟

- أستاذ حمزة، لكلٍ منا موته الخاص، خوفه الخاص، هاجسه الذي يجعله يرتعد من شيء ما، ولا أريد لجمار القلب أن يكرر مأساة والده وبذات المكان.... تكرست الفكرة ببالي حين سمعت بقدومك.

- ما زلت لا أفهم؟ أي فكرة تعنين؟

- أريدك أن تحضر طقس الاحتراق.

هنا تأكد حدسي. أنها ترمي لاغتيال اللحاف منذ أن حمله جمار القلب في كيس من الغرفة. قلت:

- وهل تريدين أن أباشر أنا بطقس الاحتراق؟

- هل أضع كلماتي في جردل ماء لتدرك ما أعني؟

- لحوووووول.. حتى هذه أخبركم عنها!. ما كان يحفظ سراً رحمه الله..

تبسّمتْ عائشة وهي مدركة أني أعي تماماً أنه أخبرهم في رسائله كل شيء عني..

- قبل أن أشرح لك فكرتي.. عليك أن تحضرني لحظاته الأخيرة.... ماذا قال، وماذا أوصى....

- ألا تجدين أن الوقت قد فات على مثل هذا الكلام.!

- لا لم يفت. البارحة كان رحيل سيد.. انظر إلى طيور الظهيرة تحوم فوق كومة الأحجار التي وضعها أبو طلال مكان إصابته.. تخبرك عن رجل من ثلج أسود، رحل لتوه..

خشيت أن أخبرها عن حدسي في أن هذه الطيور تعلن بنعيقها عن موت قادم.. لرجل يرتدي عمامة تحمل حرفين بالأزرق نقشتهما امرأة من نخيل وعسل.. قلبي ينبئني بذلك فقد رسمته قبل قليل بأصابعي على ورق من ضباب الذاكرة ... شعرت بالهلع من هواجسي فهي ذاتها التي راودتني ساعة لقائي بأبيه.... انتبهتْ عائشة لشرودي.. وأعادت سؤالها بطريقة أخرى:

- هل كان حزيناً في احتضاره؟

- كان يرسم للأشجار أوراقها.. يغذ السير وحيداً في ظلام شعرك، ولا نجوم تنير دربه إلا عينيك.. ابتسمت المرأة الستينية الفارهة الطول السمراء التي مازالت تحتفظ بكثير من جاذبيتها الآسرة وسألتني:

- هل من امرأة غافلت سفن ذاكرته. وطفت على شفتيه ذكرى خؤون؟

ضحكت في سري.. يا لعقل النساء وغيرتهن..! لقد اصطفيتك يا عائشة دونهن عقلاً ورجاحة.. وأنت في العشرين. فما بالك تفاجئيني وقد تجاوزت الستين! امرأة كباقي النساء. امرأة من شمع يذيبها الانتظار، ويلجمها شرود الغيم، ويغويها ظل النهار. أجبتها وكأني بزوجها أدرى وأعلم منها:

- طوال حياته ما تجاوز حدود قبره. بل ما تجاوز حدود كفيك يتشمم عطرهما. ألا يكفيك سيدتي أنه عاد إليك مضمخاً بعطرك ورسالته الأخيرة كانت لك وحدك. كنت أنت الوطن وأنت الغربة.

- أدركت الآن لماذا كان يسميك سيد الكلمات.. كنت أمازحك ليس أكثر.

- هل كنتُ في اختبار يا سيدتي

- حياتنا كلها اختبار..ألم يقل لك ذلك سيد؟

- يكفيني هذا القدر من التاريخ والدموع كي لا تجف أحزاني.

- أبا تغلب.. هل لي بسؤال أخير؟

- لك الخيول يا سيدتي فانطلقي.

- هل أنت ممن يؤمنون أن التاريخ يعيد نفسه؟.

- ليت زياد معنا.. أنا يا سيدتي أؤمن أن التاريخ يعيد اللدغ نفسه وبذات الجرح.. أما أنه لا يعيد نفسه فهي أكذوبة أوهمونا بها لغير هذا الزمان وغير هذا المكان.. سيدتي. إن ما يقرّبنا من شواطئ الألم هو دخولنا الملحاح في التفاصيل.. وأن ما يبكينا دائماً هو نسيج من الوهم تحيكه حولنا الأحلام.. نكتفي اليوم يا سيدتي بهذا القدر من اقتلاع حشيش الروح.. هل تخبريني عن مشروعك؟

قالت: هل تحمل ناراً ؟.. قلت: أين اللحاف؟

ابتسمتْ لأن حدسها صدق في أني أعرف ما كانت تريد. قالت:

- أنت تدرك معي أنه آن الأوان لأن تنتهي أكذوبة اللحاف وتنتهي أسطورة الميدوزا في قاع الجحيم.

- لا يمكن لأحد أن ينهي أسطورة أو يحرقها.

- لا تصعّب عليَّ مهمتي يا حمداني.. اللحاف ليس رمزاً للموت وليس أسطورة. ووجه امرأةٍ تصرخ بشعر من الأفاعي لا يعني بحال من الأحوال أسطورة لنهاية العالم. ساعدني في إقناع جمّار القلب بذلك.

ندهتْ على ولدها.. جاء وبيده الكيس الأسود، اهتز ضَوءٌ في ظلام الروح، تراءى لي أن رأس سيد هو ما في الكيس، اقشعرَّ بدني! أزحت الرؤية وقلت:

- هيا إلى المحرقة... ما دمتِ مصرّة..

خرجنا رفقة الأستاذ أحمد وكأننا متفقون على مكان بعينه.. تجاوزنا براكية أبي طلال بقليل بعد أن طلبت منه أن يلحقنا ومعه قليلاً من النفط..

كومة الأحجار التي وضعها أبو طلال فوق التبة ما زالت تحدد المكان الذي أصيب فيه الأستاذ سيد. وقف جمار القلب في الطرف الآخر من كوم الحجر.. ثم أشار بيده قائلاً:

- هنا مات أبي..... ردَّ عليه ممدوح وكان قد لحقنا:

- بل كانت إصابته هنا فحسب. أما موته يا بني فكان على سريره، هناك في السكن بين يدي عمك حمزة، آخر الأنفاس وآخر الكلمات وآخر ضوء رشفه ظلام القلب الحزين كان في غرفة الحمداني. تجمع حولنا بعض الطلبة وبعض الرجال وقليل جداً من النساء...

اقترب ضابط أسمر يمني التقاسيم له بشرة تشبه بشرة سيد. قدّم نفسه أولاً لعائشة:

- أنا الملازم أول عبيدة ذو كراع. " أبو جرّاح " ضابط أمن حوث.. اتصل بي الأستاذ أحمد وأتيت.. ارتجفت يدها وامتدّت لتصافحه.. قالت:

- تشرفت بمعرفتك ملازم أول عبيدة.. ألست أصغر الفرسان الثلاثة الأشاوس الذين ساعدوه في إدخال العفش. ما زلت أحتفظ بصورتك مع المرحوم.

- وأنا كذلك يا سيدتي. أحملها في محفظتي دائماً.

- شكراً لمشاعرك النبيلة.. لن نستغني عن خدماتك.

- على الرحب والسعة سيدتي.

ثم صافحني بحرارة مؤكداً لي أنه على وعده الذي أقسم على تحقيقه لحظة احتضار الأستاذ سيد. اقتربت عائشة من ابنها أخذت منه اللحاف. فردته على طوله فوق كوم الحجر، تأملتْ وجه الميدوزا ثم استدارت نحوي وسألتني:

- هل تخشى هذا الرسم؟

- لا أخشاه ولكني أكره الأفاعي..

- هل لي بطلقة الرحمة إذاً.

أخرجتُ من جيبي علبة كبريت. صبّتْ عائشة الزيت على اللحاف الذي كانت تأمل دفن أسطورته. ارتجفت يدها ثانية وهي تقدح عوداً من الثقاب، رمته في دبيب الأفاعي. شظ اللهيبُ ولفحَ الوجوهَ، سدَّ الأطفال آذانهم، وابتعد الرجال وخافت النساء.. أجَّ اللحاف واشتد أواره..

كان يوماً قائظاً شهدته حوث. غطى صراخُ الميدوزا صدر السماء وتصاعد معه الدخان ونباح الكلاب. وثمة نوافذ يختبئ وراءها همس عجائز عن موت مرتقب يشبه ذاك الذي شهدوه منذ عشرين عاماً. خمدت النار وتناثر رماد اللحاف.. احتضنت عائشة وليدها كأنه عائد لتوه من غياب طويل. نظرتُ إلى ساعتي.. حانت لحظة الوداع. لا بد أن

أكون مع الوفد في زياراته المهمة.. استأذنت من السيدة عائشة ووعدتها بزيارة قريبة إلى السودان ثم صافحت الأستاذ أحمد وعانقته بحرارة وقد أبدى استعداده لإيصالي بسيارته إلى صنعاء. ثم اقترب الضابط أبو جراح وأبدى الرغبة نفسها. اعتذرت منهما بلطف وشكرتهما.. عانقت جمار القلب وتمنيت له السعادة والهناء وكذا فعلت مع أبي طلال الذي لم يتمالك نفسه، بكى وهو يحتضنني.. وطلبت منه أن يقبِّل عني سيف الدولة والحارث وحمزة.

في الثانية والنصف كنت أرقب الطريق من نافذة الحافلة المغادرة إلى صنعاء. وشريط ذكريات يمر أمام عيني تتخلله ألسنة دخان تتصاعد مخترقة سماء اليوم التاسع والأخير في حوث .....

الرقة ـ ك1 ـ 2006

اللحاف : تسعة أيام في حوث / أيمن ناصر
دمشق : اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٨ - ٢٧٧ ص؛ ٢٠ سم .
سلسلة الرواية (٦)

١ - ٨١٣,٠٣ ن ا ص ل ٢ - العنوان ٣ - ناصر ٤ - السلسلة
ع - ٢٠٠٨/٧/١٥٦٥

مكتبة الأســـد

اتحاد الكتاب العرب
Union des Crrivains Arabes
Damas دمشق

قرأت رواية "اللحاف" سطراً سطراً.. بالأحرى، كلمة كلمة..
لا للمهمة المناطة بي لقراءتها. فقد شدني العمل منذ صفحاته الأولى..
ثم راح إيقاع الروي، يحملني على زورق يتهادى فوق أمواج بحر هادئة فيما الأعماق تضج بالعواصف...

"اللحاف" هو البطل الخفي للرواية... لكنه ليس البطل..... فثمة أبطال كثيرون يصارعون الغربة بعيداً عن أوطانهم، في وطن مستعار،وبلدة تؤويهم، ومعهد يضمهم ... حيث عبر المنطق المنفلت عن قوانين الحوار،سيتبادل المهربون ، و الفاسدون ، و المتسترون بعاهات الغيب ، رصاصهم العشوائي مع رجال مكافحة التهريب... مثلما يتلقى الأنقياء الرصاص المشبوه... الذي قاوموه..

حمل الرجل الأفريقي الأسمر ، مرضه المميت ، ولحافه معه....اللحاف الذي يحمل رسماً لـ (الميدوزا) كما في أساطير اليونان....الميدوزا التي كانت بنتاً جميلة..... وغضبت منها الربّة أثينا ، بسبب الغيرة وحولتها إلى امرأة بشعة، وحولت شعرها إلى ثعابين.وصار كل من ينظر إلى وجهها يتحول إلى تمثال من حجر.... ولم تقتله ثعابين الميدوزا. إذ بدا وجه الميدوزا فوق لحافه كتعويذة، تحميه..لكن ثعابين الشر لم توفره..

أبطال الرواية جميعهم.... يقاومون النظر إلى وجه الميدوزا بشكل خفي.. ويتجنبون رؤية ثعابينها ..... لكن صاحب اللحاف وحده يحمل صخرة سيزيف بين كتفيه مستسلماً لقدر مرضه العضال ، والسرّي، متحدياً وجه (ميدوزاه) وثعابينها القاتلة.. ولن تقتله إلا عبثية الزمن العابث..

رهاني على كاتب الرواية.. وعلى الرواية..

إنها فتح جديد بعد زمن من الركود.. ولا أبالغ..

وليد معماري

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

(300) ل.س داخل القطر
(500) ل.س خارج القطر

Designed by Muneer Al-Refai